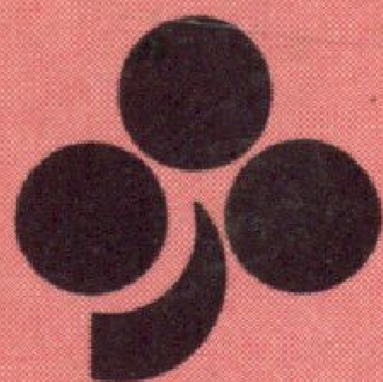
المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر



مؤنس الرزّاز

فاصلة الأعراب في ناطحات السّراب

رواية

متاهة الأعراب
في ناطحات السراب

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت، ص.ب ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٦

متاهة الأعراب
في ناطحات السراب

رواية

مؤنس الرزاز

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

باب : هكذا تكلم آدم الحسنين

جـواز سفـري مـزور . وجهي قنـاع ، جسـدي قميص . لأني أنـا الكامل اليأس ، الكامـل النفي ، رأيت . لأني أنا كمـال اليأس ، كمـال النفي . . أعمى . لأنني أنـا كمال النقص . لأني أنـا الضحية الكـاملة ، والفجيعة المضحكة .

ثلثان مني أجهلهما . وثلثي الأزل الطويل كشعر جدتي . هيكـلي في هيئتي ، فـردٌ بلا ثـانٍ ، أما سـلاحي فـلا شيء يضـاهي صـولـة يـأسـه . خصني القدر بنعمة التيـه ، وحباني بـالبطولـة المفجعة . أنـا الرجـل الذي رأى . . ولم يسمع .

رآني قـانص صيـاد ، يســير في القفـار ، يــرتـاد الجحــور ، يلم بالكهوف ، يختلف على السراديب . والشمس تجلله ، أينـما حل ، وحيثـما يمم .

أبي ، أبي . . يـا حسنـين يـا حكيم يـا مختـار يـا أحمـد يـا مصـطفى يا نوح . . يا آدم . . يا ذياب . .

هذا الذي جاء من البراري ، هذا الذي جاء من الروابي . .

بأسه شديد ، وهيئته رهيبة . .

يحيا مع الوحوش حيث تحيا ، يجوب في السهوب .

قصاص أثر . . وصياد وحش ، وقناص ضوار وغمام ،

أنا الوحش ، أنا الضواري في الأرض والطريدة في السماء . .

لماذا لا أضرب منه كل بنان ؟

لماذا أهرب منه ، فيفر من بين أصابعي ؟

. . جواز سفري ، ذلك الفردوس المفقود .

* * *

ليل يورق أرقاً . أرق أبيض ألق . وظلال تنحدر كموج من خصل وحشة بائدة . ظلال في ظلام من اللظى ، تنثني كأنما تقفو أثراً ، تطارد كإيقاع قصيدة لامرىء القيس . إيقاع يقرع الذاكرة ، يوقع الكلمات ، ويأتي صافياً عارياً من المفردات . تاركاً إياها تسقط في غور هاوية النسيان الواضح اليومي .

ظلال أطلال تلاحقني كخطواتي . تعلو وتنخفض كلهاثي . ظلال في الظل وفي اللظى . . في العتمة العمياء ، في جحر الحجر وحجره . في الضوء إذا ما دفق وانكسر على المطر .

أنا حكيم الحسنين ، وأنا آدم الحسنين ، وحسنين آدم الحسنين أركض و «ذياب» يلاحقني منذ ما قبل الزراعة والكتابة وتقسيم العمل . أكر فيفرّ . وأفرّ فيكرّ . أبسط له يدي لأقتله فيتشظى إلى ألف ذيب وذيب . يتدفقون نبضاً وإيقاعاً في عروق الزمن من « قابيل » حتى « بينوتشيه » . وأنا أكر وأفر ، وأختفي لأظهر من جديد ، مثل خلد

يحفر في يباب الأزمنة أنفاقاً ودهاليز . ينفصم فأنفصم ، ينشطر فأنشطر ، تتوحد أضداده فتتوحد أضدادي . أجوب الصحارى والمدن والموانىء على صهوة جوادي . أتسلل إلى المخادع وعيون الماء . أدس الأرق في الوسائد ، وأسكب القلق في مياه الشرب . . . في سبيل يقظة باهرة ، في سبيل نوم جليل كامل .

من حضيض الوقت السحيق إلى غدٍ . . أطارد وأطارد . . واللهاث . دائرة في الهواء رسمها الضابط العثماني وقال لا تخرج من محيطها . . ألف عام وعام . مداها البسيطة كلها من القطب إلى القطب ، من قابيل إلى جعفر النميري ، من ديترويت إلى عدن .

* * *

وإذ هم في الطريق ، لاح لهم غبار مثار ، ما لبث أن تكشف عن جيش جرار . فعدل الرجل ذو الغرة الخضراء بصحبه عن طريق الجيش ، فاعترضه قائد الجيش . وما زال ذو الغرة الخضراء ، يسير بأهله وأصحابه يميناً ويساراً ، وقائد الجيش يعترضهم مرة ، ويخلي بينهم وبين الطريق أخرى ، حتى بلغ بهم كربلاء . . . فتركهم ينيخون هناك .

وأنا كيف أفصل بيني وبين آبائي وأجدادي الذين تنقلت بين أصلابهم جيلاً بعد جيل . كالبدو الرحل أنتقل من الأصلاب الملغزة إلى الأرحام المذهلة . أمتزج بالبطون والفروع ، النائية في الفجيعة . تتاج أفخاذ متشعبة وسلالات من بنات القدر ضاربة في الأزل . مضرجة بالأوبئة النورانية .

أنا صاحب اليسر ، صاحب العسر ، الذي لا أتبسط في الحديث ، ولا أتيسر على نفسي في أمر الدنيا . والشوق لحمل الرسالة يحرقني . ولأكن عندئذٍ مصب الكوارث ، ومستودع المحن . لست

مزواجاً ولا مطلاقاً . . وإنما أستوحش من الدنيا وزهرتها ، وأستأنس بالليل وظلمته ، وبعراء الزهد . وحين أنخت بين حجارة خشنة ، وحيات صم تشرئب لتنشر فحيحها ، نظرت ، فإذا ليس لي معين ولا عصبية إلا نفر من أهل الجوع . . فضننت بهم عن الموت ، وأغضيت .

والرعب أمامي يرسل زفير النهاية الفاجعة كأنفاس بيض في يوم بارد . قدمت وأخرت ، وصعدت وصوبت ، ونقضت وأبرمت . ثم اندفعت لأحضن جمرة الحلم الفاجع التي لا مفر منها . . واحترقت .

. . وخرجت من دائرة البحث العلمي ، بعد أن ألقيت محاضرتي عن العلاقة بين العصر التكنو ـ إلكتروني واللاشعور الجمعي . لحق بي مجموعة من المستمعين وناقشوني . أكدت لهم أن ما يقوله بريجنسكي خطير للغاية . وأن تعرية اللاشعور الجمعي الذي يتحكم بنا ينبغي أن يتم في ضوء العلم وأدواته ومناهجه . قلت اننا لا نستطيع مواجهة التحديات بالتعاويذ ، والحجب ، والشعوذة ، والتمائم .

توقفت والتفت إليهم . اعتذرت ، أخبرتهم أنني مشغول . مش فاضي . أنا رجل وقته من ذهب . أنا رجل يقدر قيمة الوقت ويحترمه . . بالرغم من « شرقيتي » .

وانطلقت وحيداً في شارع مقفر . نسيم رخو هين يداعب شعري ، وأترك وجهي يتقلب فيه .

قلت انني أحب المشي . رأيت امرأة تمشي والشوارع تجري من تحتها .

فكرت : إمرأة تمشي من تحتها الشوارع . ابتسمت . فكرت في الدراسة التي بدأت بكتابتها ورحت أبحث عن عنوان مناسب لها : « نقل التكنولوجيا في العالم الثالث » . . لا ، عنوان يفتقر إلى الدقة .

« الثورة التكنولـوجية الثـانية وتـأثيرهـا على القيم التي أنتجتهـا الحضارات الشرقية » . لا . . طويل جـداً . العصر التكنو ـ إلكتـروني والتراث » . . لا بأس . « تأثـير التكنولـوجيا الغـربية عـلى الخرافـة » لا . . «التكنولوجيا المتقدمة والمنهج المادي الجدلي » . . ربما .

في تلك اللحـظة حانت مني إلتفـاتة فـرأيت رغيف خبـز ملقى عـلى الـرصيف . انحنيت بحركـة عفويـة آلية ، قبلتـه ، مسحت بـه جبهتي ، ووضعته على الحائط .

الجزء الأول :

نجوم الظهر

« . . . لا بد في القتال من العصبية . . . »

ابن خلدون

« إن وجود « اللاشعور » و« الشعور » في الفرد الواحد ، يعني أن هذا الواحد هو في حقيقة الأمر منفصم إلى اثنين . هذه حقيقة بسيطة واقعية لا نجدها لدى العصابيين فقط ، بل هي سمة من سمات الإنسان المعاصر . . نراها في كل وقت ونلمسها في كل مكان . . . إن اللاشعور الجمعي هو نتاج وخلاصة لتاريخ الإنسان . . منذ الأزل » .

كارل غوستاف يونغ

عندما أوشكت أمي على الوضع . وقف جدي لأبي فوق رأسها . تفحص وجهها الوضيء ، وعينيها المشعتين ببريق مبارك ، ثم جس بطنها وقال :

ـــ أبشري . ستلدين توأمين مباركين .

وراح يقرأ على رأسها آيات بينات ، ويمسح بيده على جبينها .

لكن نبوءته لم تتحقق . فقد أنجبت أمي مولوداً واحداً : أنا . ولما شخصت العيون إلى جدي ساخرة متسائلة . مال نحوي ، فتفحصني ، ثم رفع عينين كلهما دهش ورعب . قال بعد صمت طال :

ـ رأيت ما لا أجسر على التفوه به . وأكاد أكذب تنجيمي وحكمتي ولا أصدقها لغرابتها .

ثم أمسك لسانه في فمه . فلما ألحت جدتي لأمي وجارتنا أم سليمان على إشارة أو علامة . قال باقتضاب :

ـ سموه حسنين . فهو توأمان في غلام واحد . وليس توأمين في غلامين كما تنبأت من قبل .

رفع أبي زاوية فمه في سخرية . ثم رفعني بين يديه . وقال ضاحكاً :

ـ شو هالحكي يا عمي . بلا تنبّؤات بلا بطيخ . إحنا عايشين في عصر النهضة العربية . . عصر العقلانية والتنوير .

* * *

أمي تتحدث عن شاطىء غزة العجيب . تقول ليس كمثله شيء . وأبي يحكي عن طفولته في شوارع دمشق العريقة . وأنا أحب مسقط رأسي ـ ملاذ المستجيرين ـ وأحب رائحة أمي ، وأحب الرمان . . وأبغض العتمة . العتمة موطن الأشباح والجن تقول جدتي وتأخذ وجهها المتضمر ، البارز الوجنتين بين يديها . وتترك شعرها الطويل كالأبد يتيه على ظهرها حين تكون في البيت الكبير القديم . وتشتعل عيناها بجذوة كأنها نار الأزل . وتهز رأسها الآهل بالحكايات الغريبة الفاتنة ، رأسها الذي يقول جدي عنه أحياناً أنه ممسوس . تهز رأسها وتقول ان العتمة موطن الأشباح ، ودهاليز يتوارى فيها المنتظر أثناء غيبته الكبرى .

والعتمة ـ تقول ـ مرقد أبيها الكربلائي الذي خطف أمها وهرب بها من جبل العرب ، إلى هذا الغور . تحكي عن العتمة والمهدي الغائب وأبيها النازل من سلالة نبتت ما بين النجف وكربلاء ، وتحكي عن أمها التي تؤمن بالتقمص . أمها التي عاشت ألف حياة وحياة ، وكانت تتذكر (سبعاً) منها بكل تفاصيلها . وتشرد عيناها المبرقتان أبداً وهي تحكي عن العتمة .

وأنا أخاف. أبي لا يخاف العتمة . أبي بطل . قال انه أقوى من أديب الدسوقي ، ومن شمشون الجبار ، وأقوى من فريد شوقي كمان . لكن أمه البدوية في السماء ووالده الذي نزح من البادية إلى الشام وحيداً . عاد فنزح من الشام إلى مسقط رأسي وحيداً . وعائلة أبيه شبه المنقرضة ظلت غامضة المصير .

أنا خفت أن يكون أبي مقطوعاً من شجرة . لكنه أكد لي أنه ينتمي إلى عشيرة منيعة . وكان يضحك ، ويدخل في معطفه الثقيل ليغادر إلى عيادته . فزاع الهزاع ، عريف الصف العملاق قال انه ينتمي إلى عشيرة كبيرة . قال وهو يدفع صدري بأصابعه الغليظة انني مقطوع من شجرة . وان عائلتي ليست سوى قردين وحارس .

وفي البيت بكيت ، وضربت قدمي في الأرض . أبغض الضعف ، وأنا نحيل منخسف الخدين ، وبلا عصبية . وسألت أبي عن العشيرة ، ودموعي كانت تملأ وجهي ولا أرى . قال أبي أنا وأنت ننتمي إلى عشيرة كبيرة . . لكن الأحلام الكبيرة تربط بين أفرادها ، لا الدماء والنسب .

ولم أفهم ، لكنني آمنت . وتوج الفرح عيني بضحكة ملكية .

أورق في قلبي زهو ، ورحت إلى المدرسة أمشي كالطاووس . وأعرف أن مسقط رأسي جبال سبعة . وأن « أبو التوت » قريب جدتي

ليس مخبولاً . . لكنني لا أعرف ما العشيرة التي تربط بينها الأحلام الكبيرة . . لا الدماء .

وأبي غادر البيت وأنا لا أفهم . والمطر ينهمر ، ولأمي رائحة البحار . وجدي لأبي . . المعروق الوجه ، الغزير الحاجبين ، المدور الجسم يقول انه كان ينتمي إلى عشيرة بدوية منيعة . . لكنها شبه منقرضة . وقال انها كانت عظيمة العدد قبل التيه . لكنها ذهبت في الشتات . وأنا لا أفهم . والمطر ينهمر على رأسي . وفي رأسي حيرة لاهبة لا تبتل ولا تنطفىء .

مشيت كالطاووس . وقلت لفزاع الهزاع مفاخراً انني أنتمي إلى عشيرة تربط بين أفرادها الأحلام الكبيرة . كنت أمشي كالطاووس وأردد ما قاله أبي كالببغاء . وضج فزاع بالضحك . . وكشر النهار . وأنا سقطت في بحيرة الحيرة . وقال فزاع ، العظيم الهامة ، وهو يمد لي لسانه ، ان الذي قال لي هذا كاذب وعلق ساخراً :

ــ قال أحلام . . قال .

أكدت له أن أبي لا يكذب ، ولا يخاف العتمة . وأنا أخاف فزاع ، وأتمنى لو أصفعه ، لكنه مديد القامة ، عريض المنكبين ، وأنا أوهن من خيوط الشمس ، وأشبه عقلة الإصبع ونص نصيص اللذين يحكي لي جدي عنهما . وجدي يحكي لي قصص الأنبياء وكرامات الأولياء بعد أن يصلي ويبكي .

وحردت من نفسي . وبوزت لأني لم أرث قوة أبي الذي لا يخاف العتمة ، ولا يخاف السيارات حين يجتاز الشارع . لأنه كبير . . أكبر من ذلك الجبل الذي على رأسه قلعة .

ولكنني لا أفهم ما هذه العشيرة التي أنتمي إليها ولا أراها ولا أعرف اسمها . ولماذا تربط بينها الأحلام . . وكيف ؟ فزاع يقول ان

عشيرته الكبيرة القوية تربط بينها الدماء . قال كل العشائر هكذا . وسخر مني . لكن أبي لا يكذب ، وهو عملاق . . أكبر من الجبل ذي القلعة .

وحديقة بيت جدي الكبيرة تطل من هذا الجبل على ذاك . وفي أقصى الحديقة تنهض غرفة « أبو التوت » قريب جدتي . لا ، هي لا تنهض ، بل تميل وتومىء وتكاد تتداعى .

أبو التوت يقول كلاماً غريباً لا أفهمه . وجدتي تقول مثله . يقول وتقول ان العالم ينتظر المنقذ . المنقذ الذي اختفى في سراديب الزمان التحتية . جدتي تقول ان « أبو التوت » متقادم الميلاد . وأنا لا أعرف معنى هذه الكلمة . لكن شعر جدتي طويل كالأزل . وحكاياتها أقدم من حياة « أبو التوت » . وأبو التوت يقول ان للمنقذ علامة . والعلامة شامة خضراء على الخد الأيمن . ويشير إلى الشامة الخضراء على خدي .

ويحتسي أبو التوت (الكازوزة) التي تجعل لسانه ثقيلاً وعينيه حمراوين . ولا يرضى أن يسقيني . يقول تذهب إلى جهنم إذا شربت . وتحرق في النار . ولكن لماذا لا يذهب هو إلى جهنم ويحرق في النار؟ أنا لا أفهم . لا أفهم شيئاً . ورائحة الكازوزة قوية وكريهة وأنا لا أريد أن أشرب . وجدي يزجره إذا ما رآه يشرب الكازوزة . ويقول له :

ــ خاف ربك . إتق الله يا رجل . تب .

وأبو التوت لا يتوب ويقول : « أنا ورقة التوت الأخيرة . . فإذا ما سقطت لم يبق في هذا الشرق اللعين سوى العراء المحض » .

وأنا لا أفهم لماذا يحكي أبو التوت بهذه اللغة الصعبة . لا أفهم شيئاً . وأبو التوت أسود كالتوت .

وجدتي تقول ان « أبو التوت » خرف وان المنقذ المختار الإمام

المعصوم علامته النور الذي يشع من وجهه ، لا الشامة الخضراء . وكنت أزعل ، وأفضل حكي « أبو التوت » ، لأن خدي الأيمن فيه شامة خضراء . وتقول جدتي وهي تهز رأسها انها تتذكر حياتها أيام هارون الرشيد . ويقول أبو التوت انه يتذكر حياته أيام حمورابي ، وهنيبعل ، وتوت عنخ أمون ، وطسم وجديس ، وعلي بن أبي طالب ، وفخر الدين المعني ، والسلطان عبد الحميد ، وحسني الزعيم . ومرات كان يضيف واحداً اسمه جلجامش ، وواحدة اسمها عشتروت .

وجدتي كانت تضحك بلا أسنان وتقول ان « أبو التوت » رأسه فاضي . لا عقل فيه .

* * *

وبكيت حين عدت من المدرسة . فقالت أمي ان عشيرة أبي أقوى من عشيرة فزاع الهزاع . وأمي أيضاً لا تكذب ولا تخاف العتمة ولا تحكي كلاماً غريباً مثل كلام أبو التوت .

وهي أيضاً تقول :

ــ ما تصدق كل ما يقوله أبو التوت . أبو التوت خالص كازه .

وتضحك من تعبيرها « خالص كازه » . خصوصاً حين أسألها :

ــ ليش هو صوبة حتى يكون فيه كاز ؟

وتقول أمي ان عشيرة أبي أقوى من عشيرة فزاع ، لأن رابطة الأحلام أقوى من رابطة الدماء . وأمي لا تكذب . لأن الكاذب يذهب إلى جهنم .

* * *

وأبو التوت قال اني أكثر من الأسئلة . وقال اني أريد المستحيل . لن أفهم العالم دفعة واحدة . قال :

ـ إستنى حتى تكبر وتصير زلمة .

وما كنت صبوراً .

وأبو التوت يلطم في عاشوراء . يضرب رأسه بسكين ، وتنفر الدماء . وأرى وجهه مضرجاً بدمائه فأبكي وأخاف . وجدتي تفسر لي . وتبكي الحسين . ثم تقول ان والدها خطف أمها خطيفة من جبل العرب ، ولجأ إلى مسقط رأسي الذي أحبه مثل الحلوى . وجدي يقول هذي المدينة الملاذ . الملجأ . لجأ إليها الشركس من قفقاسيا ، ولجأ إليها الفلسطينيون من فلسطين ، ولاذ بها أرمن وشوام ودروز . وهاجر إليها بدو من الصحراء . ويقول أنت نتاج كل هؤلاء ، أنت تشبهها . ولا أفهم . ولا أفهم لماذا ينتحب وهو يصلي . أمي قالت :

ـ من مخافة الله .

لكن الله لا يخيف . فهو يحبنا . أبي قال ان الله يحبنا . وأبي لا يكذب . إذن لماذا يبكي جدي كلما صلى ؟ وأبو التوت يقول أنت تكثر من الأسئلة . وهو يحكي كلاماً غريباً . يقول إنه اجتاز متاهات الصحراء ومجاهلها حتى لاذ بمدينتي .

أسأل « أبو التوت » إن كان في الصحراء التي اجتازها بحر مثل بحر غزة الذي تتنشقه أمي ولا تراه .

يقول رمال الصحراء موج ، والجمل سفينة . ولا أفهم كيف يكون الجمل سفينة ، لكن الجمل لا مجداف له ولا شراع .

قال أبو التوت ان الصحراء لجة من لهب . والسراب مفاجأة الحواس لنفسها . وأنا لا أفهم . لكن عالم أمي بسيط . هي تفهم ، ولها رائحة البحر ، وتفسر لي ما لا أفهم . لا تقول الليل وردة الوحشة كما يقول أبو التوت . تقول الليل ليل . . والليل أسود . والليل عتمة

وظلام ولا يخيف . وأقول لها ويدي الصغيرة في يدها الناعمة ـ الملاذ ، انني أخاف الظلام ، لأن أبو التوت يقول ان رجلاً اسمه جلجامش يطلع في الليل من عالمه السفلي . . لينتقم . ولأن جدتي تقول ان العتمة موطن الأشباح ، وأصحاب سيد شباب أهل الجنة وأجملهم أجمعين . فتضحك أمي ، وتضم رأسي إلى صدرها ، فأشم رائحة البحر . وأبي في العيادة رأسه لا يزاحم رأسي . صدرها الآن لي وحدي . وتقول ان أبو التوت خرفان . وتجيء « بنواصة » ترسل ضوءاً أخضر شاحباً يبدد خوفي من العتمة . وتنهر أبو التوت تقول مكشرة :

ــ لا تحكي للولد قصصاً مرعبة .

تتقد عيناه . ويهز رأسه . وينثني ليشذب عشب الحديقة . لا يقول ولا يحكي . يضرب عن الكلام أياماً . ثم يعود إلى ثرثرته حين يحتسي « الكازوزة » العجيبة .

* * *

أبي سألني لماذا أسأل دائماً عن العشيرة . قلت لتحميني . قلت انني أخبرت فزاع عن عشيرة جدي المنقرضة التي لم أرها ، فضج بالضحك وقال :

ــ يعني بتتفاخر بشعر خالتك مرت أبوك ؟

وقلت ان معظم أولاد المدرسة لهم أخوة وأبناء عمومة وخؤولة . . فإذا ضرب أحدهم هبوا جميعاً لينصروه . والعشيرة ترد عن الناس أذى الجن والغول والضبع والعفاريت . ويرسل والدي ضحكة مجلجلة . يقول : « أنا أحميك من العفاريت » . ويسألني عن أقوى رجل في العالم . وأقول ربما ماجستي الجبار ، يعني « ستيف ريفز » الذي رأيته في السينما ، يحمل صخرة هائلة ويقذف بها أعداءه . وينثني أبي ، فيحملني بين يديه ويدور بي . يدور ويدور ويقول : « أنا أقوى من ماجستي

الجبار . أستطيع أن أرفعه بيد واحدة وأرميه على الأرض » .

وأطير من الفرح .

* * *

وجدي يقول انه لا ينتمي إلى عشيرة أبي التي تربطها الأحلام . فلا أفهم . ويسمع « صوت العرب » من المذياع ، ثم يصلي ويبكي ، ويطوي سجادة الصلاة . يكفكف دموعه . وأنا لا أدري لماذا يبكي ؟ ألا يحبه الله ؟ يأخذني بين يديه . أتنشق رائحة الأرض والتراب من صدره . يحكي لي عن قبيلته التي تشتّتت وانقرض معظمها . يقول ان جده الكبير « آدم » كان بدوياً يأنف من الزراعة . كان ضد الاستقرار والفلاحة . صعلوك أصيل ثار ضد الاستقرار المحتوم . كان يغزو المراكز الحضارية التي اختارها البدو كي يستقروا فيها ويزرعوا الأرض . « إنهم يتوسعون على حساب براري مراعينا » ، يهتف ويهتف . . صيحة في واد . وانتهى نهاية أشبه بنهاية هابيل الراعي على يد أخيه قابيل المزارع . إذ تشظت القبيلة إلى شظايا . منها من تشيع لآدم والحياة البدائية ، ومنها من تحالف مع القبائل الأخرى لنصرة الزراعة .

وفي النهاية عزم الجميع على التضحية بآدم وعصبته . فبسط الرجال أيديهم لبعض أبناء آدم وقتلوهم . وذبحوا معظم أحفاده من بنات وأولاد باستثناء واحد ـ وجدي أحد أحفاده ـ . فلاذ آدم إلى مجاهل صحراء أشبه بالمتاهة . . ولم يسمع عنه أحد . ودفعت ذريته الثمن . وقيل انه ظل يشعر بالذنب . . وكأنه هو شخصياً مسؤول عن مصير ذريته المفجع . وقيل انه تزوج في تلك المتاهة المجهولة وأنجب ذرية كبيرة ثم انتحر ، بعد أن سحقه الشعور بالذنب سحقاً . وقيل انه إغتيل . إذ كان ينشر الأرق والقلق كوباء معدٍ أينما حل ، وحيثما يمم .

وجدي يهز رأسه الصغير ، ويلتفت نحوي بوجهه المهدوم ويسألني

إذا كنت أسمع حوافر جواد آدم ، وحداءه . إنه يمرق في الليالي كالريح ، تومض عيناه كالبرق . يدخل البيوت كالشبح ، يزرع الأرق في الوسائد ، يسكب القلق في الخوابي وعيون الماء . يأتي إلى سريري وأنا نائم ويشد على يدي .

وأنا أرتعش بين يدي جدي وأصرخ محتجاً :

ـ ليش أبطال قصصك دايماً بيموتوا ؟ . ليش ما عاشت القبيلة ؟ ليش ما غلبهم جدك ؟ كان ضعيف ؟ ليش ما ترك لنا عشيرة مثل عشيرة فزاع الهزاع ؟ أسأل وأسأل . وينفي جدي ضعف آدم . فأقول مستنكراً :

ـ طيب ليش غلبوه إذن ؟

وأبكي . فتتقد عيناه بصمت . ويغمغم بالفصحى : « قلبت الصحاري ظهراً لبطن بحثاً عنه وعن عصبته . . فلم أظفر سوى بالسراب » .

ويقول أبو التوت انه اطلع على ما لم يمتد إليه علمي . ولم تصل إلى الإحاطة به أسباب قوتي وملكي . وانه كشف أسراراً ند عني أمرها ، واختفى خبرها . ثم يقول :

ـ لقد نبئت بك يا بني قبل أن تولد .

وتتوهج في عينيه نار جنون خرافي . وأنا لا أفهم كلماته الصعبة .

* * *

وعدت ذات يوم من المدرسة فلم أجد أبي . وتلفت فإذا الوجوه متجهمة تداري مرارتها بأقنعة تصطنع العادية . وأنا لا أفهم . ولكن جدتي بكت . وسألت ، نبتت أدغال أسئلة في عيني . فإذا الوجوه يباب أجوبة . وإذا الأجوبة سراب خادع .

قالت أمي :

ــ سافر .

وعيناها قالتا :

ــ أخذوه إلى قمقم .

لكن أمي لا تكـذب . الكـذب حـرام . والله يعـاقب الكـاذب . وأبي لا يأتي . يأتي الليل ، ثم نهار ، ثم باص المدرسة . . وأبي لا يأتي .

علاء الدين ابن خـالتي قال ان أبي ليس أقـوى من ماجستي . وانـه ضعيف . قـال ان والده أقـوى من أبي . قال : « أخـذوه ولم يجرؤوا عـلى أخـذ أبي » . واندفعت نحـوه مكوراً قبضتي الصغيـرة . لكن علاء الـدين قوي مثل ثور . يضحك ويكتفي بصد ضرباتي الواهية .

ويـأتي الجيـران . أم سليمـان وابنتهـا بلقيس ذات الـوجـه الحلو كـالحلوى . وبكت أم سليمـان وهي تضم أمي إلى صـدرهـا . وبكت بلقيس ، واهتز شعرهـا الليلي المرسل عـلى جانبي وجههـا الأبيض . وأنا شعرت بلذة غريبة حين قالت بلقيس :

ــ حرام . . حسنين .

وانحنت وقبلتني على جبيني وانهمر شعرها المتأجج كنـار سوداء عـلى وجهي ، وانهمـرت رائحتهـا عـلى رئتي ، وضمتني أمهـا إلى صـدرهـا . . وأحببت أن يبقى رأسي هنـاك إلى الأبـد . ولكن أبي لا بـد أن يعـود . وأقبـل اسكندر البقـال وشاربـه الـذي « يكتف بلد » . بـدا الخـوف عـلى وجهه ، والدمع في عينيه . وقال :

ــ مين رح يعالج الفقرا ببـلاش بعد مـا أخذوه . إحنـا بدنـا ياه في عيادته . . بيخدمنا أكثر .

وسوى كوفيته البيضاء .

وقـالت أمي فيما بعـد انه اقتيـد إلى منفـاه الصحـراوي لأنـه حبيب الفقـراء . لكن اسكندر البقـال قال لهـا ان الفقراء يـريدونـه في العيادة . وأنا لا أفهم .

وأبكي وأضرب قدمي في الأرض قهراً وعجزاً .

وأبـو التـوت يقـول : « يـا مبـارك ، الألم إشارة والألم عـلامـة » . ويحتسي من الكـازوزة التي تسميهـا جـدتي « السم الهـاري » . وسـألت « أبو التوت » كيف يهزم الأبطال ؟ قلت :

ــ كيف قـال لي إنـو أقـوى من مـاجستي ؟ و . . وين العشيـرة ؟ ليش ما تفزعلو ؟

ويتقـد ومض خرافي في عينيـه ، ويخفي وجهه بـالكـازوزة . يـرفـع رأسه نحو السماء . يضع فـوهة الكـازوزة في فمه و . . يمص . ثم يقف بعد أن يأتي عليها ويهتف وهو يترنح كأنما يتأهب ليتساقط :

ــ يا جبل ما يهزك ريح .

ويضـرب بقبضتـه عـلى صـدره . ثم يقـول بحـزن وهـدوء وهـو يترنح :

ــ أنا ورقة التوت الأخيرة ، إذا سقطت لم يبق سوى العراء .

وتكـاثرت أسئلتي ، ونمت كـأدغال كثيفـة وسط صحارى من يبـاب الأجوبة . ورنحتني الصـدمة . انكسر شيء مـا في أعماقي . انهارت كـل القوالب التي أطرت بها العالم . إذن أبي ليس أقـوى من ماجستي الجبـار . ثم أين هي هذه العشيرة التي تربطهـا الأحلام الكبيـرة ؟ وما عـدت أفهم شيئاً .

* * *

وبلقيس التي تشبه قطعة الجاتو تبكي . ما كانت تلتفت إلي من قبل أن يأخذوا أبي ، ولا كانت تلعب معي . لكنها بكت . أمها قالت انها بكت حين أخذوا أبي . ومرة قلت لها انني أشتاق إليه . . فبكت . انهمرت دموعها ، وانهمر شعرها ، وهطل مطر خفيف . . ثم تساقط ضوء قمر شاحب . وقرصني البرد وشعور غريب مباغت باللذة . فرحت أبالغ وأحكي لها عن عذاباته في غيبته هذه . . وعن عذاباتي . وعيناها تفيضان بالدموع ، وأنا أستفيض وأبالغ . . والريح تعبث بشعرها بهمجية ، وأنا أعبث بمشاعرها بوحشية فاجأتني . وهي أطيب من الجاتو . ونحن نلعب قلت بخبث انهم أخذوا والدي ولم يأخذوا والدها . فشعرت بالذنب ، وأخذت يدي بين يديها وأراحتها على خدها . وكان خدها ناعماً ، وأحببت أن أقبله ، ولم أفعل .

وكان شعرها ينهمر على كتفي ، وكلماتها تنهمر على أذني . ورحنا إلى حديقة بيتهم ولعبنا . وأسررت لها بأن أبو التوت يرى أنني المبارك . وأن شامتي الخضراء علامة . فضحكت .

واستخدم هذا السلاح الفتاك مع فزاع بلا جدوى . قال انه سمع أني ألعب مع البنات . قالها على مسمع من بقية الطلاب . فضج وضجوا بالضحك .

والشمس تدخل إلى عيني فأكشر . وأقول ان أبي في السجن . فيقول ساخراً :

ــ أبوك لص يعني ؟. مجرم ؟ خائن ؟ ماذا ؟ ها ؟ ها ؟

ويطلق ضحكة جهنمية ، ولا أضحك . ويقول :

ــ عشان هيك بتيجي أمك على المدرسة لتدفع القسط بدل ما يجي أبوك .

ويضحك . وأرتعش بلا برد . ويقول انني مثل البنات . يعيرني ببنطالي القصير وبلعبي مع بلقيس . ويتساءل ساخراً عن عشيرتي التي تربط بين أفرادها الأحلام الكبيرة لا الدماء يقول بنبرة تنم عن تهريج :

ــ ما في رجال في هالعشيرة حتى يجوا يقابلوا المدير بدال ما تيجي أمك ؟

ويتضاحك . ويهتز جسده . والأولاد لا يتضاحكون . يتفرجون بصمت كأنهم يترقبون معجزة . ويقول فزاع ان أمي صغيرة وجميلة .

بغتة أنحني بسرعة خاطفة أتناول حجراً وأضربه على رأسه . وسرعان ما ينقسم الأولاد بين نصير لي ونصير له . وتدور حرب طاحنة بالمساطر ، وأستخدم أنا غطاء سلة القمامة كترس واقٍ . ويلحق بي فزاع الضخم . وأدور حول شجرة السرو وأكاد أيأس ، فينبثق علاء الدين ، ابن خالتي ، ويدفع فزاع في صدره . فإذا به يفقد توازنه ويسقط . والمعارك طاحنة مستمرة . . وينبثق المدير كأن الأرض انشقت عنه بغتة . يقبض على ذراعي . يرى دماً ينزف من أنفي . يهزني ويصرخ :

ــ من فعل هذا ؟

أسكت . فيهزني . وأسكت . وينظر إليَّ فزاع نظرة لا تخلو من امتنان .

وفي البيت أرفض العودة إلى المدرسة . وتعرف أمي بالقصة من علاء الدين . فتتصل بشعلان الهزاع . تقول شعلان من عشيرة أبي التي تربط الأحلام الكبيرة بين أفرادها . وشعلان عم فزاع . فلا أفهم كيف يكون شعلان من عشيرة أبي ومن عشيرة فزاع في آن . وتهددني بأني إن لم أذهب إلى المدرسة طواعية ، جرتني إليها . وخفت أن يراها فزاع معي . فرحت على مضض .

وأقبل شعلان إلى المدرسة . شاب أسمر طُوَالٌ . يعبث بشاربه بلا توقف . أخذ أذن فزاع بين أصابعه وجره ، فتلوى فزاع وصرخ . وسألني شعلان قال :

ــ هذا اللي بيظل يقاهر بيك ؟

نترت رأسي سلباً . قال شعلان وهو يشد بأصابعه على أذن فزاع : انني رجل . فاشرأب عنقي زهواً . وحكى لفزاع عن أبي . قال :

ــ كلنا تلاميذه . وهذا أخوك .

ثم دفعه بقوة . وأخذني من يدي إلى ركن خال وقال انه سمع أني أدرس موسيقى . قال :

ــ سمعت أنك بتعزف على البيانو .

هززت رأسي بالإيجاب . قال :

ــ عيب يا حسنين . . عيب . أبوك حبيب الفقراء وها اللعبة لعبة الأرستقراطية .

شو بدهم يقولوا الناس لما يعرفوا انو ابن حبيب الفقراء بيلعب بيانو ؟ ثم وهو يغادر المدرسة :

ــ وهذا إذا رجع يقاهر بيك . قل لي . أذبحه .

وراح .

* * *

أنا قلت لأمي لا أريد أن ألعب بيانو عند مسز خوري . قالت مباغتة :

ــ حدا حكالك شي عن دروس البيانو ؟

ــ لأ . بس ما بدي أدرس . خلص . ما بحب البيانو .

لكن أمي أصرت . قالت ان أذني موسيقية . (هذه الأذن التي تشدها أحياناً) .

* * *

وأبي لا يعود . وآدم لا يعود . جدي ينتظره . يقول انه سيعود . وفي كل مرة يحكي لي حكايته يضيف قليلاً أو كثيراً . والحكاية تكبر أو تتقلص . وأسأله إن كانت قبيلتنا المنقرضة قد توارت مع آدم في متاهة الصحراء المجهولة . وأسأله إن كان قمقم أبي الصحراوي قريباً من صحراء آدم . لكنه يغير الموضوع . ويحكي عن قصص الأنبياء وكرامات الأولياء .

وجدتي تنتظر المبارك الموعود .

وكنا نلعب بالثلج أنا وأبو التوت وبلقيس . وعلاء الدين يقف بعيداً . يداه على خاصرته . يقف مكشراً مبوزاً . قال انه لا يلعب مع البنات . بلقيس بنت . قال . وكانت قبضة « أبو التوت » السوداء تكور كرة ثلجية وترفعها ، وكانت الكرة بيضاء ، ويد « أبو التوت » سوداء . ورجم علاء الدين . . فتفاداها هذا . وتناول أبو التوت من جيب سترته كازوزة السم الهاري . واحتسى . . فاتقدت عيناه بلهيب مخيف . قال انه ولد في حياة من حيواته في قرية لبنانية أيام فخر الدين المعني . قال ان والده أخذه لزيارة إحدى قريباته في قرية مجاورة . امرأة أرملة . وما أن دخلا بيتها حتى صاح أبو التوت (كان اسمه عز الدين) .

وسألته بلقيس لماذا صاح . وأنا لم أسأله . لأني سمعت هذه الحكاية من قبل . وقال انه صاح لأنه تذكر أن هذا البيت بيته في حياته السابقة . وأن هذه المرأة زوجته . لم تصدقه الأرملة . فقال ويده لا تزال في يد أبيه :

ـ سيفي موجود في المكان الفلاني . . في غرفة النوم .

ودخلوا غرفة النوم . وكان السيف في مكانه .

ويمسح أبو التوت على شاربه الكث . وبلقيس تسأله عن بقية الحكاية . فيقول وهو يشرد بعينيه إلى البعيد :

ـ ولا شيء . خرجنا بعد أن احتسينا « متي » وعدنا إلى قريتنا .

وتنظر إليه بلقيس بذهول . فيقول انه قد يتذكر الماضي ، لكنه لا يستطيع أن يعود إليه ، أن يبعثه بكل تفاصيله . . لقد أصبح شخصاً آخر ، ولا يجوز له أن يعود إلى ما كانه . لا جسور بين الأزمنة سوى الذاكرة .

قال :
ـ فلسطين لو عادت . . لن تعود كما كانت . لو عاد إليها أبناؤها . . لما عادوا إلى نفس الذي غادروه .
ولم نفهم .
صمت أبو التوت لاهثاً . واحتسى . واتقدت عيناه . وعادت بلقيس تلعب بالثلج ، والهواء عاد يلعب بشعرها وبفستانها . وكانت رائحة « أبو التوت » قوية . فملت بأنفي نحو بلقيس ، وملأت رئتي برائحتها . وأغمضت عيني .

قالت جدتي :
ـ في عينيك إشارة وعلامة يا حسنين .
مسز خوري ضمتني إلى صدرها . قالت :
ـ الألم يصنع الموهبة . آه كم تتألم يا صغيري .
تنشقت منها رائحة دخان سجائر . ولم تكن لها رائحة بحر غزة مثل أمي . منذ أن غاب أبي توقفت عن شد أذني الموسيقية حين أغلط في العزف .

وإلى بيت جدي القديم هذا ، المسكون بالأشباح والأصداء جاء أستاذ الجغرافية في زيارة مفاجئة . قال لأمي انني دائم الشرود في الصف . وقال ان علاماتي في الرياضيات غير مرضية . ونصحها بأن تجد لي مساعدة خارجية . أي دروس خصوصية .

وقالت جدتي ان أستاذ الجغرافية من عشيرة أبي التي تربط الأحلام بين أفرادها . وكان يخصني فعلاً بمعاملة متميزة .

أخذتني أمي من يدي ورحنا إلى بيت أستاذ الرياضيات . قالت أمي ان أستاذ الرياضيات ـ وهو لا يدرس في مدرستنا ـ من عصبة أبي وعشيرته . قالت ذلك حتى أحبه ، فأحب الرياضيات . والقيظ يصهر بدني ولوح الشوكولاته . قالت انني أحب عصبة أبي ، وأستاذ الرياضيات منها .

قلت انني أحب أن أصبح ضابطاً حين أكبر . لأن الضباط أقوياء . كشرت أمي وجرتني من يدي بصمت . وكشرت أنا من شعشعة الشمس التي اقتحمت عيني . وكانت أمي برمة . وأكلت الشوكولاته قبل أن تذوب .

ولكن ما اسم أستاذ الرياضيات هذا ؟ وكيف يختلف اسم عائلته عن اسم عائلتنا . . ويكون من عشيرة أبي ؟ لماذا هذا العالم عصي على الفهم ؟ وقرعت أمي باب بيت أستاذ الرياضيات ، ويدي في يدها . ويدها لي وحدي . وأبي مهزوم في قمقمه ، وأنا أحب أن يعود ، وأحب بلقيس ، ولا أحب دروس البيانو لأن شعلان قال عيب . وإذا عاد أبي فستأخذ يده يد أمي . ستحتل مكان يدي .

وأطل أستاذ الرياضيات . وكان ناحلاً معروق الوجه ، ورحب بنا بفنور أثار ريبتي . وما كان يشبه أبي . وقبل أن يقدم لأمي القهوة ، أكد لها أنه لن يقبل بأقل من ثلاثة دنانير للساعة الواحدة . وتضخمت

جـرثـومـة الشـك في نفسي . محـال أن يكـون هـذا الأستـاذ ذو الشـــارب الهتلري من عصبيتنـا . ولم يسأل عن أحـوال والـدي . لاحـظت ذلـك . وراح يفـاصل أمي ، وأمي تفـاصله . وهبط من ثـلاثـة دنـانـير إلى دينـار واحـــد . وهـبط مـن عـيـني . غــير أني لم أنـبس . تمـلمـلـت في مجلسي وتقلقت .

وغادرنا منـزل الأستاذ . وانفجـرت في وجه أمي الحـزين الجميل . وقلت من بين دموعي ان أستـاذ الريـاضيات خـائن ، واني سأحكم عليـه بالاعدام بعد أن أكبر وأصبح ضابطاً .

تسمـرت أمي في مكـانها لا تـزول ولا تميـل . وكـــانت أطـول من شجرة السرو النـاهضة عـلى الجبل المقـابل . وتفـوح منها رائحـة البحر . صرخت مستنكرة :

ــ من وين تعلمت هذه الكلمة البشعة « الإعدام » ؟

وهـددتني بأنها ستغســل لساني بـالصابـون . قلت انها تغسل لسـاني بـالصابـون عادة حـين أكـذب . لكنني لم أقـل ان الأستـاذ من العصبـة . أنت التي قلت . قالت :

ــ كذبة بيضاء .

تساءلت عن الفارق بـين الكذبـة البيضاء والكـذبة السـوداء . لا ، بـل تسـاءلت أولاً إن كـان ثمـة كـذبـة سـوداء . ثم تسـاءلت عن لـــون الحقيقـة . وعدنـا إلى بيت جـدي القـديم المسكـون بـأشبـاح آدم والقبيلة المنقـرضة ، والمهـدي المنتـظر ، وقصص الأنبيـاء ، وكـرامـات الأوليـاء ، وحيوات أبو التـوت . وقالت أمي انها ستـراقب منذ اليـوم الحكايـات التي أسمعها في هذا البيت . وقالت باستنكار :

ــ إعدام . قال . إعدام . من وين جبت هالكلمة ؟

وقالت ان معظم ما أسمعه في هذا البيت خرافات وأوهام . . وأكدت أن أبي سيغضب حين يعود ليجد أن رأسي آهل بالخرافات والفستق الفاضي . أبوك علماني قالت : يريدك أن تعتمد العقل والعلم . . يريدك أن تنجح في الرياضيات . وأكدت لي أن أمله سيخيب حين يعود فيجدني أبربر طوال الوقت عن العشيرة والعصبية والقبيلة المنقرضة وآدم وذيـاب الذي انفصم إلى ألف ذيب وذيب وحيوات أبو التوت والمبارك الموعود . . . كل هذا وعلاماتي في الرياضيات والعلوم ضعيفة .

وأكدت أن أبي لم يهزم . لأن عقله وإرادته لم يهزما . وأنا لم أفهم . لو كان ماجستي الجبار لرفع صخرة ورماهم بها . . لما أخذوه .

وقال أبو التوت ان أبي وردة التكنولوجيا . وساعة رملية يجر عقاربها محرك بخاري . ولم أفهم .

لماذا هذا العالم عصي على الفهم ؟

* * *

وفي الليل بدأت أرى الرؤى ، وأسمع النداءات . نداءات تحملها ريح صحراوية إلى المدينة ، إلى بيت جدي القديم . إلى غرفة نومي حيث العتمة والخوف والوحشة . وآدم يعول . ويطارد على جواده الأبيض . يغزو أحلامي ، وينهب سكينتي . ويهتف :

ـ إنهض أيها المبارك ، ولب نداء القدر المفجع .

أسمع حوافر جواده وهي تدك الأرض دكاً ، وأرتعش وترتعش الأرض وننزف عرقاً . عرق سرابي ضبابي تختلط فيه أصوات آدم بأصوات « أبو التوت » وجدي وجدتي وأبي وفزاع وأمي . وتختلط الوجوه . فهذا يلبس وجه ذاك قناعاً ، وهذه تلبس جسد تلك قميصاً .

وأستاذ الرياضيات يصرخ في وجهي :

ـ ما دام رأسك مزروعاً بكل هذه الأوهام والخرافات فلن تفلح في الرياضيات .

ويرمقني أبي بنظرة ملتهبة عاتبة يكاد أوارها أن يحرق وجهي . يقول :

ـ هذا عصر العلم والنهضة والتنوير . . وأنت تعيش مع جدك في الماضي . . مع « أبو التوت » وحيواته الأسطورية . ليتك مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً .

ويمزق بعصبية شهادة المدرسة التي تشير إلى سقوطي في العلوم والرياضيات .

وأستيقظ مذعوراً مروعاً . وأمضي في الصباح إلى جدي ليُؤوِّل هذه الرؤى .

* * *

الجزء الثاني :

الشبح

« الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا »

حديث شريف

ـ ٢ ـ

مشكلتي يا دكتور أنني مسكون بشبح شخص ، بل كائن عجيب ، اسمه حسن الثاني . هذا جزء واحد من المسألة يا دكتور . فمشكلتي معقدة مركبة ، وحكايتي غريبة عجيبة لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر . إذن للمعضلة وجوه عديدة يا دكتور . فأنا مثلاً عاجز عن فهم ما يجري من حولي ، وعاجز عن التكيف والتأقلم مثل ديناصور على وشك الانقراض . وعاجز عن التواصل وانتزاع الاعتراف . كل ما يحيط بي طلاسم يا دكتور . طلاسم ونقوش نبطية ـ لماذا نبطية بالتحديد ؟ ـ ، حاصله ، كأني صاحب الكهف الذي ظن أنه نام يوماً أو بعض يوم . علماً بأني رجل عقلاني ، رجل ذو رؤيا ، حتى انني كنت بصدد تأليف كتاب عن عقلنة العالم والحياة ، وبكلمة أخرى وضع الحياة في نسق فلسفي واحد . وكنت

أرغب في دراستي أن أرد على من يقولون ان عقلنة العالم والحياة تعني قتلها . فلا حل لمشاكل العالم الثالث يا دكتور إلا بالعلمانية .

نعم يا دكتور ؟ تسألني أن أبدأ من البداية يا دكتور ؟ طبعاً سأبدأ من البداية يا دكتور . سأعترف لك بكل شيء ، لعلك تفهم فتفهمني يا دكتور .

حكايتي الغريبة التي لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر بدأت كالتالي :

استيقظت يا حكيم ذات يوم ، فإذا بي أحس أن طاقة خفية هي التي أيقظتني . وكالعادة ، ومثل كل يوم ، لم أنشط فور يقظتي ولم أثر من الفراش ، وإنما بقيت في مكاني أنتظر فنجان قهوتي . لكن انتظاري طال . وزوجتي لم تطل وبيدها فنجان القهوة .

كما قلت لك ، انتبهت من النوم وأنا لا أكاد أمسك نفسي من الجوع ، أو أجمع أعضائي من التعب ، ظاناً أن الزمن لم يمض بي ، وأن عقربي الساعة واقفان عند باب غرفتي . وحين رنوت إلى عقربي الساعة الجدارية لاحظت أنهما مسحوقان سحقاً . قلت هذا ما يفسر عجزهما عن قرصي بالرنين . فالساعة معطبة . ثم مددت بصري وصعدته نحو النافذة . قلت لنفسي :

ـ أنا رقدت عند الفجر ، وهذه الشمس لم تمل عن الهاجرة ، فما أظن إلا أنني قد لبثت يوماً أو بعضاً من يوم .

لكن الصمت المريب الثقيل الموحش الذي استقبلته أذني حين استيقظت ، أوقد شرارة شك في نفسي . ولما طال وطال معه انتظاري اضطرمت الشرارة فأضرمت لهب الريبة في أقطار نفسي كلها .

وانتبهت بغتة الى عري الغرفة . فباستثناء سريري كانت الغرفة

خاوية . الجدران عارية كفضيحة . وملاءة السرير البيضاء متسخة كالحة ذات رائحة غريبة . رائحة تذكر بالموت والجثث ونوم بعيد . واكتشفت لهولي أنني عار تماماً تحت الغطاء . بلا ملابس داخلية ولا منامة . ولم أدرِ ، في تلك اللحظة ، أنني عارٍ من العصبة والمرأة والعشيرة . . أيضاً .

حافٍ ولظى الشمس يلحس قدمي بلسانه السليط البذيء اللاسع . انزلقت من السرير متنفضاً كالملسوع . وطفت بالبيت المهجور مروعاً مأخوذاً ، يقظاناً كالنائم ، حاضراً كالغائب . فإذا البيت غافٍ في جب صمت صارخ . وإذا هو خاوٍ إلا من زحف الوحشة وخشخشتها : لا أثاث فيه ولا أثر حياة . دلفت إلى الصالة ، تأملت هذا الخواء البشع الفاضح ، والصراصير تزحف على الأرض ، وتأملت السحالي جامدة على الجدران .

فجأة ومضت في بالي صورة غريبة ، كأنها رجع كابوس رأيته في منامي ، أو كأنها صدى رؤية هالتني وفظعت بها :

قوم يحملون نعشاً على الرؤوس ، أنا في النعش . أفتح فمي لأصرخ فيمسك لساني في فمي ويتأبى . أحاول أن أرفع يدي لأدق سطح الصندوق ، لكن ذراعي تستعصي على الحركة . أفتح عيني فلا أرى سوى ظلام . لسبب ما خيل إلي أن هذا الظلام هو ظلام الرحم .

وحين أهالوا التراب علي . شعرت أني أرى ظلام جب أو قمقم . وسمعت ولولة زوجتي ، ثم سمعت رجلين يتنبآن بما سيجري لي بعد الدفن . ثم سمعت خطاباً يلقيه شعلان ، ويتحدث فيه عن مناقبي النضالية . ورأيتني أنشب أظافري في لحم التراب وأحفر وأنبش وأمزق . والتراب يتساقط في عيني وفمي . والدم ينفر من يدي وينتشر على قميصي .

ثم اختفت هـذه الصـورة الغـامضـة . صـورة كـان النـاس فيهـا أشباحاً ، والنهار ظلالاً .

بتثاقل لا عهـد لي به دلفت إلى الغـرفة الكبيـرة فإذا بقـطع الأثاث مكـومة في ركنهـا . مجللة بملاءات بيض تـراكم الغبار عـلى وجـوههـا حتى أظلمت وتغضنت . وبينما كنت أتأملها وأنا أنكر معقولية ما تبصـره عيناي وواقعيته ، سمعت صدى أصـوات . أصوات تتكلم فصيحـة مقعرة ، ثم فصيحـة لا أكاد أفهمهـا ، ثم تـداخلت معهـا أصـوات بلغـات أخـرى . كأنها لغات سامية قديمة مندثرة غبراء . الأصوات بدأت خافتـة ثم راحت تعلو كـإيقاع زوبعـة في بدايتهـا . ثم أخذت تستـوفـز وتنهض . ثم هبت عصفـاً بلغ ذروة كادت تشق طبلتي أذني . بغتـة خفت كـل شيء وخبـا ، ثم همـد . لم تكن الأصوات مجـرد كلمات ومفـردات . كان ثمـة أصوات أخرى ترافق الكلمات والعبارات فتمتـزج معها . أصـوات وقع حـوافر ، وخشخشة أوراق توت ، وشـوشة أمـواج في محارات ، طقـطقة وحشـرجة قواقع وزواحف انقرضت من زمن غابر .

سعيت إلى غـرفة أخـرى أنتزع خـطواتي من الأرض انتزاعـاً فرأيت دولاب مـلابسي مجللاً بخيـوط عنكبـوت . الخشب تقشر من الإهمـال ، والباب مخلع . ملابسي انتثر عليها غبار ، وأكل العث جزءاً منها .

أنكـرت ما تستقبله حـواسي من يقظة مـروعـة . وحسبت أن البيت مل محتوياته ، فجن جنونه وخلع ثيابه الداخلية ، ولفظ الأحيـاء فيه ، ثم وأد نفسه .

لم أفهم سوى أنني انتقلت من غفوة بيضاء إلى يقظة سوداء .

دخلت في مـلابسي . كـان لهـا رائحـة القِـدم . وخـرجت إلى الحـديقـة . كـأنما أبحث عن النؤى والأحجـار ومـوقـد النـار ، ومجـال الخيـول ، ومجر الـذيول . فـإذا بي لا أعثر عـلى حـديقـة وإنمـا رأيت آثـاراً

وأطلالاً ، ثم ممراً ضيقاً على يمينه عمارة ضخمة عالية في الفضاء ، عريضة في الأفق . والتفت إلى الجهة الأخرى فما راعني إلا تغير الشارع وانقلابه ، كنت أعهده شارعاً سكنياً هادئاً . فإذا بي في شارع تجاري حلت فيه معارض وعمارات تجارية ذات مكاتب وشقق وواجهات تجارية محل البيوت السكنية . اقشعر بدني ، واصطكت ركبتاي وكاد الدم يتجمد في عروقي . كنت كمن يرى كابوساً مروعاً ولا يجد من يؤوّله أو يفسره . بغتة حانت مني التفاتة فإذا بي أرى اسكندر البقال . كان يقف أمام كافيترية كأنما يستحم بملابسه بشعشعة الشمس .

بلهفة غريق رأى سفينة تتجه نحوه سعيت إليه .

حين وقع بصره علي ارتج عليه ولم يهتد إلى كلمة يقولها . فتح فمه ليقول ، لكنه لم يقل . أخذت شفتاه ترتجفان ، وعيناه تجحظان . . كأنما وقع بصره على جثة تمشي .

بغتة أطلق ساقيه للريح واختفى .

رفعت رأسي يائساً وقد تضاعف خوفي وفضولي ، فإذا بي أرى « أم سليمان » تطل من شرفة إحدى الشقق الجديدة . داعبت قلبي نسمة أمل . هرعت إلى العمارة أرتقي الدرجات وثباً ، ودمي يغلي في عروقي غليان الماء في مرجله .

قرعت جرساً كتب عليه : شقة السيدة أم سليمان حرم المرحوم سلمان بيك .

انفتح الباب وأطل رأس أم سليمان . كان قلبي يخفق بقوة وأنا أسائل نفسي : هل ستتصرف وكأنها ترى شبحاً يا ترى ؟ لكن أم سليمان لم تضطرب حين رأتني ، وإنما استقبلتني باسمة منطلقة وقالت بصوت دافىء لا يخلو من دهش :

ــ أهلاً بالحبيب أهلاً .

أحست نفسي بذلك السكون العميق الذي يشعر به الهائج المصروع بعد استفاقته من صرعه .

تداعيت على كنبة في الصالة . ثم التفت إليها وهممت أن أتكلم فلم أعرف ماذا أقول . كنت أدير عيني من حولي كأنما أريد أن ألتمس شيئاً . كدت أسألها متى رحلت إلى هذه العمارة حين قالت بذات النبرة التي لا تخلو من دهش :

ــ فاجأتني أيها العزيز الهائم . لم أستدعك اليوم . لم أعد جلسة تحضير أرواح ، ولكن أهلاً على كل حال . ما أخبار المرحوم ؟ لماذا لم يأت طيفه معك ؟

ذهل رأسي بدوار مفاجىء ، والتاث علي أمري . وساءلت نفسي متى أفيق من حالي هذه التي لا هي نوم ولا يقظة .

كانت أم سليمان تحدق إلي بعينين واسعتين هائلتين . لا تصرف نظرها عني إلا لترده إلي .

فكرت بالهرب . الهرب ؟ أين . . وأنا سؤال لا جواب عليه .

وعاودت تسألني بلهفة :

ــ لم تقل لي لماذا لم يأت المرحوم معك ؟

جمدت في مكاني ذاهلاً لا أقول ولا أرفع رأسي . ثم انتفضت واقفاً كأنما لا هرب من هذه المرأة الغريبة ، لكنني شعرت بثقل في الرأس ، ودوار كأنه الحمى ، تدور وتدور حارة متقدة في صدغي وعيني وجبهتي . وإذا بي أفقد توازني وتزوغ عيناي .

تداعيت مرة أخرى . ثم تماسكت وقلت بصوت أشبه بالحشرجة :

ـ أين زوجتي ؟

حملقت أم سليمان بي وهي ترمقني بنظرة مستريبة :

ـ لماذا تلوح في عينيك نظرة شاردة كأنك غائب عما حولك : كان طيفك يأتي نشيطاً قوياً ؟

أخذ غيظي يفور حتى جهدت أن أكتمه . قلت من بين أسناني :

ـ طيفي ؟

أطلقت ضحكة أشبه بضحكات « معلمة » في فيلم مصري . قالت :

ـ دائماً تحاول أن تعبث بي . حسن . ما أخبار والدتك ووالدك الله يرحمها ؟

تواثبت أحشائي وكدت أتقيأ . صرخت :

ـ متى توفيت والدتي ؟

بدا ارتباك هين قلق في عيني أم سليمان . فأرسلت ضحكة أخرى لم تكن سوى صدى لضحكتها الأولى المجلجلة . وقالت بصوت تنقصه الثقة :

ـ عدت لتداعبني . مزاجك صافٍ اليوم .

صحت بها بصوت كالخوار :

ـ مزاجي زفت اليوم . ما الذي يجري ؟ هل أنا غافل عن سر لا يبلغ كنهه ، ولا يُنال غيبه ، ولا يقرع بابه ؟

غاضت الابتسامة عن فمها . ضربت كفاً بكف وقالت وقد استحوذ عليها شيء من الاضطراب :

ـ لم أستحضرك اليوم . إن كنت مضطرباً فعد إلى سمائك السابعة . سأستحضرك غداً . وسأبلغ زوجتك وأدعوها للحضور . يبدو أيها الروح القلق أنك مشتاق لزوجتك . غداً سأعد جلسة تحضير أرواح . سأستدعيك وأستدعي طيف المرحوم سلمان بك . استرح الآن .

أسمع ما أسمع ، وأرى ما أرى ، فيشدهني ما أسمع ، ويذهلني ما أرى وأوقن أن عقلي قد ذهب . . . وبقيت .

كالمجنون غادرت الشقة عارياً من الجواب . وطرت على وجهي في الطرقات محدودب الظهر كأنما أوغلت في الكبر .

وعدت عندما تداعى الليل كحائط خرب إلى البيت المهجور .

وكان الإعياء قد أخذ مني كل مأخذ . خلعت ملابسي وأخذت حماماً بارداً . تأملت نفسي في المرآة المهشمة . راعني أن هذا الرجل المنهوك لا قبل له بمصارعة الزمن . كنت مروعاً أيما روع . نظرت إلى عيني وقد غار تجويفهما وخبت وقدتهما .

كانت البغتة ظاهرة في وجهي ، وإحساسي بالعجز يعلو كصرخة ، ومعنوياتي تتساقط كسكير في هاوية . حاولت أن أنام بلا جدوى . الإعياء في جسدي ، والاضطراب في عقلي . فكرت في الانتحار . قلبت الخاطر على وجوهه . تناولت شفرة حلاقة قديمة وتأملت رسغي . ثم تأملت زجاجة الدواء التي تفتح فيها عفن أشبه بنبات عجائبي . فتحت الزجاجة بيد مرتعشة . سكبت الأقراص في راحتي ، أقراصاً استولى عليها عفن قادر على قتل جيش من الانتحاريين .

بغتة هبت زويعة غبار . دخلت من نافذة الحمام وملأته بحضورها المغبر حتى كادت الرؤية أن تصبح مستحيلة . أرسلت سعالاً حاداً ، ورحت أفتش عن الباب وأتنفس بصعوبة .

بغتـة أحسست بـوجـود حضـور غـريب . حضـور طـاغ لا يمكن تجاهله . . كان يفتـح الباب ويتـأملني بعينين متقـدتين خـرافيتين من وراء ضبـابية الغبـار . اندفعت إلى الصـالة فتبعني والـزوبعة في أثـرنا تـولول . أشعلت النور فأبي . لا كهرباء . تناولت سترتي ، استخـرجت عود ثقـاب وأشعلته فإذا بي أمـام طيف غريب . دنـا الطيف مني خفيف الخـطو كأنمـا يمشي في الهواء .

قال :

ــ أنـا حسن الثـاني . كنت ذاهبــاً في غيبتي الكبـرى . . ممعنــاً في الغياب ، وها أنا أتجلى حاملاً العـلامة والإشـارة . . . لا تصعق . اعتبرني أشبه بشهرزاد . سـأحكي لك كـل ليلة حكايـة عن حياتي لأحـول دونك وقتـل نفسك . . أريـدك أن تؤجل انتحـارك حتى تنتهى حكايـاتي كلها . إسترح الآن ، سأحضر لك كوباً من الماء .

ثم اختفى .

* * *

الليلة الأولى :

حكاية حسن الثاني والكهف

إضطجعت على سريري ، وقد أخذ الإعياء مني كل مأخذ . إعياء الراحة . ورحت أدخن سيجارة تلو سيجارة في الغرفة المظلمة . إمتلأت الغرفة بسحب الدخان البيضاء الكابية . . وامتلأ رأسي بخواطر سود مظلمة .

عند ذاك . . انبثق حسن الثاني ، مثل كائن أسطوري ، وراء سحب الدخان . جلس على طرف السرير ، وناولني كوب ماء بارد . كانت عيناه تتقدان بومض وحشي بدائي . وكان مفعماً برائحة جحور وأوكار ودهاليز تحتية سحيقة نائية رطبة . قال بصوت بدا وكأنه ينطلق من أعماقي السحيقة :

ــ ليس كل من رقدَ حلم بما يريد . لقد عشت ـ يا عزيزي ـ حيوات كثيرة ، أذكر منها ومضات وصوراً . وسأحكي لك حكايتي مع « ذياب » من بدايتها حتى منتهاها .

ثم بدأ يحكي لي حكاية إحدى حيواته ، وأنا أستمع بشوق (كان يحكي مثل شهرزاد ، وأنا أستمع مثل شهريار) . قال :

ــ إعلم يا عزيزي أن حكايتي مع ذياب في حياتي الأولى . .

حكاية غريبة ، لو كتبت بالابر على آماق البصر ، لكانت عبرة لمن اعتبر : قبل الزراعة والكتابة وتقسيم العمل . . . كنت أركض وأركض وأركض ولا أقف لأسترد أنفاسي أو أجفف عرقي ، والببغاء فوق رأسي تلهث وتلهث وتلهث . وذيـاب ـ أو ذيب الأول ـ يركض في أثري وفصيلة من القردة الضخمة تركض في ظله وتتبعه . يصيح متوعداً فتصيح . يقف ليبول . . تقف لتبول . يركض مرة أخرى يطاردني . . تركض خلفه تطاردني يضرب على صدره بقبضتيه . . فتضرب . وعندما أيقنت أن لا سبيل إلى النجاة والهرب في تلك الفلاة المحرقة ، وحين خانتني رئتاي وأعضائي . ولما بدأت استسلم لليأس وأنا مضرج بالعرق . . وبلا نفس هواء . . حانت مني التفاتة فلمحت كهفاً لا يشبه الكهوف . . دلفت إليه متحاملاً . وتساقطت على أرضه إعياءً وتعباً . وتدحرج الببغاء الى جانبي وهو يصيح :

ـ القردة من ورائنا . . والقردة من أمامنا . . فأين المفر ؟

قلت بصوت متهافت : .

ـ نعم . أين المفر ؟

قال مستنكراً :

ـ لماذا ترد على سؤالي بسؤال ؟ أنت ورطتنا فأجب .

قلت وأنا أمسح عرقي عن جبيني بظاهر يدي :

ـ أنت أحمق .

قال :

ـ لست أحمق . أنا ببغاء وحسب .

ولم نلبث حتى أخذتنا عيوننا فنمنا .

* * *

استيقظت ، فركت عيني ، فإذا بي أكاد لا أمسك نفسي من الجوع ، أو أجمع أعضائي من التعب . وقد ظننت أن الزمن لم يمض

بي ، وأن قافلة التاريخ واقفة عند باب كهفي .

لفتت انتباهي خيوط عنكبوت لم تكن حين أخذ النوم عيني . نسيج لزج يجلل جدران الكهف كلها ، يصطاد شعشعة الشمس ، ويوقع في فخه زوابع الغبار ، وملايين الحشرات والأحلام والكوابيس وأصداء لغات غابرة ، مندثرة ، بائدة ، حية .

أثار مشهد نسيج العنكبوت رؤوس الحيرة في نفسي فاشرأبت وتطاولت من مكامنها . وغزتني قبائل الدهشة فنهبت يقيني بالزمان ، حين مسحت بيدي على شعري فإذا به طويل كالأبد .

لكزت الببغاء العجوز النائم فانتفض ببلادة وصاح من فوره :

ـ قد أينعت رؤوسنا . . فلنحمها من القطف .

مددت ذراعي وتمطيت . قلت وأنا أنهض بتثاقل :

ـ يخيل إلي أن ساعات طويلة رقدناها ، فما تظن يا رفيقي ؟

ضج صمت الببغاء حيرة شائخة في العينين الحزينتين .

قلت وأنا أسعى نحو المدخل بخطوات بطيئة وئيدة :

ـ ربما نكون قد لبثنا يوماً أو بعض يوم . فإن هذا الجوع الذي أحسه ، والتعب الذي أشعر به ليؤذن بما أظن . فنحن رقدنا في الصباح . وهذه الشمس لم تدن للغروب ، فما أظن إلا أننا قد لبثنا بعضاً من يوم . . وهربنا برأسينا من القردة المتوحشة وصاحبها ذياب .

أطل برأسي . فإذا بسنا وامض يأخذ ببصري . وإذا بمدى الواحات قد بات يبابا . مددت بصري ثم صعدته نحو مدينتي ، فإذا خرائبها أضحت قصوراً ، وقصورها أمست خرائب وأطلالا .

في تلك اللحظة مر بالكهف بائع جوال يرتدي ثياباً لم آلفها ،

ويدفع عربة عجيبة لم يقع بصري على مثلها من قبل :

ناديته :

ــ أبحث عن طعام أشتريه .

قال البيغاء :

ــ سبحان الذي يغير ولا يتغير . . أنظر ثيابه .

قلت :

ــ سبحان الذي يغير ولا يتغير . . أنظر عربته .

تقَدَم البائع الجوال منا . قال والدهشة تطل من محياه :

ــ أغريب أنت عن هذا البلد ؟ لهجتك غريبة ، ثيابك عجيبة ، كأنك خارج لتوك من زمن غابر .

دسست يدي في جيبي ، واستخرجت نقودي . قلت :

ــ بل ابن البلدة الأصيل ، غير أنني أوغلت في الغياب .

قال البائع وهو يمد يده ليتناول النقود :

ــ كل شيء تغير في هذه المدينة ، سبحان المغير الذي لا يتغير .

ما إن تناول البائع النقود حتى خيل إليه أن لظى الشمس الصحراوية قد ذهب بعقله واستاقه استياق الصعاليك لإبل منهوبة ، وما راعه إلا أن رأى نقوداً ضربت من نحو أكثر من ثلاثمائة عام ، فحسب أنه عثر على كنز .

في تلك اللحظة علا غبار حتى بلغ عنان السماء ، وانعقد حتى حجب الضياء وتكاثف حتى ملأ الأرض حلكة وظلاماً . ثم انقشع هذا الغبار العملاق ، فإذا به ينكشف عن جيش جرار من فرسان يشحذون على ومض السماء سيوفهم ، وتبسط الزوابع أعنتها بين أيديهم . وما راعني إلا أن رأيت ذباب على رأسهم ، يرفع سيفه فيرفعون

سيوفهم ، ويطلق صيحة النصر ، فتنطلق حناجرهم بصيحات أشبه بالعواء المرعب . ولمحت عيني ذياب اللتين كانتا تقلبان الصحارى والقفار ظهراً لبطن كي تأتي برأسي قبل لجوئي إلى الكهف ونومي .

سألني البائع الجوال وهو يرمقني بنظرة مسترية :

ـ أأنت صاحب السؤال في أزمنة الجواب الواحد ؟ أأنت من أينع رأسه وحان قطافه منذ ثلاثة قرون ؟ أأنت الرجل الذي رأى .. ما ينبغي ألا يُرى ؟

امتلأ قلبي ووجهي حيرة ورعباً حتى أنكرني البائع . مددت بصري إلى المدينة : القصور أمست خرائب وأطلالاً ، والخرائب أضحت قصوراً ، والثياب تغيرت فما عدت أعرفها ، واللهجة تبدلت فما عدت أفهمها .. لكن رأسي اليانع ظل على مر قافلة الزمان مطلوباً .

انحدر الفرسان كالسيل على ظهور الخيل ، والشرر يتطاير من عيونهم، وفي لحظة خاطفة انطلقت والببغاء هاربين إلى جوف الكهف . فتسللنا إلى سراديبه وأنفاقه التحتية المظلمة . وتخطينا عشرات الخيوط العنكبوتية ، ومئات الأحلام والكوابيس التي علقت بها ، وآلاف الروائح والشعشعات المنهوبة ، وملايين الأصداء والخشخشات والهواتف التي سبتها الخيوط من قوافل الزمن ، وتخطفتها من زواحف العصور .

قال الببغاء مقلداً صوت امرأة فجعت بولدها منذ مئات الأعوام :

ـ أما آن لهذا الفارس أن يترجل ؟

سألت والعرق يتصبب من جبيني :

ـ أي فارس ؟

قال الببغاء :

ـ أنت .. الفارس الذي رأى .

التفت إليه قلقاً وسألته :

ـ ماذا رأيت ؟

قال البيغاء مستنكراً :

ـ أنت الذي رأيت . . أنا الذي أقول .

قلت مغضباً :

ـ أنت أحمق .

قال البيغاء باستخفاف :

ـ بل أنا بيغاء . جلجامش هو الذي رأى . . وأنت الذي قلت . . وأنا أينع رأسي وحان قطافه لأنني رددت ما قلته أنت .

قلت دون أن ألتفت :

ـ وماذا قلت أنا ؟

قال البيغاء مستنكراً :

ـ قلت لماذا . . هل نسيت أنك تساءلت أم أنك ترغب في التهرب ؟

قلت :

ـ لماذا . . ماذا ؟

قال البيغاء :

ـ ماذ ؟ . . لماذا ؟

أشحت بوجهي واضطجعت والبيغاء على أرض الكهف ، علّ وجيب قلبينا يهدأ قليلاً . ولكننا ما عتمنا أن أحسسنا إغفاءة خفيفة داعبت جفوننا ، ثم أسلمنا رأسينا إلى الأرض في نوم عميق .

وتعاقب ليل إثر نهار ، ومضى عام وراء عام ، وأنا والبيغاء راقدان ، والنوم مضروب على آذاننا ، والكرى معقود بأجفاننا ، لا تزعجنا زمجرة الرياح ، ولا يوقظنا قصف الرعود ، ولا اندلاع الحروب ، وانفجار الثورات ، وانقراض أقوام ، وبعث أقوام . تطلع الشمس فتنفذ إلى الكهف من كوته ، تجلله بالضوء والحرارة ، ولكن

أشعتها لا تصل إلينا ، وتغرب فتميل وتبتعد ، ونحن في أحلامنا وكوابيسنا سادران .

ومرت قوافل الأحلام والأشباح والأطياف في رأسينا فما تركت أثراً ولا طللاً .

* * *

ودخلت سنة تسع وثلثمائة منذ نومنا الأول ، انتبهنا بعدها ، ونحن لا نكاد نمسك نفسينا من الجوع ، أو نجمع أعضاءنا من التعب وقد ظننا أن الزمن لم يمض بنا ، وأن قافلة التاريخ واقفة عند كهفنا .

قلت للببغاء :

ــ نحن رقدنا في الصباح ، وهذه الشمس تميل عن الهاجرة ، فما أظن إلا أننا قد لبثنا بعضاً من يوم .

وأطل رأسي من فجوة الكهف ، وأنا أتلفت حذراً لبيباً ، ومددت بصري نحو المدينة ثم صعدته ، وما راعني إلا تغير في معالمها ، وانقلاب في مبانيها وطبيعتها ، فالوهاد أمست نجاداً ، والنجاد باتت وهاداً ، وبيوت الشعر اختفت ، فإذا ببنايات عملاقة ترتفع عالية في الفضاء، عريضة في الأفق .

وإذا الخيل قد ابتلعها الليل ، فطاردت مكانها عربات حديدية ذات أبواق وأضواء .

حين أقبل المساء ، يمشي بتثاقل وأناة ، وعلى رأسه غمامة كابية كعمامة متسخة . . تثاءب النهار ، فنبتت في الأرض الظلال .

قال الببغاء :

ــ أما آن لهذا النائم أن ينهض . . وهذا المختفي أن يظهر ، وهذا الفارس أن يترجل ، لكن الجواد الخشبي . . الخشبي . .

الخشبي . .

التفت الببغاء إلي وسألني :

ــ من الذي يحرم القوم نعمة نسياتك ؟

قلت بامتعاض :

ــ هل أنت محاميً ؟

ــ لا . . أنا ببغاء .

ــ لا تتفجع علي . لا بد أنني ضعت في زويعة نسيان القوم ، سأتسلل إلى المدينة ، فطناً أريباً . . ألتمس طعاماً وأرى إذا ما كان طلب رأسي قد ذاب في غياهب النسيان .

قال الببغاء :

ــ لكنا رأينا القبائل التي خرجت تطلب رأسك أمس . . أو أول من أمس . . فكيف ينسون رأسك المطلوب ، بين ليلة وضحاها .

أطرقت طويلاً ثم رفعت رأسي وقلت :

ــ ذاكرة قومنا قصيرة كالعمر .

قال الببغاء :

ــ لكنك طويل كالحياة . . هذه مشكلتك .

قلت :

ــ لماذا لا تعتمر قبعة للتمويه ؟

قال الببغاء :

ــ لماذا لا تعتمر رأساً آخر . فلا يعود رأسك الأصلي مطلوباً .

قلت :

ـ أنت أبله .

قال الببغاء :

ــ بل أنا ببغاء وحسب .

وهممت والببغـاء بمغادرة الكهف ، لنتسلل إلى المـدينة بعـد أن نمنـا الليـل ، فإذا ببـائع جـوال يدفـع عربـة أشبه بقبعـة ساحـر . فيها أرانب وحمـام ومأكـولات وثياب وتلفـزيونـات وراديوات وآلات حـاسبة ومـلاحم شعبية وأساور وساندويتشات همبرغـر وزجاجـات كاتش ـ آب وكـوكاكـولا وعباءات وملاءات وتعاويذ وحجب .

استوقفته وسألته :

ــ أأنت البائع الجوال الذي مر من هنا أول أمس ؟

جحظت عينا البائع الجوال وقال مستنكراً وهو يهز كتفيه :

ــ أنـا أمر من هنـا للمرة الأولى ، جـدي الأكبـر كـان يمـر من هنـا يومياً .

سرت رعشة باردة في جسدي وسألت :

ــ ومتى توفي جدك الأكبر ؟

قال البائع الجوال :

ــ هل ترغب في شراء فيديو مهرب . . بسعر بخس ؟

ردد الببغاء :

ــ متى توفي جدك الأكبر ؟

قال البائع بلهجة لا تخلو من ريب :

ــ منذ قرن .

أدركت لـروعي أنني نمت والببغاء قـرناً من الـزمان ، صفق الببغـاء بجناحيه وقال :

ــ نجونا . . نجونا .

وقفـزت فـرحـاً ، ورحت أرقص مثـل زوبعـة ذهب طقس ملعـون بعقلها . وصحت :

ـ إذن طوى الزمان مطلب رأسي .

بغتة سمعت أبواق سيارات شرطة النجدة ، ورأيت مصابيح حمراء على سطوحها تبرق وتدور حول نفسها وتزعق .

لم يلتفت البائع الجوال إليها وقال :

ـ إنما هي دوريـات عـاديـة تـطوف متـاهـات الـرمـال ومجـاهـل الصحارى وتنقب الكهوف والمغاور بحثاً عن رجل . . .

سكت البائع فجأة ، وحدق إليَّ بعينـين جحظتـا بغتة . كـأنه أدرك لتـوه أنـه أمـام الأحجيـة الكبـرى . قـال : الـوجـوه تغيـرت ، والأقـوام تبدلت ، والمدينة تقزمت وتعملقت . . لكن رأسك لا يزال مطلوباً .

علت أصـوات زمامـير الخطر ، وثـار غبار كثيف حـالك ، اختـرقته أنوار الكشافات الضوئية كومض يشع من عيني بدوي خارق .

حـانت مني التفاتـة فشاهـدت من بعـد وجـه ذيـاب مـظلماً وعينيـه تتقدان وقد أوقد الأمل في القبض علي نار الشماتة فيهما .

حملت الببغـاء وانـدفعت نحـو الكهف . انسللت مـرة أخـرى إلى أعماقه السحيقة . حين اضطجعت على الأرض قلت بتفاؤل :

ـ سنغفـو يومـاً أو شهراً أو سنـة أو قرنـاً ، ثم نصحـو ، فـإذا كـل هذا الكابوس قد تبدد ، وإذا القوم قد كفوا عن طلب رأسي .

وأخذ سلطان النوم عيـوننا فـرحنا في سبـات عميق . ومرت قـوافل السنين ثم القرون .

* * *

واستفقنا . . .

أطل رأسي ثم رأس الببغاء ، فما راعنا إلا أن رأينا أن الصحراء باتت غابة ، والمدينة أمست مدناً فيها ناطحات سحاب . داعب الأمل أفئدتنا . خطوت خطوتين أو ثلاثاً خارج الكهف . . والببغاء على رأسي . فإذا بهدير مرعب يصدر من السماء ، فيثير عواصف عاتية هوجاء ، أخذت تسفعنا بريحها المحرقة ، وتثير من حولنا الرمال كأنه الشرر الملتهب .

قال الببغاء :

ــ ما داموا قد اكتشفوا رأس الرجاء الصالح ، ونحن نيام ، فلماذا لا يتركون رأس هذا الرجل الصالح وحاله ؟

قلت :

ــ هذه الطير تبحث عن رأسي الذي أينع ولم يقطف .

قال الببغاء :

ــ وأنا ما ذنبي . . ضاع عمري ولم أتزوج ولم أنجب . . وأنا . . و . .

قلت :

ــ سبحان المغير الذي لا يتغير . .

هذه المرة لم أُلُذْ بالكهف . كنت قد مللت النوم والموت . . والحياة . . فاندفعت صوب المدينة كي أصرخ في الناس . . أستصرخ أهلي ، وعشيرتي ، عصبتي . كانت البيوت مطفأة ، والحركة منقطعة . روعت أيما روع . تساءلت وأنا أصرخ وأصرخ وأصرخ في ظلام دامس فيه صمت متوتر وفيه حركة خفافيش :

ــ هل نام أهل مدينتي ؟ أم أنهم يعدون كميناً لذياب ورجاله ؟

وهنا سمعت دوي الرصاص .

في تلك اللحظة أشرق الصباح فسكت حسن الثاني عن الكلام المباح .

نهـــار

حسن الثاني يستلبسني يا دكتور . وأنا عاجز عن العيش بدونه . كأنني أدمنته وأدمنت حكاياته . فحكاياته أجلت انتحاري .

في صباح اليوم التالي ، انطلقت إلى شقة زوجتي . وكان حسن الثاني قد دلني على العمارة التي تقع فيها الشقة . طوال الطريق ظل حسن الثاني يتبعني كظلي . وفتحت زوجتي الباب ، وما إن وقع بصرها علي حتى أجفلت وحسبت أن جنياً يقف أمامها . جزعت وانحرفت عني . وصاحت :

ــ جني . . جني . . شبح . . شبح .

مشت رعدة في أعضائي وأنا أراها تتراجع صفراء متضعضعة شاحبة . هتفت منقبض القلب :

ــ أنا حسنين .

لكنها بدت وكأنها تنظر إلى لا معقول مرعب تقف له القلوب فما تخفق ، وتجمد له الدماء فما تجري .

وحين دنوت منها دفعتني بضراوة وقوة إلى الخارج وهي تصيح :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ألا مهرب منك وأنت حي ، ولا مهرب منك وأنت ميت ؟

والدموع تنهمر غلاظاً من عينيها ، وشعرها الأسود ينثني ويتطاير . وأطلت ابنتي . ابنتي ؟ كيف وقد تركت زوجتي أول من أمس وهي

حـامل . ووجـه ابنتي ينطق بـالتخلف العقلي . تهـز رأسهـا كـالـدراويش وتصرخ :

ــ آمبو . . .

وجههـا لا ينبىء بعمـر محـدد . لكن حجمهـا لـو نـطق لقـال عشر سنين . فتاة شـوهاء ، وزوجـة لا تعترف بحضـوري يا دكتـور . ودفعتني زوجتي دفعـة قويـة ، فإذا بي أتـرنح ثم أتـلاطم مع الجـدران وأسقط على الـدرج . وما كـانت منتفخة البـطن ، لكنهـا منتفخـة الجفـون . وسمعت الباب وهو يوصد بقوة ، ثم المزلاج وهو يغلق بتوتر .

حـين نهضت ونفضت الغبـار عن مـلابسي أدركت أن أحـداً لن يعتـرف بي . وسارع حسن الثـاني إلى التجلي ، بعـد أن اختفى لحظات قـال كالمـواسي انني كنت غـائبـاً ، و« هم » اعتقـدوا أنني مت . قـال انني ذهبت في غيبوبة طويلة ، وان الأطباء أنبـأوا زوجتي بلا جـدوى العلاج ، ونصحوها بأن توافق على نزع الأجهزة من جسدي . قـالوا : هـو ميت ، لكن الأجهزة أبقته حياً طوال هذي السنين .

وافـقت زوجـتي الـتي لم تـكـن أرمـلة ولا زوجــة ! وتحـمـلـت مـن الخـطوب ، ونـاهضت ، وحــدهـا ، من الأعبــاء مـا لا يتحمله أبــطال الأساطير .

وذهب عقـلي يـا دكتـور . بـل مسني طـائف الجنـون . صـرخت ، ضربت قدمي في الأرض . قلت هـذا كذب . . كـذب . أنا لم أختف ولم أذهب في الغيـاب . أول من أمس كنت مع زوجتي وكـانت حامـلاً بابنتي هذه . لعل العالم هو الـذي دخل في غيبـوبة مـا . لعل . . . انني لا أفهم يا دكتور يا حكيم ، لا أفهم .

وهنـا اعترف لي حسن الثـاني أنه هـو الذي غـاب . قـال انـه كـان غـائبـاً غيبتـه الكبـرى قبـل أن يتجـلى . أقـول لـك يـا حكيم انـه كـائن

عجيب . تصور يا حكيم . قال انه ترك جسده هناك في بيتي مسجى داخلاً في غيبوبة واختفى هو . . للتمويه قال . قال انه كان بحاجة ماسة إلى التخفي . فلبس ألف قناع وقناع ، ومنها قناع الغيبوبة . قال انه لبسني كقميص .

حسن الثاني هو الذي ورطني إذن يا دكتور . انه كائن خرافي يا دكتور . أعتقد أنه عصابي ممسوس . ولكنه يسكنني ، أعني أنني مسكون به . أقصد أنني أسكنه . لا أفهم . حاصله يا دكتور . . تصور أنه قال شارحاً :

ـ كان علي أن أتخفى وأتوارى ، أن أبتعد عن تلك المناطق التي تطالها أيدي دوائر غامضة مبهمة تتواطأ ضدي . اشتعلت بالشك والخوف والرغبة في المواجهة حتى بت كتلة لهب يقتات على الريبة . تخفيت ، لبست ألف قناع وقناع ، لبست قناع الموت ، وقناع الغياب ، وحنطت جسدي . تركته ولذت بجب الظلمة ، وكهف السكينة ، حيث رائحة نوم أبدي تضرج الحواس . تركت جسدي أو جسدك مسجى وهربت . وها أنا ذا أستفيق الأن كما تستفيق الرغبة في الجسد المستثار .

أنا يا دكتور شخص علماني . مؤمن بحقائق العلم والتكنولوجيا . اعترضت . قلت له ان ما يقوله مستحيل من الناحية العلمية . فإذا به يطلق ضحكة جهنمية ويقول ان بوسعه إثبات إمكانية ذلك علمياً وعقائدياً . قال ان عوج بن عناق عاش ٣٦٠٠ عام ، وحكى عن إبليس ، وأشار إلى أهل الكهف . ثم تحدث عن الفحم الحجري قال : انه بعرف علم العلماء بالمحسوس ـ وأنا منهم ـ لا ينضج الفحم الحجري إلا بعد خلقه بمئات آلاف السنين . وأشار إلى البترول قال : انه بعرف علماء الاختصاص لا يصبح البترول صالحاً للاستعمال إلا إذا توافرت عناصره في ظروف خاصة ملايين السنين . ومعدن الألماس الثمين ـ بمذهب العلماء الذي لا ريب فيه ، وأنا منهم ـ لا يصبح

ماساً صافياً ناضجاً إلا بعد أن تؤلّه الطبيعة ملايين وملايين السنين . ثم ضرب لي مثل الشموس التي اكتشفها العلم الحديث ، والتي تكبر شمسنا بملايين ملايين المرات ، قال انها مبثوثة في أفق لا متناه ، يسير نورها نحونا منذ ملايين السنين ، ولم يبلغنا بعد ، بالرغم من أنه يسير بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة .

هذا ما قاله حسن الثاني يا دكتور ليثبت إمكانية غيبته سنوات وسنوات . لاحظ خبثه يا دكتور . إذ استند إلى براهين علمية ، لمعرفته باهتمامي الكبير بالعلم والعلوم ، وانصرافي عن الغيبيات والميتافيزيقا .

ثم توسلني يا حكيم أن أكون قناعه حتى يتمكن من القيام بالمهمة التي كلفه القدر بها ، وانتدبه لإنفاذها . تصور يا حكيم . وينبغي أن أعترف يا حكيم أنه يشبهني كأنه توأمي . حتى صوته ـ سبحان الله ـ يشبه صوتي .

قال انه تجلى بعد الغيبة الكبرى ليصبح بطلاً تراجيدياً . قال انه سيتجلى لكل الناس دفعة واحدة حين تحين الساعة . وسيسمعهم جميعاً في آن واحد صيحته فيهم .

واعترضت مرة أخرى . قلت كيف سيسمع كل الناس صيحتك دفعة واحدة . أنا رجل علماني عقلاني مؤمن بالتكنولوجيا يا سيدي . نحن نعيش في العصر التكنو ـ إلكتروني يا سيد حسن الثاني . وما تقوله غير معقول .

هز رأسه ، وابتسم ابتسامة ساخرة ثم قال كالهازىء :

ــ إذا كان المذيع العادي قادراً على إسماع صوته إلى ملايين الناس من وراء المذياع . فلماذا أعجز أنا عن ذلك .

وأكد أن المذياع جهاز اخترع بانتظار قدومه وتجليه . كذلك

التلفـزيـون . قــال حـين أقف وأصــرخ : يــا معشر صحبي ، وأهــل خـاصتي ، ائتوني طـائعين . سـترد صيحتي هذه عليهم وهم في محـاريبهم وعلى فرشهم في المشـرق والمغرب . سيسمعـونني في صيحة واحـدة في أذن كل رجل ، وسيبصرون وجهي على شاشات التلفزيون .

سخرت منه مشبهـاً إياه بكـولونيـل من كولـونيلات العـالم الثالث ، الذين يقرأون على الناس بلاغهم رقم واحد من الإذاعة .

فقطب .

أنــا علمـاني يــا حكيم ، أحب أن تكـون عــلى يقــين من هــذه الحقيقـة . إنني مطلع عـلى ما كتبـه كارل غـوستاف يـونغ عن الـلاشعـور الجمعي . و« يونغ » يا حكيم يرى أن الإنسان أشبه ما يكون ببنـاية يـظهر منهـا طابق واحـد حديث عصـري فوق سـطح الأرض . فإذا مـا حفـرت تحت هذا الطابق اكتشفت بنى تحتية تغشاهـا طبقات من فـوقها طبقـات ، وطوابق من تحتها طوابق ، بعضها فوق بعض . فإذا مـا هبطت من طـابق إلى آخـر ، وانحدرت من الأعـلى إلى الأسفـل ، كـان مثلك كمثـل من يعبـر الزمن من الحـاضر إلى الماضي ، بـل يتقهقـر مـاضيـاً إلى المـاضي . وتـظل تنحدر من عصر إلى عصر ، ومن مـرحلة إلى مـرحلة إلى أن تصـل كهف الإنسان الأول البدائي . فاللاوعي الجمعي عنـد « يونـغ » مستودع لحضـارات سـادت ثم بـادت ، ومخـزن رمـوز وطقـوس وشعــائـر تعكس عصـرها . وهكـذا فإن كـل طـابق تحتي يعكس طـراز البنـاء في عصـره . فهـذا طابق مبني عـلى طراز مبـاني عصور الـظلام . . وهذا مـا يـظهـر في الأحلام بشكل خاص . . وفي . .

مـا بـك تقـاطعني بضحـك ســاخـر يــا حكيم ؟ لعلني اختصـرت اختصــاراً مخــلاً . لا ؟ أنت تضـحــك مني . مـن تشـتت أفـكــاري ، واضــطراب خـواطــري . وكيف لا أتشتت واضـطرب وهــذا المستـودع

المخزون قد انفتح على مصراعيه في أعماقي السحيقة ، فراحت رموزه الشائكة المبهمة تغزو بالي ، وتنهب منامي ، وتستحوذ على يقظتي . ماذا ؟ أنت قرأت يونغ أيضاً ! ماذا ؟ أفكاره قديمة ، تقول يا حكيم ! تريدني أن أعود إلى صلب المشكلة . معك حق . ولكن أين كنا ؟ ذاكرتي لا تسعفني يا دكتور . إنها أشبه بسد مأرب . فيها من الفجوات ما . . . آه . نعم . صحيح . كنت أقول ، يا دكتور ، انه بعد ذلك ، خطر لي خاطر لم أعرف لماذا لم يخطر ببالي من قبل . تذكرت العصبة وأيام العصبة ، أيام الانتهاء ، أيام شعلان وأبي . قلت لنفسي أذهب إلى شعلان المزاع وأستجير به . شعلان قادر على الفهم ، لعله يشرح أو يفسر لي ما يحيط بي من مبهمات ، وما يستعصي على عقلي فهمه من تغيرات وانقلابات وتحولات غامضة . لعله يحل لي هذه الأحجية .

سألت عن مكتبه . كنت أنزف عرقاً . أوقفت سيارة سرفيس ، وحين ركبت عرفني السائق . والعجيب الغريب . . أنه رفض أن يقبض الأجرة . قال انه يعرف أنني لم أرث شيئاً مادياً يُذكر . وقال مواسياً كأنما يطيب خاطري :

ــ يا عمي الاسم ونظافته . . السمعة . . هي رأس المال الحقيقي في هذه الدنيا . وأنت والحمد لله ورثت من هذي الناحية اسماً كبيراً . انت غني أستاذ . . بهذا المعنى . رأس مالك كبير . . كبير . .

وهبطت من السيارة ، ورأسي يدور . دلفت إلى مكتب شعلان الجديد . دخلت الى صالة فخمة ، فاستقبلتني سكرتيرة باذخة الجمال . قالت انها فرنسية . وقالت انتظر للحظة . . فانتظرت ساعة بينما اختفت هي وراء باب آخر . ثم عادت وبيدها كوب بلاستيكي أبيض فيه قهوة سوداء . تناولته وأنا أحدق إليها . لاحظت أنها ترتدي قميصاً ذا ربطة رجالية . وأنها ترتدي فوقه سترة خضراء ضيقة ، وابتسامة خضراء عريضة . وقلت لنفسي لعل شعلان يرغب في استغلال الأجانب مثلما

استغلوا شعبنا في الماضي . وتناولت علبة سجائري ، يا دكتور ، من جيبي . أشعلت سيجارة بيد مرتعشة . لا أدري لماذا ارتعشت يدي . لكنني أدري أن السكرتيرة لاحظت الرعشة ، مما ضاعف من اضطرابي . قلت لنفسي وأنا أدخن بعصبية : ماذا لو اعتقد شعلان أيضاً أنني شبح ؟

وتساءلت ترى كيف سيستقبلني . وتناولت كوب القهوة « النيسكافيه » . وارتعش الكوب في يدي . ثم اكتشفت أن القهوة بلا سكر ، فلم أشربها . ووضعتها جانباً . واكتشفت أن السكرتيرة لا تعرف الانكليزية . وكان شعرها الأشقر معقوصاً إلى الوراء . تململت في مقعدي محرجاً ، وسرت في جسدي رعشة كأنها رعشة الحمى ، حين فتح الباب ، وأطل شعلان . وكانت عيناه ذابلتين . لكنه أخذني بين ذراعيه وضمني إلى صدره يا دكتور . فتنفست الصعداء كما يقولون . وجرني من يدي إلى مكتبه ، وأنا أمسح عرقي بيدي الأخرى . وجلس هو وراء مكتبه الأنيق ، بينما جلست أنا على كنبة فخمة . وابتسمت ، وعبرت له عن مخاوفي السابقة . وشرحت له أن الكل يعتبرني شبحاً . لكن شعلان لم يضحك ، ولم يشرح . وإنما حدجني بنظرة رصينة وقال انه سمع بظهوري . قال انه رجل عملي . وكوني شبحاً أو عفريتاً أو إنساناً لا يهمه . ما يهمه هو ضرورة تغيير ملامحي واسمي فوراً . وقال انه يعرف طبيب تجميل ممتازاً . وان هذا الطبيب قادر على تغيير ملامحي . وقمت كالملسوع . ورحت أذرع الغرفة بخطى متلاحقة مضطربة ، لا أفهم شيئاً . ورحت أنكش شعري المنفوش .

ثم قال كمتهم يدفع تهمة :

ـ كل ما ستسمعه عن تشظي العصبة إلى عصبيات مش صحيح . وكل ما ستسمعه عن إبعاد العصبة لوالدك . . مش صحيح .

الثابت الوحيد هو أن والدك اختفى فجأة . كيف ؟ لماذا ؟ ما حدا بيعرف .

إستخرج سيجاراً من جيب سترته ، وأشعله بقداحة ذهبية . ثم قال انه سمع بوجودي ، أو عودتي ، أو بعثي ، أو خروجي على الناس ، أو . . قال ان المصطلح غير مهم . وحين رأى نظرة الدهش في عيني ، ربت على يدي باستعطاف وقال ان وجهي واسمي يذكران « البعض » بذكريات يفضلون نسيانها . وقمت أنا عن مقعدي وقلت :

ـ مش فاهم .

وضغط على جرس . فانفتح الباب ، ودخلت السكرتيرة ذات الابتسامة العريضة والربطة الرجالية . وطلب لنا فنجانين من القهوة . وابتسمت هي ابتسامتها العريضة . وأبرقت عيناها ، وقالت :

ـ حاضر .

وتراجعت دون أن تولينا ظهرها .

حاولت أن أتمالك نفسي ، كي لا أبدو أمامه مضطرباً . لكن الاضطراب غلبني ورحت أنا أيضاً أذرع الغرفة بخطى متلاحقة عصبية . وهو لم يتوقف . وإنما واصل ذرع الغرفة إلى جانبي . وراح يشرح ويفسر . قال إن عبد الناصر مات وماتت معه مرحلته . قال ان وجهي يثير الذكريات . وأخبرني أن مدرسة أحمد سعيد ماتت . قال هذه مرحلة الاستهلاك والخدمات والمشمشية . وأنا لا أفهم . قلت انه يدور ويلف . وطلبت منه أن يدخل في الموضوع مباشرة . اعتذر . أخرج من جيبه منديلاً أبيض نظيفاً وتمخط . ثم نظر إلي نظرة ثابتة وقد توقف عن الضرب في أرجاء الغرفة . فتوقفت . قال : ان بن بللا دخل السجن . . ثم خرج شخصاً آخر . وقال انه كان يقف إزاء جسدي المسجى الحي ـ الميت ، عاجزاً . وأن وجهي واسمي يثيران مشاعر

الذنب عند بعضهم ، بالإضافة إلى مشاعر العجز . وقال ان حمل السلم بالعرض ما عاد يفيد . وانه لا يريدني أن أروح للحج والناس راجعين . كما أنه لا يريدني أن أقيم الدين في مالطا . فأكدت له أنني لم أذهب في حياتي إلى مالطا . وانني لا أفهم مغزى حديثه غير المترابط .

دار حول مكتبه ، ثم جلس إليه . وراح ينقر بأصابعه على طاولته . وهو يتابع خطواتي الضاربة في الغرفة . قال ان أبي كان رمزاً من رموز تلك المرحلة التي أسدل عليها الستار . وكرر أن المرحلة تغيرت . وأن اسمي ووجهي يذكران بما يجب البعض نسيانه .

وهنا ثارت ثائرتي وصحت :

ــ يعني وجهي يذكر بمن حتى يثير مشاعر الذنب والعجز . . . بسيدنا الحسين ؟ بعبد الخالق محجوب ؟ ببن بللا ؟ بآدم ؟

رفع فنجانه إلى شفتيه ، ورشف بيد لاحظت اضطرابها . ارتعش الفنجان في يده . قال وعلى شفتيه ابتسامة عريضة باهتة :

ــ أنا مثل والدك . بدي مصلحتك .

ثم طلب مني أن أشرب القهوة قبل أن تبرد . وخطر لي أن أغادر المكتب ، لكنني لم أفعل . جلست على الكنبة مرة أخرى . وقلت انني لا أفهم شيئاً . ورفعت الفنجان إلى شفتي ، وكان يرتعش أيضاً . وألقى شعلان نظرة كئيبة علي وقال ان اللبيب من الإشارة يفهم . وانه يعرفني لبيباً .

وأخبرني وهو ينفث دخان سيجاره في وجهي أنني دُفنت في لاشعور بعضهم . وأن ظهوري فجأة يعني خروجي من اللاشعور إلى منطقة الوعي . وأن هذا « البعض » يريد أن أظل مدفوناً في اللاشعور . ثم كرر ضرورة تغيير اسمي وملامحي . قال انه يعرف طبيباً يجري عمليات تجميل تغير الملامح .

والتوت شفتي تقززاً . وسألته من يعني « بالبعض » . قال لا حول ولا قوة إلا بالله . يا أخي ابدأ حياة جديدة ، ولا تدعني أكشف المستور . وأخبرني أنه لا حاجة لنشر الغسيل الوسخ على الناس .

قمت ، واتجهت إلى مكانه . وقلت له انه يتكلم بالرمز كباطني . وأنا لا أفهم أي شيء . وإذا كان يقصد بالبعض العصبة فإني أيضاً لا أفهم أي شيء . وقال هو بعد أن أظلم وجهه ان العصبة باتت أشبه بتيار ، يعني تقريباً تلاشت . وأن أصحابه يقدرون والدي كذكرى . .

لكن ظهوري يجسد الذكرى . وقال وهو يقف كأنما يعلن انتهاء المقابلة ان عدد أعضاء العصبة الذين أصبحوا خارجها ، يفوق عدد الذين ظلوا فيها بعشرات المرات .

وسألني إن كنت بحاجة إلى نقود . وحين نترت رأسي سلباً . قال :

ـ تشتغل معي في الشركة ؟

أخبرته أنني سأفكر في الموضوع . علماً بأني « غشيم » في الصنعة .

ماذا يا دكتور ؟ لماذا أتكلم الفصحى ؟ وهل كنت أتكلم الفصحى . عفواً يا دكتور . لعله الفصام . ينبغي أن نعترف أننا نكتب بالفصحى ونتحدث بالعامية ، ونقرأ الفصحى . يعني نكتب بلغة لا نقولها ونقول بلغة لا نكتبها . ولكن لماذا يتكلم الأطباء هنا بكل اللهجات العربية ؟ هل تتبع هذه المؤسسة مكاتب الجامعة العربية يا دكتور ؟

ماذا يا دكتور ؟ أنا أحمل وباء القلق يا دكتور ؟ أنا ؟ أنا أسبب القلق والأرق للمواطنين يا دكتور ! ماذا ؟ تقدموا بشكوى ضدي . مَنْ يا دكتور ؟ أنا لم أفعل شيئاً . ما ذنبي إن كانوا هم يعتبروني شبحاً . من

الذي قدم شكوى إليك يا دكتور ؟ ماذا ؟ لماذا لن تكشف لي الأسماء . ماذا يا دكتور ؟ ستفرض علي حجراً صحياً ، يا دكتور ، لتمنع وبائي ؟ لكنه حسن الثاني يا دكتور . هو الذي . . ماذا يا دكتور ؟ أنا حرمت الناس من النوم ؟ لماذا يا دكتور ؟ ماذا فعلت ؟ هم قالوا ؟ من هم ؟ الناس ؟ من منهم ؟ الناس يحبونني يا دكتور . تصور أنهم لا يأخذون أجرتهم مني . أول أمس أقلني سائق تاكسي إلى البيت وحين رأى ملامحي وعرف اسمي رفض أن يقبض قرشاً واحداً . كيف يا دكتور ؟ أنت واحد من المتواطئين يا دكتور . أنت ذيب الرابع أو العاشر . أنت ذياب . أنت . . .

[لا أذكر ماذا حدث بعد كلمة « أنت » . .]

* * *

ولكني أذكر أنني خرجت من عند الحكيم . فانبثق أمامي الممرض وقال :

ــ من المستحسن تنفيذ تعليمات الطبيب . لمصلحتك .

* * *

نهار أبيض طويل طويل . أطول من مراد بركات لاعب كرة السلة . لم أمض اليوم إلى النقابة . أقتعد صالة هذا البيت القديم المهجور ، لا أومىء ولا أقول .

صوت الفيديو يترامى إلى مسمعي من نافذة شقة أم سليمان . هي تتأمل فيلماً مصرياً . وبلقيس تسمع موسيقى صاخبة من « الهيد فونز » . تنعزل عن العالم والناس . . تضع السماعات في أذنيها وتغيب في عالم ناء بعيد . تقرأ « نشيد الإنشاد » .

أدخل في ملابسي ، ثم أدخل إلى الشقة . تستقبلني أم سليمان بوجه مشيح وعينين ملتصقتين بشاشة التلفزيون :

ــ تعال يا ابني وانظر كيف ضحكت ابنة الحرام على فريد شوقي . الله يخرب بيتها . تريد أن تضحك عليه . تمثل عليه . تقول له أحبك وهو قد أبوها . طمعانة في مصرياته . بدها تلهف المصاري . شايف . . اسمع . . عم تضحك على شيبه . آه يا شايب يا عايب . متى رح تصحى وتشوف انها بتضحك على شيب . . .

وأمشي بخطى ثقيلة أقتلعها من الأرض اقتلاعاً . أقف خلف بلقيس . أتأمل شعرها المتأجج كنار سوداء وأقول :

ـ مرحباً .

لا تسمعني . سماعات المسجلة الصغيرة في أذنيها .

لم ترفع وجهها .

حاولت أن أعود إلى إثارة تعاطفها . قلت بصوت خفيض وكانت يداي في جيبي :

ــ مرت سبع سنوات على اختفاء أهلي .

رفعت السماعتين عن أذنيها وقالت :

ــ تلعب طرنيب ؟

هززت رأسي سلباً وقلبت شفتي السفلى . قلت :

ــ لا أعرف .

وقال فريد شوقي للممثلة الصبية :

ــ أحبك .

وقالت أم سليمان :

ــ حبك برص يا . . .

وقلت وأنا أذرع الصالة ويداي في جيبي وظهري محدودب :

ــ ما زلت بلا عمل ولا إذن سفر .

عقصت شعرها إلى الوراء . نقبت وجهها بعيني باحثاً عن ملمح

حزن أو أية انقباض بلا جدوى . قالت :

ــ تلعب كرة طاولة ؟

أفهمتها أنني أبغض اللعب . أبغض لعب الورق ، ولعب البليباردو ، ولعب كرة الطاولة ، ولعب الشطرنج . قالت :

ــ أف . . ربما لأنك تكره الهزيمة . وماذا تحب إذن ؟

قالتها بلهجة لا تخلو من سخرية خفية وضجر . ارتبكت . داريت ارتباكي بمشروع بسمة واثقة سرعان ما أفلس . ولمحت في عينيها قلقاً خطيراً تداريه بنظرة ساخرة .

وجاء ابنها الصغير ، وأخذ يثب ويطارد كرة كبيرة . ثم أنشأ يصرخ مثل الهنود الحمر . ولم تزجره . وأنا لم أجفف عرقي . قالت بصوت مرتفع :

ــ هل ستذهب اليوم إلى مكتب جامعة الدول العربية . . مكتب ماذا ؟ وقالت الممثلة لفريد شوقي :

ــ أحبك .

وقالت أم سليمان :

ــ حبك قرد يا ابنة . . .

وقلت :

ــ كالعادة .

ولم تسمعني . إذ صاح ابنها بعد أن خرج من مخبأه :

ــ كمستير . . على أمك . .

ودفعني في ظهري . ولما التفت مستوضحاً . قال :

ــ تلعب طماية تخباية ؟

فبادرت بلقيس قائلة :

ــ عمو لا يحب اللعب .

تساءل الطفل :

ـ إذن ماذا يحب ؟

وقال فريد شوقي :

ـ أحبك .

وقلت لبلقيس في محاولة أخيرة للتلذذ بتعذيبها ، مستحضراً سلاحاً كان فعالاً في الماضي :

ـ لقد فرضوا علي حجراً .

أعادت السماعات إلى أذنيها وقالت بلهجة وشت بتناقضاتها الحادة :

ـ ولماذا تحملون السلم بالعرض ؟

وتساءلت ، وأنا أغادر شقة أم سليمان ، لماذا تغيرت بلقيس . ثم تساءلت بصوت مرتفع لم يسمعه أحد :

ـ هل يخلط الناس بيني وبين أبي ؟ وهل هذا الخلط هو سبب اللبس ؟

* * *

نهار . . .

نهار طويل ، أطول من مراد بركات لاعب المنتخب الوطني لكرة السلة . لكنه بأحداثه قصير ، دائري ، مختزل .

بعد الحجر الصحي ، اكتفيت بالتنقل بين العمارة و« كفتيرية » اسكندر . وعلى الرغم من تجاهلي لسكان الشقق المفروشة ، قامت بيني وبينهم علاقات قسرية بحكم الجوار . . وكان الجميع يعتبرني شبحاً لا بد من التصالح معه . كالشر الذي لا بد منه .

علاء الدين هبط من شقته ، وأقبل إلى البقالة الكبيرة . جر

مقعداً خشبياً وجلس على الرصيف إلى جانبي . قال ان إجازته ستنتهي بعد أسبوع . وانه يستعد للعودة إلى الخليج . وأخرج علبة سجائره وضيفني سيجارة . ثم أعاد العلبة إلى جيبه . وقلت له شكراً . وقال :

ــ راحت علينا يا شيخ حسنين . اللي ضرب ضرب واللي هرب هرب . ولما رفعت عينين متسائلتين قال انه لم يسع إلى الخليج إلا من سنتين . وان أصحاب الشركات والمؤسسات الخليجية أخذوا يستغنون عن الموظفين والعمال العرب .

ثم أطرق وكأنه يعمل فكره . رفع رأسه وقال :

ــ من جهة يقولون ان حرب الخليج شفطت السيولة ، ومن جهة يقولون ان شركات الخليج تفضل الأجانب : أرخص وآمن .

وقام ودلف إلى الجزء الخلفي من الكفتيرية . اختفى وراء الستارة حيث توجد يافطة صغيرة مكتوب عليها : « ممنوع الدخول منعاً باتاً لمن ليس له شغل » . ودخل اسكندر وراءه . ثم خرج وهو يحمل زجاجة بيبسي مزج فيها كمية كبيرة من الويسكي .

ونظرت بطرف عيني فلمحت امرأة تخرج من الباب الخلفي للكفتيرية ، ثم تسلل إلى العمارة . وعندما اكتشف اسكندر أنني رأيتها هتف بها :

ــ يللا . . ونظفي شقة سبعة مليح .

ثم التفت إلي بوجه مرتبك وهمس :

ــ الخادمة اللي بتنظف العمارة .

واختفى داخل الكفتيرية . كركر علاء الدين في عبه وقال انه يراهن على كونها مومساً . وأن اسكندر دبرها لنزيل شقة سبعة . وسحب نفساً من سيجارته وقال ان نزيل شقة سبعة « مريش » . وأكد

لي أن هـذا النـزيـل يقيم في فنـدق من فنـادق الـدرجـة الأولى . . لكنـه استأجر شقة سبعة صباح اليوم لأسباب يفهمها اللبيب . قال :

ــ بدو يغير زيت .

وكان علاء الدين قد اشتـرى قطعـة أرض وبدأ يشيـد عليها بيتـاً . وأنبأني أنه خائف . قال من يضمن عدم استغناء الجمـاعة في الشـركة عني هـذه السنة . وتمنى أن يستبقـوه في الشـركـة إلى أن ينتهي بنـاء بيتـه عـلى الأقل . قال :

ــ إيش أعمل بنص بيت ؟

وأعلن عن نـدمه لأنـه لم يلحق المشمشية . قـال بعد حـرب تشرين ورفـع أسعـار النفط كـان ينبغي أن يسعى إلى الخليـج . لكن النصيب عـانـده . وحكى لي عن صـديق لـه ذهـب إلى الخليـج في مـنتـصف الستينات . قال ان الشركة الخليجيـة أحالتـه على التقـاعد . وستـدفع لـه تقـاعداً مـا ظل حيـاً . وانـه بنى فيللا فخمـة هنـا ، وهـو يسعى الآن إلى توظيف مجموعة « بادي غاردز » للحماية الشخصية .

رفع زجاجـة البيبسي الملغومـة بالـويسكي إلى فمه ، ولم ينحهـا عن شفتيـه إلا بعد أن أتى عـلى معظمهـا . وألقى سيجـارتـه عـلى الأرض ثم سحقها بقدمه . ولاحظت أن الـذباب يحط عـلى قطع الجـاتو ، واسكنـدر يرى ولا يفعل شيئـاً . وقال عـلاء الدين وهـو ينهض ينبغي أن لا أظن أن صاحبه هذا معرض للخـطر . لكنه كـان يطمـح أن يصبـح سيـاسيـاً ذا شـأن ، وهو يـدرك أن ذلك شبـه مستحيل . قـال ان صاحبـه هـذا كـان يرغب في أن يرى شرطياً يقف على بابـه شأن الأعيـان ورجال الحكـومة . لكنـه لا يستطيـع أن يشتري شـرطياً ليـزين بـه بـاب الفيللا . فعمـد إلى توظيف ثلاثة رجال شرطة متقاعدين كرجال حماية .

ورفعت رأسي فـرأيت المـرأة تـوصـد شبـابيـك شقـة سبعـة ، ثم

تختفي . رأيتها ولم أفعل شيئاً . واسكندر رأى الذباب . . ولم يفعل .

ومضى علاء الدين وقال انه سيهبط إلى البلد ليشتري تذكرة سفر . وقال وهو يتعد انهم إذا استغنوا عنه في الخليج . . سيعود . ولكن ماذا سيتشغل ؟ قال :

ــ حتى لو خلص بناء البيت . . كيف رح آكل واشرب وأودي أولادي على المدارس ؟

وظل سؤاله معلقاً في الهواء بعد أن اختفى .

* * *

قال اسكندر لعلاء الدين مقهقهاً :

ــ يعني سترجع من الخليج يد من ورا ويد من قدام أنت وزوجتك ؟

فقطب علاء الدين واحتقن وجه وقال :

ــ لو رحت أنت وزوجتك يا اسكندر للخليج كان رجعت رافع إيديك عن ورا . . وهي رافعة يديها عن قدام .

اضطرب اسكندر وقال :

ــ يا عمي أنا شو قلت حتى تزعل ؟

وحمل اسكندر مكنسة طويلة ، وراح ينظف الرصيف وهو يشيع علاء الدين بعينيه . قال :

ــ الله يعطي العجوة للي بلا أسنان .

ورأيت المرأة تنسل من البناية ، وتدور حول كفتيرية اسكندر ، واختفى اسكندر وراء الستارة . ثم عاد يهز وجهاً مشرقاً وعلى فمه ابتسامة بلهاء . جلس الى جانبي ، ومال . همس قائلاً انه كان بائع

كعك بسمسم والآن أصبح يملك كفتيرية ، وغداً سوف يستأجر المكتبة المجاورة بعد أن يطفش صاحبها الذي يكش ذباباً طوال النهار . وأكد أنه سيفتح محل همبرغر. وسألته لماذا يبقي على هذا المحل لبيع « الغاتو » . وغمزت بعيني حين تلعثم وقلت انه يريد أن يدير عملياته من هنا . قال أعوذ بالله . وكتر خيرك . ثم أشعل سيجارة وهمس في أذني قائلاً ان كل من بدأ صغيراً يكبر . المسألة محتاجة إلى شيء من الحركة . الحركة بركة قال . قال حتى إسماعيل بدأ شرطياً ثم صار صاحب مخفر .

وكنت قاعداً على أعصابي بانتظار بلقيس . بلقيس قالت انها ستأتي اليوم من المدرسة وتقول لي جوابها النهائي حول زواجنا . وكانت بلقيس تجتمع بفزاع وكنت أغار بيني وبين نفسي ، ثم أقول مواسياً انني رجل علماني . والمرأة من حقها أن . .

وهمس اسكندر في أذني قائلاً انه يتمنى أن أحقق له مطلباً . نفثت دخان سيجارتي في وجهه وقلت :

ــ أطلب وأتمنى يا « أبو قرنين » .

قال ان أم سليمان مصابة بالجلطة ، فإذا ظهرت لها أنا في الليل - باعتباري شبحاً - فستنجلط أو تصيبها السكتة . وسترث بلقيس كل شيء . عند ذاك أسلمه أنا إدارة العمارة بحرية . « ولعلك تجلط لي فزاع أيضاً حتى نخلص من محاضراته وفلسفته الفستق فاضي » . قال . قال ان فزاع ينهره ويقول انه يتاجر بالرقيق الأبيض . وسألني ما معنى الرقيق الأبيض . واحتسيت الشاي ، ورحت أذرع الكفتيرية ، وقلت ان ثمة ألف سبب وسبب لانفجار دماغ فزاع في أي لحظة ، فلا داعي لإرهابه بشبحي . وضحكت ، ولم يضحك اسكندر .

وأقبلت بلقيس أخيراً . وجلست إلى جانبي . وفي نفس اللحظة

دخل نزيل الشقة رقم سبعة . وكان مديد القامة منخسف الخدين وفي فمه غليون . وأمر إسكندر أن يحضر له دجاجتين مشويتين وزجاجة ويسكي للشقة . ثم ألقى نظرة التهمت بلقيس التهاماً . . وخرج . بينما دخلت سحب دخان غليونه . وقال اسكندر بحماسة :

ـ دير بالك على المحل .

وانطلق لينفذ التعليمات . وقالت بلقيس ان البلد أصبحت بلد خدمات . قلت لها انني كنت طوال النهار أجلس على أعصابي . قالت وهي تضحك :

ـ طيب بإمكانك أن تقوم الآن .

قلت ببلاهة :

ـ أقوم وين ؟

قالت :

ـ قوم عن أعصابك يا أخي .

وفهمت أنها وافقت على الزواج مني . قالت انها لا ترى مانعاً يمنع زواجها من شبح . بل إن ذلك يعزز من حريتها . ثم حاولت أن تقول شيئاً ففتحت فمها ، ولكنها لم تتكلم . ونطقت ملامحها وعيناها . فأدركت أنها تريد أن تقول قولاً يحرجها . قمت وأعددت فنجاني قهوة قلت :

ـ مالك ؟ بتخافي الزواج من شبح ؟ بتصدقي إني شبح ؟

فلعبت بأصابعها بعصبية . ودخل اسكندر يلهث وهو يحمل الدجاجتين في كيس من النايلون .

همست بارتباك :

ـ لا أضمن بقاءك إلى جانبي . إيش يضمن لي عدم غيابك مرة ثانية ؟ وقالت انها مقطوعة من شجرة ، وان أمها مريضة بالقلب وانها أم

طفل صغير. وأكدت لي أن الشقق كلها مسجلة باسم أخيها سليمان وهو شميم هواء قطيف ورد ، مدمن قمار ، ويعتبر أن هذا الوطن مجرد بازار أوبقرة حلوب .

قامت حين غلت القهوة ، فحركتها ، ثم صبت في فنجانين وحملتهما . جلست على المقعد وكأنها تتحفز للنهوض . قلت أحثها :

ــ طيب ؟

قالت وهي تنظر إلى أصابعها المفروشة على الطاولة ولا ترفع عينيها ، انها تريد أن أسجل أرضي القريبة من الجامعة باسم ابنها .

وحمل اسكندر زجاجة ويسكي من وراء الستارة وهرع إلى العمارة وهو يطالبني بأن أخلي عيني على المحل . وابتسمت ابتسامة شاحبة وقلت لها ان هذه الأرض من حق زوجتي وابنتي المريضة . وأكدت لها أني لن أغيب ثانية . فأغرقت في صمت متوتر . وخفضت عينيها . تناولت سيجارة من علبتي وأشعلتها بأصابع مرتعشة ثم همست دون أن تنظر إلي :

ــ أريد ضمانة .

وكنت قد قلت لفزاع ذات مرة :

ــ ما الضمانة ؟

فقال ان من يعيش مثله لا يسأل عن الضمانات . وكان المطر آنذاك ينقر رؤوسنا ، ويطبطب على أكتافنا ، وكانت خطواتنا ترن على الرصيف .

جلسنا ساعة لا نومىء ولا ننبس ، وكانت بلقيس تسترق إلي نظرة حرجة ، بين الحين والآخر ، ثم تستردها وتحتسي القهوة بصمت .

قلت بدافع اليأس :

ـ طيب . سأسجل الأرض باسم ابنك . هذا إن اعترف موظفو دائرة الأراضي بوجودي . أشرق وجهها ، وحل الظلام .

قامت وهي تغالب ابتسامة فرح غامر . وقالت انها ترغب في أن تدعوني إلى مطعم فاخر .

ومضينا إلى العمارة . فأصلحت من شأنها ، وكانت أم سليمان تشاهد مسلسلاً مصرياً وهي نائمة ، دخلنا وخرجنا ولم تشعر بنا . وأوقفنا سيارة أجرة ومضينا إلى المطعم ، وكانت يدانا في المقعد الخلفي متشابكة .

في المطعم رأيت شعلان . كان سكرانَ . وعندما رآني وقف مترنحاً وصرخ في وجهي :

ـ أي شبح أنت ؟ هل تظنني هاملت ، لتلاحقني وتعذبني ؟ نحن لسنا عشيرة . نحن لم نقتل أباك . ولسنا مطالبين بتبرير مواقفنا ، ولا بالثأر أيضاً . لعلك تعتقد أنك امرؤ القيس ؟

ابتسمت بأدب مبالغ فيه ، وكان الناس والنُدُل يحملقون بنا . قلت انني لا ألاحقه . وانني لم أعرف أن أبي مات غيلة . وسألته بهدوء أن يجلس ، وسألته عن سبب كلامه بالفصحى . فلاذ بالصمت ، وقام رفيق له ، فضغط على كتفيه وهمس في أذنه :

ـ اقعد بلاش فضايح .

قادنا نادل أنيق إلى طاولة ذات شموع . وما كدنا نتخذ مجلسينا حتى تجلى حسن الثاني . لم تره بلقيس ، لكنه تقمصني .

قال وهو يكتم ضحكة :

ـ وجدت المشقة كل المشقة في الاهتداء إلى مكانك هذا . أبحث عنك منذ الأمس . قضيت الليل مؤرقاً مسهداً قلقاً عليك . واستيقنت

أنـك ضقت بغرفتـك ، وأرقت ليلتك فخـرجت هائـماً . وبحثت عنك في كـل ركن وحجر وسـرداب لأسري عنـك ، وأردك إلى مـا ينبغي لـك من قلق إيجابي . لكن القلق السلبي يستهويك فما حيلتي !

قـالت بلقيس انها ترغب في احتسـاء النبيذ . قلت لحسن الشـاني اني قرأت ما قاله في زمن ما ، في مكان ما . فقالت بلقيس ضاحكة :

ــ قـرأت أني أرغب في احتســاء النـبيــذ ؟ . في زمـن آخــر ؟ . هاهاها !

أشعلت سيجارة . ورحت أتأمـل بلقيس في صمت . كانت تحتسي الخمـرة بشراهـة . ترفـع الكأس بيـد قلقة مـرتعشة . يـرتعش الكأس في يـدها . تـأتي عليه بجـرعة واحـدة مغمضـة العينـين . ثم تنحيـه وتتنفس الصعـداء وتفتح عينيهـا . وتبحث يـدهـا عن سيجـارة . تتنـاول واحـدة بحـركات مضـطربة . تشعلهـا بأصـابع عصبيـة . تأخـذ نفساً عميقـاً ثم تنفث الـدخان في الفضـاء . عيناهـا تتجنبان عيني . مـاذا يضطرم داخـل هذا الجسد الباهر ؟

سألتها :

ــ مالك ؟

أشـاحت بوجههـا . ثم سحقت سيجـارتهـا في صحن السجـائـر ، وأشعلت أخرى . قالت دون أن تلتفت :

ــ مش عارفة . مش عارفة أتصالح مع حالي ومـع العالم . أحـاول التصـوف . . مش قـادرة . من لمـا قتـل زوجي عـلى أيـدي رفـاقـه في الغـرب . . لما كـان سفـير . . وأنـا ضـايعــة . بعيش كـوابيس . بعيش بـرعب . أعصـابي تعبـانـة . يمكن أدمنت المشـروب . تصـور رفـاقـه . وتصور . . بتصدق إني أنا كمان كنت عضو في العصبة . هو أقنعني .

وتسكب كأساً بيد مرتعشة . وينتفخ جفناها . تقول دون أن تلتفت :

ـ بفكر أروح أحج .

وتمسك كأسها بيديها حتى لا ترتعش . وترفعها إلى شفتيها . وتأتي عليها بجرعة واحدة . قالت انها تقضي النهار تلعب الورق ، وتسمع الموسيقى الصاخبة . في الليل يستعصي عليها النوم . . فتقرأ الكتب المقدسة . أرتاح قليلاً . . قالت . وأكدت أن كل ما كانت تعتقد أنه يقين عصفت به زوابع الشك والريبة .

عدنا إلى العمارة . ورأينا سليمان يقف على باب كفتيرية اسكندر . افترقنا أنا وبلقيس . وأتى كل منا من زقاق . وتكلفنا لقاء الصدفة . صاح سليمان :

ـ مساء الخير حسنين . تعال .

وكان يحمل زجاجة بيبسي ملغومة . أي ملأى بالويسكي . قال انه يحب الحديث مع مثقفين ، خاصة الأشباح منهم . وضحك . . متجاهلاً أخته . رآها وأشاح كأنه رأى شبحاً . . وتكلم معي . قال انه معجب بأقوال الرئيس الأميركي السابق كنيدي . وراح يردد بعض أقواله الشهيرة .

واعتذر لعدم مقدرته على التعبير عن نفسه بالعربية فراح يحدثني بالانكليزية عن حياة الرؤساء الأمريكان وأقوالهم البليغة . وقال اننا نحتاج إلى مليون سنة لنصبح مثل الأمريكان .

وقال حسن الثاني ساخراً ان حياة الشنفرى أكثر إثارة من حياة كنيدي . فقال سليمان انه يحب أن يسمع عن هذا الرجل . واعتذر عن عدم معرفته به . ودعاني إلى نادي الماريوث حيث الجاكوزي وغرفة البخار والمسبح وقال سنبحث كل هذه المسائل هناك ونحن نتريض ،

والفلبينيات يخدمننا . ثم سوى ربطة عنقه وقال انه سيسهر في فندق الانتركونتيننتال . ودس يديه في جيبي سرواله . ودعاني . فاعتذرت ، تمنيت له سهرة هانئة . ثم انثنيت ومسحت حذائي المغبر بيدي .

* * *

والعتمة توغل في الليل ، والمصابيح الكهربائية تشع وتورق فيها الأضواء شاحبة خريفية . اتخذت مجلسي عند اسكندر ، والذباب يحط على قطع « الجاتو » والحلويات ولا يطرده اسكندر . وأنا أفكر في الأرض التي سأسجلها باسم بلقيس أو ابنها . زوجتي لن تمانع ما دمت شبحاً . فالدولة ودائرة الطابو وتسجيل الأراضي لا تعترف بالأشباح وتوقيع الأشباح .

وجاء النقيب رئيس مخفر الشرطة ، وطلب كوباً من الشاي . وحين وقع بصره علي جحظت عيناه ، وقال مساء الخير . ورحب به اسكندر وبارك له بمنصبه الجديد ، وقال له انه مثال للرجل العصامي ، بدأ شرطياً وصار صاحب مخفر كبير . وقال أحلى كوب شاي للنقيب . وشبك النقيب ساقاً على ساق . وقال لي :

ــ عندي أولاد أشقياء . . أخوفهم بالغول بالجن بالأشباح ولا يخافون . يقولون هذه المخلوقات لا وجود لها . وأكد أنه يريدني أن أذهب معه ليثبت لهم أن الأشباح والجن والعفاريت ذوو وجود حقيقي .

وأنبأني بأنه سعيد لتنفيذي تعليمات الحجر الصحي . قلت ضاحكاً بمرارة :

ــ مش معقول . مرة تعتبرني شبحاً من الجان . ومرة تعتبرني من الإنس .

كان مخفر الشرطة من المؤسسات القليلة التي تعترف بي . ربما

المؤسسة الوحيدة . . بالإضافة إلى المؤسسة العربية الواحدة لمكافحة الأوبئة . فضلاً عن فزاع .

* * *

كنت أقف تحت ضوء الشارع حين ظهر أبو التوت . لم يعرفني للوهلة الأولى . ولما قلت له مساء الخير يا أبو التوت . ضحك بلا أسنان . وتأبط ذراعي ومشى ، فمشيت معه . سألته أين كان . قال انه كان في صحراء السراب ، حيث الصعاليك وشذاذ العرب وذؤبانها . وحين سألته عن موقع هذه الصحراء . أكد لي أنها تقع في بقعة منسية . قلت ان حسن الثاني حدثني عنها . . ولم أصدقه . رفع حاجبيه ، وأبرقت عيناه وقال بلهجة آمرة :

ـــ صدقه .

وعندما سألته عن أحواله ، نظر في البعيد المعتم وهز رأسه وقال :

ـ ما سقطت ورقة التوت الأخيرة بعد .

وقال ان « هؤلاء » يتآمرون علي . قال انهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنني لست شبحاً . لكن يروق لهم ويناسبهم أن يشطبوني من الوجود . لأنني ذكرى مؤلمة . قال : تذكرهم بأبيك .

وقال انه جائع ، فقدته إلى محل شاورما يفتح حتى ساعة متأخرة في الليل . وبعد أن اشتريت الساندويش . قال انه نباتي . ولم يأكل .

ثم اختفى بغتة . وخيل إليَّ أنه تراءى لي . أنني حلمت به حلم يقظة . وهممت بأن أسأل بائع الشاورما . . ثم عدلت .

* * *

سعيت إلى البيت لأقيل . تداعيت على الفراش ، والعرق يتصبب مني . شعشعة الشمس تعتصر مسامي بأصابعها الذهبية المعدنية . . فينز

عصير عرق . حين استيقظت كان البيت مسكوناً بحضور حسن الثاني البدائي المرعب . آهلاً بروائح الدهاليز التحتية الرطبة ، مفعماً بروائح رياح صحراوية أقبلت مع حسن الثاني ، وامتصت في طريقها روائح نباتات وحشية غابرة .

وكان البيت مزدحماً بأصوات ولغات عريقة . رنين حوافر خيل . صهيل يكتسح المسامع ، رعد أساطير منقرضة ، حداء قوافل ، خشخشة ظلال تنزلق خاطفة في زوايا كهوف نائية . حفيف غبار إبل تجتر العصور والأزمنة . أهازيج قبائل موغلة في التوحش ، صرير مخالب العجاج على صخور ملساء كالمرايا . أصداء أصوات فتانة تمزج عواء ذؤبان الكهوف العصية بإيقاعات موسيقى الجاز . . الزنجية .

انزلقت من السرير . أدخلت قدمي في خفيَّ . وسعيت إلى الحمام . غسلت وجهي وأسناني ولم أحلق . ثم أشعلت سيجارة ، ورنوت إلى الشارع من وراء الزجاج . كان اسكندر يغسل الرصيف . انثنى وهو يسكب الماء من الدلو . ثم عاد فانتصب . ثم اختفى في الكفتيرية ، ثم عاد وخرج إلى الرصيف . تلفت حوله كأنما يتفحص الشارع المقفر بحذر . رفع يده وأشار إشارة ذات مغزى لأشخاص يختفون في الكفتيرية . خرج شاب ذو شارب كث ووجه أسمر . ناوله اسكندر سلسلة مفاتيح . كان الشاب يرفل في دشداشة بيضاء .

أخذ الشاب المفاتيح وسعى إلى العمارة . وكان اسكندر يتلفت في حذر . ويدخن بعصبية . ثم التفت إلى الكافتيرية وغمغم . فظهرت امرأة ذات قد واعتدال . تلفتت ، ثم لحقت بالشاب .

وسمعت وقع خطواتهم على درج العمارة . تبعها صوت باب يفتح ثم يوصد . وقف اسكندر يترنح طرباً . فرك يديه ، ثم توارى في الكفتيرية .

دخلت في ملابسي ، وخرجت . ما إن أوصدت الباب خلفي حتى أطلت أم سليمان . دهمني إحساس بغيض بأنها كانت بانتظاري ، تنصب لي كميناً . قالت :

ـــ مرحباً يا حسنين .

ثم سألتني ، بمباشرة أثارت ذهولي ، إن كنت سأتزوج من ابنتها بلقيس . وتلعثمت ، فقالت بامتعاض انها لن توافق على زواج ابنتها من شبح . قالت وهي تضرب بيدها على صدرها ، ان زواج ابنتها من شبح يعني أنها ستموت . وسألتني أين سأعيش مع ابنتها ، إن تزوجنا ، في الجنة أم في النار ؟ قالت انني كنت أحتسي الخمرة عندما كنت شاباً حياً ، وهذا يعني أني من أصحاب جهنم . قالت :

ـــ إبعد عن طريقها يا حسنين . . يا إبني . حرام عليك . بتكفيها مشاكلها .

وكان وجهها محتقناً مظلماً . وحين قلت لها انني سأسجل الأرض باسم ابن بلقيس أشرق وجهها بغتة . وتضوأ دفعة واحدة . وقالت وقد تجلت الحماسة في عينيها فأبرقتا :

ـــ على كلٍ ، الرأي رأيها . ويمكن الزواج من شبح أفضل من كونها مطلقة . انقبض قلبي حين فكرت بمسألة الأرض وحق زوجتي وابنتي بها وإمكانية رفض دوائر الدولة الاعتراف بي . قلت بنبرة مستفزة :

ـــ أنا مش شبح يا أم سليمان . أقول لك هذا للمرة الألف .

وسألتها ـ مستشهداً بقسطنطين زريق ـ كيف يمكننا أن نقلب المجتمع العربي قلباً جذرياً وسريعاً من مجتمع انفعالي توهمي ميثولوجي شعري إلى مجتمع فعلي تحقيقي عقلاني علمي ؟

فبحلقت عينيها ، وقالت :

ـ دستور ، سلامة عقلك . حكي الأشباح لا أفهمه .

ثم سألتني عن الحرب العراقية الإيرانية . وسألت إن كان استمرارها يؤثر على إيجارات الشقق . قالت ان ابنها سليمان أنبأها بأن حرب لبنان واستمرارها ، في مصلحة إيجار الشقق المفروشة . وانه لو كانت البلد تحتوي على نظام خدمات أفضل لتضاعفت الفائدة ، نتيجة هجرة اللبنانيين وشركاتهم إلى هنا . وسألتني إن كان ما يقوله سليمان صحيحاً .

كنت متطامن الرأس كالنائم . وأحدق إلى حذائي . قلت انني لا أفهم بالاقتصاد . فقالت هذا ليس اقتصاداً ، هذا بيزنس . ثم راحت تشكو اسكندر . قالت إذا رأيت ما يثير الريبة في العمارة ، فهذا من فعل اسكندر . قالت انها امرأة محترمة . وترغب في أن تحافظ على سمعة العمارة . لكن اسكندر ! وأكدت أن والد اسكندر سماه اسكندر لأنه كان يعرف أن ابنه سيصبح ذا قرنين .

« مقرن » . قالت : وأنبأتني أنه يلوكها بلسانه . يقول ان هذه العمليات تتم برضاها . أنا يا ابني مرة عجوز بنام مع غروب الشمس . مين بتوقع مني اني أراقب كل واحدة بتفوت أو بتطلع من العمارة .

وهي قالت له انها ستطلع عينيه إذا سمعت أنه يلوك سمعة وشرف الشقق بلسانه . وحين سألتها لماذا تدعه يدير لها شققها . قالت انها لا تستطيع أن تديرها هي : « مرا عجوز وابني مسافر دائماً » . قالت كل هذا ونحن نقف عند باب العمارة . وقالت ان سليمان ابنها قال ان السوق مات . السوق ميت يا حسنين يا إبني .

ولم أقل لها البقية في حياتك . وما كانت هي ترتدي ثوباً أسود . ولم أر جنازتي .

وأخيراً خلّت سبيلي ، فمضيت إلى كافتيرية اسكندر (كانت اليافطة تقول كافيتيرية ، لا كافيتريا) .

إستقبلني بابتسامته المزورة ودعاني إلى الجلوس . وكان يضحك ، رمقته بعين مستطلعة . قال ان مستأجرين شباباً جُدُداً نزلوا أمس في « شقة ثلاثة » . قال انهم خرجوا مساءً ، وعادوا عند منتصف الليل وهم يترنحون من السكر . ووقفوا تحت نافذة أم سليمان وراحوا يغنون :

تك تك تك يا ام سليمان .
تك تك تك زوجك ولهان .
تك تك تك زوجك في البستان .
يركض ورا النسوان .
ويلعب معهن بالرمان .

وانها صرخت من النافذة . وشتمتهم . قالت ان زوجها محترم الله يرحمه .

ولكنها لم تطلب من اسكندر أن يطردهم . لكنها هددتهم بي . قالت انها ستطلق عليهم شبحاً ينغص حياتهم ليل نهار .

قلت بدون اهتمام ان كلمات الأغنية الأصلية مختلفة قليلاً .

ومضيت إلى شركة شعلان دون أن أودع اسكندر . نهض شعلان من وراء مكتبه ، وأخذني بين ذراعيه . أهلاً أهلاً . قال . واعتذر عن ما حدث في المطعم . وقال انه كان سكران قال تفضل ، وأشار إلى كنبة جلدية وثيرة . تفضلت ، وغصت فيها . جلسنا نتبادل النظرات في صمت . ارتبك شعلان ، شبك أصابعه ووضع يديه على المكتب . قال :

ـــ ما بدك وظيفة ؟ بإمكاني أشغلك هون بمعاش محترم .

ثم صمت ، وأخـــرج علبـة سجـــائره بيـــد مـرتعشـــة ، وأشعـل سيجارة . ولم يناولني واحدة . رمقني بنظرة مسترية وقال :

ــ بدك فلوس ؟

تنـاولت علبـة سجـــائري من جيب ستـــرتي . فتحتهـا . أشعلت واحـدة . قلت ان مكتبه أنيق وفخم . أظلم وجهـه . بدا وكـأنـه يغـالب انفجاراً ما مغالبة . قال من بين أسنانه :

ــ شــــو بـــدك طيب . ليش مـــا غيـــرت اسمـــك ووجهـــك حتى اللحظة ؟

شبكت ســـاقـاً عـــلى ساق . ونفثت دخـــان سيجـارتي في فضـــاء الغرفة ، وقلت بصوت محايد انني أريد اعترافاً .

جحظت عيناه . فغر فاه . تساءل :

ــ إعتراف ؟ إيش . . إعتراف بإيش ؟

قلت بهدوء :

ــ بأني موجود .

إتسعت حدقتا عينيه . قال بنبرة استنكار ودهش :

ــ بأنك موجود ؟

قلت انـه يكرر أقـوالي . انتفض عن مقعده الفخم ، لـوح ذراعيـه في الفضاء ، فبدد سحب دخان كانت تحلق فوق رأسه . قال :

ــ أنا شفت جثتك تنزل في القبر بعيني .

أكـدت لـه أنني مـا كنت ميتـاً . ولاحـظت لأول مـرة منـذ عـرفت شعبـان أن حاجبـه الأيمن أعلى من حـاجبه الأيسر . وكـان قلبي مـظلماً . سألني وعيناه تبرقان :

ــ يعني بتتهمنا بأننا حاولنا التخلص منك . . ودفنك وأنت حي ؟

قلت انني أعرف أن وجودي كان يذكرهم بذكرى يجهدون في نسيانها . يذكرهم بالحلم . . وبعجزهم .

قال :

ـ يا عمي أي حلم . إنت شخص حالم . . مش واقعي . أي حلم وأي بطيخ ؟ انت لسه عايش في الماضي . نصحتك بتغيير . . .

قاطعته قائلاً انني لن أزوور اسمي ، ولن أزيف وجهي .

صاح مغضباً وقد نفد صبره :

ـ إذن إتحمل أنت النتائج . كنت بدي إياك تمنح نفسك فرصة جديدة !

ـ لكن أنا مش ولد . والماضي مش جاكيت بخلعه لما بدي ويلبسه لما بدي . بعدين . . بالاضافة لهذا . . أنا حاسس إنكم عم تخلطوا بيني وبين والدي .

تداعى على مقعده ، وأخذ رأسه بين يديه . أطرق طويلاً ، ثم رفع وجهاً متعباً وقال :

ـ إيش بدك بالضبط ؟

قلت اني أريد العودة إلى العصبة . أطلق ضحكة هستيرية وتساءل كيف ينضم شبح إلى العصبة . ووقف وراح يذرع الغرفة . ثم توقف وسأل :

ـ يعني بدك تروح تحج والناس راجعة ؟ أنا فاهمك . . انت حاسس بالحاجة للانتهاء إلى عصبية .

وقال انه ترك العصبة منذ زمن طويل ، وتفرغ لعائلته ومصالحه . سألته لماذا ترك العصبة . قال انه بات يملك مليون دينارٍ . . ثم إن العصبة تشظت وكادت تضمحل . « الناس زهقت من خلافاتنا » قال .

صار شعار الناس : « يصطفلوا » . وأكد أنه لا يعاني من مشكلة الانتماء . فقد حلت العصبية العشائرية محل عصبية العصبة . وهكذا ـ ادعى ـ أنه لم يتغير عليه شيء .

خرجت من الشركة دون أن أودع شعلان . وأدركت أن عاصفة التغيير لم تبق شيئاً على حاله . وعدت مشياً إلى الحارة .

وجدت فزاع بانتظاري عند اسكندر . قال فزاع ان وحدة عصبتهم تكاد تنجز . فحدثتني نفسي بأنه يكابر . هذا زمن التشظي والتفتت . وفزاع يحلم بإنجاز المستحيل ، كالسابح ضد تيار طاغ لا يبقي ولا يذر .

وفي ركن الكفتيرية رأيت علاء الدين يجلس وحيداً إلى زجاجة البيبسي الملغومة . تناولتها واحتسيت جرعة . واكتشفت أن كمية الويسكي ثلاثة أضعاف كمية البيبسي . كان مهدماً . قال كطفل يتشكى ان الشركة أبرقت له وأخبرته أنهم اضطروا إلى الاستغناء عن خدماته . وقالوا أن المسألة ليست شخصية . فهم يستغنون عن العشرات . وحسدني قائلاً أن الأشباح ليسوا بحاجة إلى لقمة عيش . ثم سألني إن كنت مستعداً لشراء بيته . قال :

ـ صحيح أنه نصف بيت . . لكن الأشباح تفضل بقايا البيوت على بيوت كاملة . ضحكت بمرارة وسألته من أدراه بأمزجة الأشباح .

* * *

قال فزاع انه بحاجة ماسة إلى امرأة . قال تصور أن تقرأ هيجل وفيورباخ وتحلق في فضاءات الفلسفة ، ثم تقوم إلى المرحاض ، لتمارس العادة الجهنمية ، أي كبت ؟ تصور !

وتصورت .

وقـال وهو ينقـر بأصـابعـه عـلى الـطاولـة ، ان الأزمـة ليست أزمـة امرأة ، بقدر ما هي أزمة مكان . ثم استدرك قائلاً انـه حين تتـوافر المـرأة لا يتوافر المكان . وحين يتوافر المكـان لا تتوافـر المرأة . وإذا تـوافر المكـان والمرأة . . لا تتوافر الرغبة .

ونقر بأصـابعه عـلى الطاولـة بعصبية . وقـال ان انتخابـات الجمعية بـاتت وشيكة . وان تحـالف جمـاعـة التقـدم والسـلام وجمـاعـة الـوطنيـين الديموقراطيين يبدو أشبه بالمستحيل . وانـه يخشى قائمـة ثالثـة تستغل هـذا التناقض .

وتجشأ علاء الدين . وشكى حظه العاثر .

خـرجـت لأتنـشق الهـواء ، فـإذا بي أرى زوجـتي الأرملة مـقبـلة بخطوات عصبية ووجه متشنج . قلت أهـلاً . قالت لا أهـلاً ولا سهلاً ، صحيح أنك بدك تتزوج ؟ ارتبكت ، لكنني تماسكت وقلت ساخراً :

ــ وهل يتزوج شبح ؟

قالت :

ــ ما في شيء عليك غريب . بتعملها .

وسـألت إن كنت سأسجـل قطعـة الأرض المجاورة للجـامعة بـاسم ابن بلقيس . قـالت انها سمعت بذلـك . لم أنف ولم أؤكـد . قـالت وهي تـرتجف غضبـاً أنني حـر في الـزواج من بلقيس . علماً بـأن الشـرع يمنـع الـزواج مـن الجن . لـكنـني لسـت حـراً في تسـجيـل الأرض بـاسـم ابن بلقيس . قالت ابنتي مريضة ومتخلفة وأحق بقطعة الأرض .

وكـانت الدمـوع تجول في عينيهـا . وتنهـدت . ثم فتحت حقيبتهـا وتناولت منديلاً . مسحت عينيها ثم أنفها . قالت :

ــ بلاش فضايح في الشارع . تعال إلى شقتي نتفاهم .

ومضيت معها إلى الشقة . أوقفنا سيارة أجرة ومضينا . لكننا لم نتفاهم . قالت انها تعتقد أن المسألة مسألة رغبة جسدية . قالت إذا كانت المسألة مسألة رغبة جسدية . تعال . وكانت متجهمة وتبكي . تعرت ودخلت في الفراش ، هي ودموعها . ولما اقتربت منها ، استيقظت ابنتي . وبدأت تطلق أصواتاً أشبه بالعواء ، ثم اندست إلى جانب أمها في الفراش . وقالت :

ــ آامبو . . .

غادرت الشقة مكتئباً . عدت إلى كفتيرية اسكندر . كانت خالية إلا من علاء الدين وزجاجة البيبسي الملغومة . جلست إلى طاولته ، وشاركته زجاجته . وهبط ليل موحش .

* * *

زوجتي الأرملة تمشي لاهثة وتلتفت . وأنا في ظلها . أقول يا حرمي المصون ، أنا لست شبحاً ، وأنت لست أرملة . أنا أريد أن أعود إلى بيتي .

وهي : بسم الله الرحمن الرحيم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . أنت شبح ، شبح ، شبح . شبح يطلع من أسرار هذا الليل . وكان النهار قد تفتت مثل كل ما يحيط بي . بل مثل حياتي ـ إن كنت حياً ـ والمساء تداعى كما يتداعى سكير يتعثر فلا يقوم . بل كما يتداعى كياني تحت وطأة أحلامه وكوابيسه .

تقول : أنت شبح يسكنني منذ سنوات . وأنا حبيسة قمقم البيت . الناس يحكون ، أقول لنفسي إذا هممت بالخروج ومغادرة البيت وجدرانه . أمك ـ رحمها الله ـ تقول : « الله الله تفكرين في حضور عرس ابن خالتك ! وماذا يقول الناس : « غاب القط إلعب يا فأر » . وأنا لا أدري ، أدخل في ملابس الحداد أم أنتظر معجزة . وأنت

راقـد . . ذاهب في غيبوبـة مبهمة . لا أنت حي فـأحيا معـك ، ولا أنت ميت . . فـأبكيك . . لا معلقـة ولا مطلقـة . ما عـدت أعـرف من أنـا ! وأمـك تقول : « إذهبي لـدور العـزاء إن كنت تشعـرين بـالسـأم . هـذا مقبــول . زوري مـريضــة في مستشفى . . هـذا مقبــول . أمـا أفــراح وأعراس . . يا لطيف » .

لم أتــرك بيت عــزاء إلا وألممت بــه . كـنت أشعــر بــالملل مـن الاعتكاف في البيت . أرملة بثياب عروس . أرملة بلا جثـة زوج . أرملة زوجها ليس حياً . . لكنه ليس ميتاً . أرملة بلا جنازة . امـرأة ذات طفلة معــوقـة ، ذات زوج غــامض لا هـو هنــا ، ولا هـو هنــاك ، ولا هــو هنالك . لا هو حي ، ولا هو ميت .

وانسكبت دموعها حارة سخينة . لم تكفكفها . نترت كتفهـا وقالت انها تريد أن تذهب الآن لتتسوق من السوبر ماركت .

السـوبر مـاركت . حـل عني . أريـد أن أشتـري خبـزاً وبيـرسيـل للغسيل ، وكورنفليكس لابنتك ، وبامبرز . نعم هي ابنتك . تعملهـا في الليل . تخاف العتمـة وتلتصق بصدري وتقـول آمبو وتمص أصبعهـا وهي في سن الـرشـد صـماء لا تسمـع . تعيش في عـالم صـامت . وتعجـز عن التواصل . خليفتك على الأرض .

لكن الـوحي يهبط عليهـا أحيـانـاً فتحكي ، مـا شـاء الله عليهـا ، حكـياً ودرراً . تقـول انها ضـد البيت ورب البيت . انها تكـرهـك لأنـك تركتنا .

أعتـرض طريق أرملتي أقـول : « لست شبحـاً يـا ابنـة الحـلال » . لكنهـا تهز كتفيهـا وتقلب شفتها السفـلى وتقول انها عـزفت عن استحضار الأرواح . واني شبـح يسكن بالهـا والمدينـة . المدينـة مسكونـة . تقول . البيت مسكـون تقول . لم أخلص منـك وأنت حي ولا أخلص منك وأنت

ميت . أنت طيف في مخيلتي المسكونة بالأصوات . وتلهث ، خطاها تتسارع ودقات قلبها . وأنا أتركها وشأنها . أقول لنفسي لعلي مجرد شبح مر ببال هذه المرأة مجللاً بكابوس أسود . ولعلي أحلم أنا بها . لعل كل ما يحدث لي ليس سوى حلم عابر ثقيل . وتلتفت للتأكد من أني لا أقتفي لها أثراً . ويسقط نور مصباح الشارع عليها كما جثة قتيل شاحب ، ووجهها حنطي وشعرها أسود وعيناها سوداوان . وتركض وينط شعرها .

قال فزاع انها تزوجتني أيام النضال . كانت معجبة بصلابتي . وقال فزاع انها كادت مرة أن تنفصل عني ، حين فكرت بالاستقالة من العصبة . قالت انها تزوجت مناضلاً . ماذا ستصبح إذن سمسار عقارات ؟وها هي تعيش من إيجارات الشقق . حصتها من شقق أم سليمان . عسر الحياة ، قال فزاع . وقال يستنبط لها الأعذار :

ـ ناهضت كل الصعوبات وحيدة .

أسقط في وحشة الليل . أغرق . لا ينقذني أحد . . سوى حسن الثاني الذي طلع من شرنقة الظلام والزمن الأبدي مثل كائن أسطوري ملغز .

وخرجت زوجتي من السوبر ماركت . قلت هاتي أحمل هذه الأكياس عنك . أعوضك ما فات . سقطت الأكياس من يدها . وأطلقت صيحة خافتة . ثم راحت ركبتاها تصطكان . بعد ذلك كله اقشعر بدنها . بسملت ثم انحنت لتلتقط الأكياس ، وانثنى شعرها ثم سقط على جانبي وجهها . وبدا وجهها من هذه الزاوية جميلاً . وانحنيت أساعدها . فقالت لنفسها :

ـ إنه مجرد شبح لا يخيف . إنه مجرد شبح لا يخيف . إنه مجرد شبح لا يخيف .

وأكدت لنفسها أنها رأت جثماني يوارى ثم جاء رجل يحمل آخر . والآخر داخل في غيبوبة . وقال ان هذا الجسد جسدي . ولم تتعرف هي على وجهي . قالت ان طلقات كاتم الصوت شوهتني إلى حد كبير . فاستحالت عليها معرفته . أما الجسد . . . فهي لم تره في حياتها . كنت تتأبى خلع الثياب أمامي . وأنا كنت أفضل الاقتراب منك والحجرة مظلمة . لا أعرف جسدك . كنت تقدمياً متخلفاً . . وربما مزيفاً . وكنا نقف حول جسدك المسجى . لا أنت ميت ، ولا أنت حي . الطبيب قال انها حالة « كوما » . . غيبوبة ، نتيجة للرصاص الذي انفجر في الدماغ . وجاء رجل من إحدى السفارات ، وقال ان الاستعمار والعملاء هم . . . وفزاع قال لا .

زعقت في منتصف الشارع بأن أحداً لم يطلق على رصاصة . وأن حسن الثاني حنطني ليختفي ويتوارى . لكن أحداً لم يسمع . الشارع مقفر . . وزوجتي اختفت . . كأنها حلم شرد بعد يقظة .

* * *

قال علاء الدين انه لم ير شبحاً من قبل . وقال للجالسين :

ــ كلكم شايفينه والاّ أنا بس ؟

وجاء اسكندر . وقلت له بملل :

ــ أهلاً .

ولم يرد . رمق علاء الدين بنظرة قلقة حائرة . كأنه يخشى إن رد لي التحية ، أن يظن علاء الدين بعقله الظنون . أخذني علاء الدين من ذراعي ، وانتحى بي ركناً وقال :

ــ إسمع . . شو رأيك تروح على أمانة العاصمة . . أنت شبح يعني وما حدا رح يشوفك لما بتدخل . وبتشوف لي وين في مخططات أوتوسترادات ومواقع تجارية . وين المواقع اللي رح تصير تجارية يعني .

وعلى النُص . عندي صاحب معاه كاش . . دفِّيع .

كان الجميع يعتبرني كنزاً لا يفنى . . ما خلا أولئك الذين يعترفون بوجودي وانني بني آدم ، ولست شبحاً .

وتركتهم وعدت إلى البيت . وكان صاحب البيت بانتظاري . يدخن سيجارة ، ويداه في جيبيه ، وكرشه أمامه . وقال :

ــ وبعدين . . ما رح تشوف لنا حل ؟

نصحته أن يذهب ويرفع عليَّ دعوى في المحاكم . دعوى ضد شبح . قال انه لن يصبح أضحوكة أمام الناس . وقال وهو يلوح بإصبعه انه سيثبت أني نصاب أتقمص شخصية شبح . أنني موجود . ثم أرسل زفيراً قوياً وأختفى .

ودخلت إلى قبوي . وسعيت إلى صنبور المياه ، فغسلت رأسي . ثم تناولت قرصين من الأسبرين . وقرأت في صحيفة الأمس عن مقتل ستين شخصاً في بيروت بمناسبة استقلال لبنان . والصحيفة سمت هذه الحرب حرب « الأعلام » . وسعيت إلى الصالة . خلعت حذائي ولاحظت أنه مغبر . وسمعت رنين الجرس . قلت بلقيس . وفتحت الباب . وكان علاء الدين ، وقال أنه ضجر . عدت إلى مقعدي أمسح حذائي . وراح يذرع الصالة ويده اليمنى في جيبه . وقال :

ــ لماذا لا نعيد تنظيم العصبة ؟ يعني الجماعة اللي ظل فيهم نَفَس ؟ ليش ما نبدأ من الصفر ؟

وقمت إلى دولاب أفتش عن علبة طلاء الحذاء . وقال علاء الدين ان عودتي فرصة تاريخية ، لأن إسمي يستقطب الناس والأوفياء . وفتشت الدولاب شبراً شبراً عن طلاء الأحذية وكنت ألهث . وسألني لماذا لا نبدأ بتشكيل تيار أو تجمع شرعي دستوري .

ووجدت الطلاء ، وعدت إلى مجلسي . وظل هو يذرع الغرفة ويقول :

ـ لازم نعمل شي . . لازم نعمل شيء .

وقمت وأحضرت الجريدة وفرشتها تحت الحذاء حتى لا يسيل الطلاء على البلاط . قال علاء الدين :

ـ عندك ويسكي ؟

قمت وأحضرت له علبة بيرة ساخنة ، فلم يأخذها . واتجه نحو الباب .

قال :

ـ خاطرك .

قلت اننا لسنا بحاجة إلى دكاكين صغيرة أخرى . قلت :

ـ إن كنت زهقان إفتح دكان همبرغر . . مش دكان سياسة . مش ناقصنا دكاكين .

التفت قبل أن يوصد الباب وراءه . قال :

ـ بدي إياك تحكي كلمتين مع ابني . الولد متهور . . ومتحمس . . وحامل السلم بالعرض . بدي اياك تحكي له عن تجربتك المرة . يمكن يحط عقله براسه .

واكتشفت أن أنبوبة الطلاء جافة . فقذفت بها نحو الجدار . فلطخته ببقعة سوداء كبيرة . صحت وركض صوتي وراء علاء الدين :

ـ معك تدايني عشر دنانير ؟

تكلف الصمم وأغلق الباب . . واختفى .

ورن الجرس مرة أخرى . وأطل فزاع . وقال ان بلقيس متأثرة

بالموجة . قال موجة وتنحسر . وسألته إن كان مؤمناً بحتمية الانتصار . تردد ، دار حول نفسه ، ثم قال ان أحفاده سوف يرون النصر والعدالة . قلت له :

ــ لكنك مش متزوج . لا ولد ولا حفيد ولا من يحزنون .
وكنت أغبطه ، وتناول الصحيفة وقرأ الخبر التالي بصوت مرتفع :

« وأد ابنته لكنها أُخرجت من القبر بعد أربعة أيام !! » .
ثم راح يقرأ التفاصيل ، ولم أنتبه إليها كلها . وسمعت :

ــ وذكر في الجزائر أن الطفلة النيروبية ذكرت بعد أن أخرجت من القبر وهي على قيد الحياة أنها لا تتذكر شيئاً بين اللحظة التي تلقت فيها ضربتين على رأسها من أبيها ، ولحظة يقظتها في المستشفى . . . وكان الأب قد روى بعد أن وأد ابنته أنها اختفت خوفاً من العقاب ، لأنها أخطأت فتركت عنزة تتنزه في الحديقة » . ثم قرأ خبراً آخر في صحيفة أخرى بعنوان : « خرجت بعد دفنها بأربعة أيام »(*) .

وأعددت القهوة . فوضع الصحيفة جانباً . وراح يحتسي قهوته متأنياً . ثم قام وخرج . ورن جرس التلفون .

رفعت السماعة . وقلت :
ــ آلو .
قال صوت امرأة ناعم .
ــ آلو . . حسنين باشا الحكيم .
قلت :
ــ لأ . . أنا حفيده حسنين الحكيم .
فقالت :

(*) صحيفة صوت الشعب ـ الجمعة ٤ كانون الثاني ١٩٨٥ .

ـ كله واحد . هو أو حفيده . دليل التلفون لا يوضح الفرق .

فأكدت لها أن كله ليس واحداً . وأن الفارق بين الحفيد والجد كبير .

فقالت :

ـ الظاهر أنك جدي أكتر من اللزوم . مش هيك .

وضعت السماعة جانباً . وغادرت الشقة . وقصدت كافيتيرية اسكندر . ورأيت رجلاً أنيقاً يجلس إلى طاولة ويحتسي قهوة . قال اسكندر :

ـ الأخ حسنين الحكيم . . الأستاذ . . . .

فسأل الأستاذ مندهشاً :

ـ الدكتور الحكيم ؟

قلت :

ـ لأ . . ابنه .

انتفض واقفاً . وحمد الله ثم غادر الكافيتيرية دون أن يدفع .

ثم عاد ومعه مصور . فوقف إلى جانبي وهو يبتسم ببلاهة ، ورف جفناه غبطة وتيهاً ورضى . وقال للمصور آمراً :

ـ صور .

فصور .

ومرت جنازة لها أول وليس لها آخر . طابور طويل لا ينتهي من السيارات ، تتقدمهم السيارة التي تحمل النعش وتطلق آيات قرآنية . وسارع اسكندر بالخروج ، وفتح كفيه وقرأ الفاتحة .

وقلت لي ان أحداً لن يخرج في جنازتي . ورمقت طابور السيارات السائرة ببطء وقلت لي لا شك في أن الميت ذو عزوة . . عصبية كبيرة أعني .

وقال حسن الثاني بصوتي إنني مقطوع من شجرة . . حياً أو ميتاً .

ودخل اسكندر بعد أن قرأ الفاتحة . وقال ان صفحة النعي امتلأت ببرقيات التعازي حين توفي حسنين الحكيم . وقال وهو يتفحصني بنظرة مستريبة انه رأى جنازة كبرى لرجل قضى نصف عمره الأخير في الإقامة الجبرية . وكان الناس ممنوعين من زياراته أو رؤيته . فعاش في عزلة تامة . وحين تحرر ومات ، خرج الناس بالألوف في جنازته . توهج في عينيه بريق متقد . وقال :

ــ لسه الناس فيها خير . وإلا إيش رأيك ؟

ثم غاب وراء الستارة . واتصل بالتلفون وقال :

ــ تعالي على طول .

ثم عاد وقال انه يريد أن ينجب عشرة أبناء ذكور حتى يقفوا له في جنازته .

خرجت من محل اسكندر . وكان رأسي مليئاً بالأسئلة . وساءلت نفسي كيف مات حسنين الكبير يا ترى ؟ فقال حسن الثاني انه لم يمت ، وانه يتخفى في سرداب تحت التراب .

وعدت إلى شقتي فوجدتها باردة . وعرفت فيما بعد أن صاحبها قطع عني التدفئة ، ليهججني .

* * *

الحكيم يتنفس بانتظام ، ويصغي بعينيه . لكنه يذرع الغرفة بخطى مضطربة . يذرعها كاللهاث . كالشهيق والزفير . . جيئة وذهاباً .

يا حكيم يا مخلص ، لماذا تذرع الغرفة كالشهيق والزفير ؟ تصور يا حكيم أن معارفي جميعاً بدأوا يعتادون على اعتباري شبحاً . فإذا اختليت

بـواحد منهم ، لم يمـانع في مخـاطبتي بهدوء . زوجتي ورفـاقي مثل شعـلان وغيره . . أم سليمان ، اسكنـدر البقال ، الجيـران . جميعهم تعودوا عـلى (شبحيتي) . . حتى أنا تصالحت معهـا ، فبدأت أتعلم لعب الـطرنيب ، وأوفر مبلغاً لشراء فيديو وثلاجة « وهد فونز » . . .

شعلان قال انني أذكره بأحمد سعيد . قـال انني أحكي كلامـاً شبيهاً بمـا كان يقـال في الخمسينات . وحـين أنبأتـه بأن لا بـديـل عن الثـورة . أطلق ضحكة مجلجلة وعلق كأنه يكلم نفسه :

ــ شبح ! يا أخي نحن هكذا سعداء ، هل جئت لتنكد علينا ؟

وحـين قلت لزوجتي انني أفكـر بإقـامة عصبـة للصعـاليـك وشـذاذ العرب وذؤبانهم ، لـوت شفتيها وهـزت كتفيها وقـالت كأنمـا تفسر مصدر كلامي :

ــ شبح .

بـــدأت أشعـر أن الجميـــع يـرغبـــون في أن أكـون شبحـــاً . كأن اعتـرافهم بوجـودي الفعلي وحضـوري الواقعي يسبب لهم حـرجاً مؤلماً . كأن وجودي الملموس بالنسبة لهم أشبه بذكرى مؤلمـة ، يفضل الجميـع أن تتوارى في عتمة دهاليز أعماقه السحيقة المنسية .

ماذا يا حكيم ؟ تـريدني أن أحكي لـك عن طفولتي ؟ مـاذا أقول ؟ كـان لي أسرة وعصبـة وكان أبي شيـخ العصبـة . والنـاس قلوبهم متعلقـة به ، وأنظارهم شاخصة إليـه . ثم نمت يا حكيم ، واستيقـظت ، فإذا أنـا عـارٍ بلا أسـرة ولا عشيـرة ولا عصبـة ولا امـرأة . أبي اختفى وأمي قضت همـاً وغماً وأبـو التـوت سقط . كـان آخـر ورقـة تـوت تغـطي عـورة هـذا العـالم . سقط ، فلم يبق سـوى عـري العـراء . وأنـا لا أحـد يعتـرف بـوجودي . لست سـوى شبـح يـوقظ عـاصف الـذكـريـات لـدى زوجتي والعصبة والمعارف كأن خروجي على الناس ، بعـد غياب أراحهم ، بـات

أشبه بغارة من غارات الأقدار ، أو غزوة من غزوات القلق .

كلما ألم حسن الأول بشعلان يا دكتور يا حكيم ، سارع هذا إلى تناول قرص من الفاليوم .

حتى ان العصبة قامت بخلعي من صفوفها ، كأنما لتثبت للعالم حسن نواياها . قالوا شبح أو دم ولحم . . إنا منه بريئون . فشطروني عنهم . وتركتهم مراغماً أو مخالفاً لا أدري . وبت صعلوكاً من شذاذ العرب وذؤبانها . وأصبحت لا أساوي عند قومي عنزاً جرباء جذماء . قالوا إنا تبرأنا من صاحبنا ومما قد يجر علينا . وبعثوا منادياً ليبلغ الناس قائلاً : « لا نحتمل جريرة له ، ولا نطالب بجريرة يجرها أحد عليه » .

وهكذا نبذتني العصبة من حماها . ولكن كيف تخلع العصبة شبحاً ؟

أبشع ما في محنتي يا دكتور . . غموضها . أنا لا أفهم السبب يا دكتور . لا أفهم .

وشعلان ـ بات وكيل عشر وكالات ـ يحكي في الاجتماعات لغة لا أفهمها يا دكتور .

وأكد لي حسن الثاني أن القدر قلدني جسيماً من أمره .

وهكذا بت يا حكيم ، مقطوعاً من شجرة ، وابناً للشوارع .

والحكيم يتنفس بانتظام ويصغي بعينيه . لم يسألني أن أضطجع على سرير الاعتراف . لكنه أشار إلي بالجلوس على أريكة مريحة ، ثم اتخذ مجلسه إلى جانبي مباشرة . مما أزعجني . الأريكة لا تتسع إلا لشخص واحد ونصف الشخص . ما عاد بوسعي أن ألتفت إليه ـ لو التفت إليه لارتطم أنفي الغليظ بوجهه . أكاد أسمع أنفاسه المنتظمة تمس خدي . . فأشيح وأمضي في اعترافاتي معرضاً . إنني لا أرى

الحكيم . لكن عينيه تبتلعانني .

قلت إن حسن الآخر هذا رجل بغيض . تصور يا حكيم أن ابن خطيبتي بلقيس توقف عن اللحاق بنا كظلنا . ابن خطيبتي بلقيس كان يشاركنا جلساتنا في المقاهي الراقية ، والمطاعم الفخمة . وكان يصر على أن يتخذ مجلسه بيني وبينها حين أدعوها إلى السينما . ثم تركنا وانسل هاجسه بعد أن دنا موعد عقد القران . لعله وثق بي . لكن حسن الثاني لا يفارقنا أبداً .

أصمت ولا ألتفت إلى الحكيم . أنتظر تعليقاً ، سؤالاً . لكنه يمسك لسانه في فمه ، ويصغي كالنائم . لماذا تشبه عيادتك كهفاً أيها الحكيم ؟

لكن الحكيم يصمت بصوت مرتفع . كأنه يشخر بصوت مرتفع . وهو لا يشخر . يصمت . . وما به بكم . قلت :

ـ تصور يا حكيم . . يا مخلص ، انني أجلس إلى بلقيس أحدثها عن اكتشافي المتأخر للمادية والعلمانية . وعن ضرورة انتقال مجتمعنا إلى العصر التكنو ـ إلكتروني . فإذا بحسن الثاني يقول لها بصوت ينطلق من حنجرتي ان اَمْرَأَ القيس أعظم من ديلن توماس . لا . . ولا يكتفي بذلك . . بل يطلق « الآخ » نفسه على سجيتها ، فإذا به يغني أغنية قديمة غبراء لأم كلثوم . فتملأ ضحكة بلقيس الفضاء . انها تميل إليه . أنا أعرف ذلك . لكنها لا تراه . بل تراه وتحسبه أنا . وتسمعه فيخيل إليها أنني من يغني . علماً بأنني شخص رصين لا يغني . ثم إن أم كلثوم هي أفيون الشعوب . صحيح أنني أشبه ما أكون بشخص في شخصين أو العكس ، لكن ، أنا حسن الأول . . لا أغني . أفضل سماع باخ . تصور يا حكيم يا مخلص أنه يتحدث الفصحى . يحكي لها عن امرىء القيس ، ويتغزل بزنوبياء ، ويبشر بخروج صاحب العلامة والإشارة .

كـل ذلـك بفصيحـــة مقعـرة لا أكـــاد أفهمهـا ، ولا تكـــاد هي أن تتبـين مفرداتها .

والصمت يعلو . . صمت الحكيم . أجـازف وألتفت إليـه . أكـــاد أقسم أنه نائم بالرغم من عينيـه المفتوحتـين الواسعتـين . انه يحلم ، يحلم بي . . وبحسن الثاني .

جئتـــك مستجيـــراً يـــا حكيم . لعلك تخلصني من فصـــامي . من حسن الثاني . هل أنت نائم ؟ لماذا تلوذ بهذا الكهف ـ العيادة ؟

صمته يعلو .

هل تحب « باخ » يا دكتور ؟ يضع الحكيم اسطوانـة لباخ ويعـود الى مجلسه . لكن أصوات باعة الخضروات ، والكاز ، والكعـك ، والبليلة ، والفستق ، والاسكيمـو ، وشعر البنـات . . . وشتـائم سـواقي السـرفيس تضج في الشارع يا حكيم ، وتقتحم عليك جدران كهفك يا حكيم .

تصـــور ، يـا حكيم يـــا مخلص ، إنني أجلس مستـرخيـــاً في البيت القـديم المهجـور لأشـاهـد مسلسـل « دالاس » . طبعـاً تعـرف مسلسـل دالاس الذي يصور حياة عائلة رأسمالية بشعـة . أجلس مرتخياً وأشاهـد المسلسل . فإذا بحسن الثـاني يطل من شـاشة التلفـزيون ، يحمـل وجهي وصـوتي . وإذا بـه فارساً يعلـو صهـوة جـواد يضـرب بقوائمه رمـال السـراب . ويشحـذ سيفـه عـلى بـرق سـماء الهجـير . يغـزو قـــافلة من الشاحنات المحملة بأحدث الأجهزة التكنو ـ إلكترونية . فينهبها، ويتلعب بسواقي الشاحنـات ، يتخطفهم كـذئب من ذؤبان العـرب. . . ثم يستـاق هذه الأجهزة كما يستاق الصعلوك الإبل إلى مضارب خفية .

قـال ماذا ؟ قـال انه ضـد نقل التكنـولوجيـا بهذا الشكـل المشـوه . أقـول لنفسي ، لعل الجن تسكن هـذا التلفـزيـون وتغـير قنـالاتـه . لكني سرعان ما أذكر نفسي بعلمانيتي، فأطرد هذا الخاطـر وأعزو هـذه الأحجية

إلى ريح تهب على الهوائي ، فتعبث به وتغير القنال . . . بلا جدوى .

تصور ، يا حكيم يا مخلص . . انه حل محلي حين مارست الحب مع بلقيس لأول مرة . كان شعرها باهراً والليل حالكاً . واضطجعنا على الفراش بعد أن وعدتها بأن لا أتطرق إلى المادية والعلمانية وأثر الثورة التكنولوجية الثانية على العالم الثالث تلك الليلة . وخلعت ملابسي كلها . وخلعت ساعة يدي . أعترف أنني أعجز عن ممارسة الحب وساعة يدي تتكتك حول معصمي .

أنا ، حسن الأول ، أضمها بشغف وحب . وهو ، حسن الثاني ، يهمس في أذني :

ــ ما بلقيس خطيئتك هذه سوى مومس غير فاضلة . وإلا فكيف تمارس معك الحب قبل الزواج ؟

لكنني أشحت وأعرضت . وأغرت على مضارب جسدها الفردوسي معرضاً عن وسوسته . ورحت أنهب كنوز هذا الحضور الباهر . وأستاق الشهوة الجهنمية ، وأغزو قوافل اللذة الظاعنة في متاهات وشعاب صدرها وعنقها . أغنم مفاتنها ، وأتلعب بالشهوة البكر في قناديلها النائمة . فأضرم بها نيران النشوة . . وهي تتأوه ، ثم تصرخ أو تئن . وأنا أحسب أنه أنين نشوة من بات على قاب قوسين أو أدنى من ذروة الرعشة العارمة . في تلك اللحظة بالذات . . وحين بتنا جواداً واحداً يطارد بإيقاع متناغم منسجم متساوق ـ هكذا خيل إلي ـ صوب ذروة تلك الرعشة الجهنمية . . . فتح حسن الثاني النافذة ، فإذا بصوت عبد الباسط يندفع إلى الداخل كموجة ضاربة ـ لا أدري من أين انطلق . . من المئذنة أم من مذياع الجيران . فإذا بترتيله يدفع جسدي في لحظة ما قبل الرعشة الجهنمية من الذروة إلى الحضيض . وإذا بتجويده يشدني بقوة الحرام الجبارة ليطوح بي نحو انكماش الإثم . وإذا

بقواي تتخاذل . . وجسدي يكبو . . وأنا أصيح كالمستغيث اليائس . . يا عبد الباسط . . ليس هذا وقته يا عبد الباسط . يا عبد الصمد . . يا هوه . . يا . . ولكن بلا جدوى . فتجويده يغزوني بفرسان الإثم ، وسنابك الحرام ، ينهب قواي بقبضة الخطيئة .

عندما استسلمت للخذلان تماماً ، التفت إلى بلقيس بعينين معتذرتين . كانت مجللة بالإحباط والخيبة . . وتدخل في ثيابها لترحل مسرعة .

وصمت الحكيم يعلو .

التفت إليه فإذا به يحمل وجهي . ويحلم بي . وخيل إلي ، لروعي ، انني ما كنت سوى طيف يمر بمنام الحكيم أو بحلم يقظته . أو شبح يلم بمنام أهالي الكهوف .

كان الحكيم يرتعش . . جللته بمعطفي ولم أقل له . . أيها الحكيم أيها المخلص يا حسن الثاني : انهض . ولم أقل له وداعاً وأنا أغادر الكهف العيادة إلى الشارع ، لأجد حسن الثاني بانتظاري على الرصيف الآخر . يحمل عباءة ليدثرني بها . ويضحك ، يضحك ضحكة شيطانية اهتزت لها كثبان عمارات وبيوت الحي السرابية .

* * *

ليلة أخرى

هبط الليل بمعطفه الثقيل الأسود . وراح يجرجر خطواته المظلمة في أنحاء المدينة . يلتصق بوجهه المعتم على الشبابيك . . يبصبص . ويتقدم الليل مهمهماً ، فتنطفىء الأنوار التي اشتعلت في النوافذ حين هبط . كأنها تعلن عن إحباط غامض أو خيبة مبهمة . كأنما ندمت لاحتفالها الأول بمجيئه .

ويـدأت البنـايـات والشـوارع تحلم . وأراح النـاس رؤوسهم عـلى الوسائـد وجعلوا يحلمون . والليـل يوزع الكـوابيس مثل « بـابا نـويل » ! ويمـلأ الرؤوس بـالأحلام . يفتـح مزاليـج أبواب الـلاشعـور المـوصـدة ، ويـطلق سراح الصـور المحرمـة ، واللغات البـائدة ، والـرمـوز المنسيـة ، والوجوه المقنعة ، والطقوس الملتبسة . ومن بال كل حـالم خرجت مـواكب المحرمات ، وتسللت أشباح مكروهة .

انبثقت الممنـوعـات من القمقم . نقـوش عـلى كهف قـديم تتخـذ هيئـة أصداء بعيـدة . أطيـاف من سبـأ دلفت إلى فنـادق الـدرجـة الأولى ذات النجـوم الخمس . مفردات منسيـة تقمصت مفردات حيـة . أصـداء منسية تنطلق من أعماق مظلمة سحيقة وتتحول إلى أصوات واضحة .

الكل خرج من قبعة الحاوي الملعونة .

المـوتى وضعـوا أقنعـة كـائنـات حيـة وراحـوا يجـوبـون سراديب الأحـلام ، ويصخبـون . كـأنمـا أغشيت وجـوههم أقنعـة من الـظلمـة ملتبسة .

خـرج المعقول من الـلامعقول ، وخـرج اللامعقـول من المعقـول . وجـاء موج الليـل من كل مكـان فحل قيـوداً وعقـد قيـوداً ، وأخـذ عـالم غـريب زخرفتـه وتزين . عمي نعـرفهم ولا نعرفهم يحـدقون إلينـا . منهم من يستمع إلينا ، ونحن نخاطبهم فإذا بالبكم يحاصرنا .

ويـطلع من هـذه العـوالم العجيبـة ، التي تحـررت بغتـة ، أصـوات وألـوان ووجوه وروائـح نعرفهـا ونجهلها . وتخـرج منها صـور كل شيء ، لا يدركه الـوعي ، وهو يـدرك الوعي . لأن الـوعي نائم ، لأنـه يشخر . لأن الحارس أغفى وراح يحلم ، تسللت الأحلام وهربت .

كنت أرقـد عـلى فـراشي متعبـاً منهكـاً أحـدق إلى سقف الغـرفـة المظلمة ، حين انبثق حسن الثاني ليبـدد بعينيه المتقـدتين ظلمـات كآبتي .

جلس على طرف سريري وقال كأنما يتابع حكاية بدأها قبل لحظات :

ــ سأحكي لك الليلة يا عزيزي عن حياتي السابعة ، فهي غريبة عجيبة ، لو كتبت بالإبر على آماق البصر ، لكانت عبرة لمن اعتبر .

* * *

حكاية حياتي السابعة

اعلم يا عزيزي أننا قلنا للسيد :

ـ فض علينا من علمك ، وأوقفنا على سر الحياة .

قال دون أن يلتفت إلينا :

ــ إنكم لن تستطيعوا معي صبراً .

ألح أولنا قائلاً بلهجة لا تخلو من توسل :

ــ سنلتزم أمرك ونهيك .

طرد السيد رفيق أكبر ذبابة حطت على رأسه . وقال وهو يهز منكبيه :

ــ لو أنكم صحبتموني فإنكم سترون ظواهر عجيبة ، وأموراً غريبة . فكيف تصبرون على ما يخرج عن مألوفكم ؟ ولظى الشمس يصهر الحجارة والأبدان . رفع رفيقنا الثاني كفه محاولاً أن يحجب اللظى عن عينيه وقال :

ــ سنسير في ظلك .

نفخ السيد وقال :

ــ لو أنكم صحبتموني فإنكم سترون أموراً منكرة في ظاهرها ، وإن كانت حقاً في باطنها . فكيف ستصبرون على ما يتجاوز معروفكم ؟ إنكم ستلحون في السؤال ، وتمعنون في الجدال .

قال ثالثنا وهو يجفف عرقه :

ــ ستجدنا صابرين .

نقل السيد نظراته بيننا كالمتردد . فبادرت إلى القول :

ــ لن نسأل ولن نتساءل . سنمشي وراءك طائعين . قلب شفتيه ، ورمقنا بنظرة مسترببة . ثم قال :

ــ إن صحبتموني آخذ عليكم عهداً أن لا تبتدروني بسؤال ولا اعتراض حتى تنتهي الرحلة الشاقة .

هززنا رؤوسنا بالإيجاب ، ثم سرنا في ظله . مشى ونحن في أثره ، حتى بلغنا سداً عظيماً يحيط به من الجنان ما لا يحاط به . حتى ان المرأة كانت تمشي من بيتها وعلى رأسها إناء ، فلا تصل إلى بيت جارتها إلا وهو ملآن بالفواكه دون أن تمس منها شيئاً .

وكان الرجل يمشي تحت ظلال الشجر شهرين فلا تصل إليه الشمس ! ورأينا قوماً مسالمين تصدح حناجرهم بالغناء ، ويضيء وجوههم ألق البهجة .

فإذا بالسيد ينقض على المدينة وحشاً كاسراً ، مخرباً هداماً جريئاً . فلم يصادف صرحاً إلا هدمه ، ولا طريقاً إلا أخفى رسومه ، ولا قصراً إلا محا أعلامه . ولا شجراً إلا اقتلعه . أما القوم فقد أحاطهم قتلاً وذبحاً وأسراً وسبياً ، ثم فرقهم في الأرض بَدَدَاً ، وترك ديارهم خراباً يباباً .

وقفت لهذا المشهد قلوبنا فما تخفق . وجمدت له الدماء فلا تجري . وارتج علينا فلم نهتد إلى كلمة نقولها ما خلا أولنا . . الذي بدا وكأنه قد أفاق من كابوس مروعاً مفزعاً وهتف كمن طاش عقله :

ــ لقد جئت شيئاً إمرا .

ضرب السيد كفاً بكف . كأنما ينفض الغبار عن يديه ثم أربد

وجهه وأظلم . قال :

ــ لقد نقضت ما كنت أبرمت ، وفصمت ما كنت أحكمت .

نقضت العهد يا رفيقي . وخنت الشرط .

ثم التفت إلينا ، وهو يلقي نظرات ملتهبة يكاد أوارها أن يحرق وجوهنا :

ــ هذا فراق بيني وبينكم . . إن لم تقتصوا لي منه .

فبسط ثلاثتنا الأيدي إلى رفيقنا الرابع . . وقتلناه . ثم تركناه ولم نواره .

وحين تلطخت أيدينا بدم أخينا وهتف الثاني كالنادم :

ــ يا ويلنا .

قلنا :

ــ ألم يقل لنا السيد اننا لن نستطيع معه صبراً . الثقة . . الثقة . . حتى نهاية الرحلة . لا بد من مبرر . لا بد .

قلت متلعثماً محاولاً إقناع نفسي قبل غيري :

ــ لعله فعل ما فعل قائلاً في نفسه : حتى لا يهدموا السد متى شاؤوا في المستقبل . فيَغرقوا ويُغرقوا غيرهم من الأقوام بالطوفان . . فنكون جميعاً من الغارقين . ثم التفت إلى صاحبي الثاني وقلت :

ــ معك سيجارة ؟

قال الثاني وهو يضرب كفاً بكف ، كأن تأويلي لم يطفىء جمرة شكه :

ــ أو لعله . . لعله . . لعله . .

ثم نظر إلى رفيقنا المغدور وغمغم :

ــ هذا جزاء من يغلب شكه ثقته في السيد .

التفت إلى الثالث وقلت :

ــ معك سيجارة ؟

فأشاح وقال :

ــ أو لعله . . لعله . . لا ، معي كبريت .

قلت باستنكار :

ــ كبريت بلا سيجارة ؟ أنت أبله .

وتناهى إلى مسمعي صوت الصمت يدمدم . قطعه صوت السيد رقيقاً عذباً :

ــ إخلعوا عن المغدور قميصه . . وناولوني إياه .

فعلنا ما شاء دون أن نسأل . قلنا نبرر : لحكمة في رأس السيد . ولاحظنا أن القميص ملطخ بدم شقيقنا ، وأن بصمات أصابعنا ترتسم عليه .

مشينا في ظل السيد . الذقون ساقطة على الصدور ، والعيون تحدق إلى ظلالنا .

ألسنتنا لا تقول . رؤوسنا لا تلتفت .

غمغم الثاني :

ــ لم يطلب رفيقنا سيجارة قبل أن يموت .

قال الثالث :

ــ حتى المحكوم بالاعدام . . يحق له أن يدخن السيجارة الأخيرة .

قلت مستيئساً :

ــ كان يحب التدخين ، رحمه الله ، والنساء .

ثم مستدركاً . كأنما أدفع هذا الشعور الملح بالذنب والإثم دفعاً :

ــ السجائر مضرة بالصحة .

قال الثاني دون أن يلتفت :

ـ لكنه شقيقنا ورفيقنا .

قلت وقد أظلم وجهي :

ـ كلام خطير ينم عن عصبية عشائرية . انضبط يا أخ .

والسيد يمشي ونحن نمشي في أثره ، ونسمع صوت خطواتنا تسحق الرمال ، حتى أدى بنا المطاف يوماً إلى مفازة مترامية الأطراف ، وقد أجدبت أرضها ، وأقفرت جنباتها . توقف السيد ، فتوقفنا . مد كل منا بصره ، فإذا بصبية كالدرة السنية تنفي عن القلب كل همٍ وغم وبلية ، تجلس تحت شجرة عارية يبوس . وإذا بغمامة أشبه بسرب حمام أبيض تحلق فوق رأسها وتقيها شر القيظ . وكانت تغرد بصوت فاتن رقصت له وحوش القفار وضواريها . دنا منها السيد . . فتبعناه . تأملنا الصبية من قرب فإذا هي حامل في شهرها التاسع ورأينا أنها وضيئة الوجه، ذات حسن وجمال وقد واعتدال . فلما رفعت عينيها ورأت السيد ، انتفضت كالملسوعة . ولاح في نظراتها رعب غريب كأنها قد استفاقت لتوها من كابوس مروع . غير أنها واصلت الغناء الفتان الساحر ، ولم تقطعه .

حاولت أن تنهض ، وركبتاها تصطكان . فما كان من السيد إلا أن شهر مسدساً كاتماً للصوت . وأطلق رصاصة أشبه بنحلة هامسة . وشوشت ثم عقصت بطن الصبية . فإذا بها تسقط مضرجة . وإذا بصوتها يتساقط فوقها ثم ينقطع . . فيحل صمت ثقيل ملح . . وإذا بوحوش القفار وضواريها التي كانت تتمايل طرباً وتردد :

ـ آه . . آه . .

تهرب ، ثم تختفي .

هالنا الأمر ، لكننا غالبنا فضولنا واستنكارنا فغلبناهما . . ما خلا الثاني . فقد صاح مستفظعاً :

ـ لقد أتيت شيئاً نُكرا .

صمت السيد صمتاً طويلاً متصلاً لا تطرف له فيه عين ،

ولا تبعث لـه جارحـة . كأنمـا كان يغالب بركـانـاً من الغضب يتفجـر في أعماقه السحيقة . ثم انتفض فجأة ، وقال من بين أسنـانه مـوجهاً كـلامه للثاني :

ــ نقضت العهد ، وخنت الميثاق .

ثم التفت إلينا وقال :

ــ هذا فراق بيني وبينكما ، إذا لم تقتصا لي منه .

أشفقنـا من فراق السيـد . وقلبنا الأمـر على وجـوهه ، فلم نـر بدأً من قتـل أخينا . بسـطنا أيـدينا لـه . . فقتلناه . وحـين تلطخت أصابعنـا بدمه . صحت :

ــ يا ويلنا !

قال الثالث مواسياً :

ــ ألم يحـذرنا السيـد من أننا لن نستـطيع معـه صبراً ؟ فقـطعنـا لـه عهداً بأننا لن نسأل أو نتساءل ؟

صمت قليـلاً كـأنمـا ليقـرأ تـأثـير حـديثـه في مـلامـح وجهي ، ثم أضاف :

ــ لا بـد من وجود مبـرر وتأويـل . ألم يقل لنـا السيـد اننـا سنـرى أمـوراً منكرة في ظـاهرهـا ، وإن كانت حقـاً في باطنهـا ؟ لنصبـر إذن حتى نهاية المرحلة .

إتقدت في عيني إمارات الريبة والشك . قلت بصوت متهدج :

ــ وماذا لو لم يكن ثمّةَ مبرر ؟ أو ماذا لو كان المبرر غير مقنع ؟

غمغم :

ــ غير معقول .

جعلت أنظر حولي لأتحقق أني في يقظة . قلت :

ــ وما هو المعقول في هذه الرحلة اللامعقولة ؟

ظهرت البغتة في وجه رفيقي الثالث وقال :

ــ أتشك ؟ الثقة . . الثقة . الصبر الصبر . سيأتي التبرير معقولاً منطقياً . . حكيماً . . في النهاية .

وجدتني معقود اللسان ، لا أملك أن أنبس . قلت بعد جهد :

ــ لعله شاء أن يخلصها من آلام الوضع .

قال الثالث :

ــ ولعله تنبأ بأن الوليد سينشأ شريراً مخرباً ، فأنقذ العالم من شره . . معك سيجارة ؟

التفت إليه ذاهلاً . قلت وقد انقبض قلبي :

ــ سيجارة ؟

قال وقد خانته أعصابه :

ــ لماذا تردد ما أقول كالببغاء ؟ سيجارة . نعم . سيجارة .

قلت :

ــ لا . . معي عود ثقاب .

قال وهو يرمقني بعينين زائغتين :

ــ عود ثقاب ؟

قلت :

ــ نعم . عود ثقاب . أنت تكرر ما أقول كببغاء .

مد بصره الزائغ إلى البعيد ، وقال كأنما يكلم نفسه :

ــ أخونا لم يدخن السيجارة الأخيرة . .

ثم التفت إلي فجأة ورماني بنظرة من طاش عقله :

ــ ماذا لو لم يؤول السيد ما لم نستطع عليه صبراً ؟

لم أنبس . وحل صمت ثقيل . فإذا السيد يتأهب لمواصلة الرحلة ويقول بصوت فيه جلال وفيه ثقة :

ـ انتزعا قميص المغدور .

امتثلنا . وناولناه القميص الملطخ ببصمات أصابعنا والدماء . مشينا في ظل السيد صامتين مطرقين لا نلتفت . وكنا نسمع صوت لهاثنا .

ثم إننا رأينا السيد يفتح فتحة في الأرض ويهبط إلى سرداب مظلم . فهبطنا وراءه . لفحت وجهنا ريح باردة رطبة . وباغتنا ظلام . أشعل السيد شمعة . فرأينا بعدما اعتادت عيوننا على الظلام نقوشاً بابلية وفرعونية وسومرية ونبطية وفينيقية وعربية على جدران السرداب . ولاح لنا السيد وهو يمحو هذه النقوش والكلمات . . فيبدلها تبديلاً ، ويزورها تزويراً ، ويزيفهاتزييفاً .

ثم هبطنا إلى دهليز سحيق ، فغاصت أقدامنا في غبار غابر ، وشقت خطواتنا طريقها بعناء بين الجثث المحنطة ، والكتب القديمة . سمعنا زعيقاً مرعباً ، ورأينا أشلاء غيلان الدمشقي ، ورأس فرج الله الحلو ، وجسد صبية كان قد وئد . . ورأينا آلاف الأجساد المحنطة لأبطال قتلوا ، وجبناء عاشوا . . و !

وضع السيد شمعته جانباً ، وبدأ ينقل أجزاء الجثث . رأس هذا لجسد ذاك . وسيف ثان لكفن ثالث . وعينا رابع يزرعهما في وجه خامس . . وهكذا واصل التزوير والتحريف . . وراح يطلق ضحكة مجلجلة ويقول :

ـ تاريخنا سحيق . . سحيق . . . سحيق .

وعثرت على نفسي أغلي كما الماء في مرجلة صحت :

ـ نطقت هُجْراً ، وأتيت نُكراً . . انني لفي شك مما تقودنا إليه مريب .

واستبق رفيقي أوامر السيد فقال منتحباً :

ـ لن أبسط يدي لأخي فأقتله .

وقع كلامنا على السيد وقوع البلاء العظيم . وصاح :
ـ لقد خنتها العهد . ونقضتما الميثاق .
ثم شهر مسدسه ليقتلنا . قلت بصوت ذوي قبل أن ينطلق :
ـ عهدناك ثاقب الرأي . . فأوِّل لنا الآثام التي ارتكبتها بيديك وبررها .

قال الثالث بكلمات انطفأت قبل أن تشتعل :
ـ عهدناك مصيب الرأي . . فحقق لنا أمنيتنا الأخيرة . وبرر وفسر .
أطلق ضحكة مجلجلة . ولوح لنا بقميصي رفيقينا . وحين ضغطت أصابعه على الزناد . . راعنا أنه لن يبقى ثمة رفيق ليسمع المبرر في نهاية الرحلة . وهالنا أن نموت بلا مبرر أو تفسير ، أن نموت بلا جواب .

كدت أقول لأخي :
ـ إبسط يديك لقتلي . . علَّ أحدنا يسمع جواباً .
لكن الرصاصتين لدغتانا . . وهمستا همسة لم نتبين أحرفها .
فصرخت ويداي تحاولان حماية وجهي :
ـ لا تفعل . . لن يبقى ثمّة رفيق ليسمع المبرر في نهاية الرحلة .
لا لن يبقى أحد .
ولم أسمع صوتي .
وأشرق الصباح فسكت حسن الثاني عن الكلام المباح .

* * *

نهـــار

تصـالح الجميـع مع « شبحي » . . لكنهم ظلوا مصـرين عـلى أنني لست إنساناً مثلهم . اعتبروني شراً لا بـد منه . لكنـه شر غير معتـرف به في الواقع المعيش .

سعيت إلى دكـان اسكندر . اسكنـدر رآني فرمـاني بنـظرة من يـرنـو من خـلال جسم شفيف . وتقدمت نحـوه فتقدم نحـوي كأنما يـظن أنـه يستـطيع أن يعبـر من خلال طيفي ، فـارتـطم بي ، تـرنـح وسقط . قـام ينفض بنـطالـه ويقـر بـالأمـر الـواقـع : شبـح مجسم . قـال أهـلاً « أبـو الشبـاب » . تفضـل إجلس . كـازوزة ؟ وفتـح لي زجـاجـة بيبسي . وأشعلت سيجارة ولم أناوله واحدة . وجلست وشكرته .

أحضر كرسياً من القش وجلس إلى جانبي وقال :

ـــ عفواً .

وكـان يحملق بي . ثم قال إنني أشبـه والدي . وذكـر والدي بـالخير وقال :

ـــ سبحان الخالق الناطق .

وفي المســاء ســألتني أم سليمــان إن كنت أعــرف ضــافي « أبــو موسى » . البدوي الذي اختفى ، وعندما قلت لها انني أعـرفه ، أخبـرتني أنه في سجن رفاقه . وأنه لا يزال هناك منذ عشرة أعـوام . وقالت لي انـه تحول إلى أسطورة بين أبناء عشيرته .

وتساءلت عما سيلقاه أبو مـوسى ـ إن عاد بعـد الغياب ـ واستبعـدت اعتباره شبحاً . لكنها قدرت بأنه سيعيش كالغريب الذاهل .

وقمت وذهبت إلى الجمعية . كان فـزاع يكتب مذكـرة يطالب فيهـا

بتحويل الجمعية إلى اتحاد . وحين رآني هز رأسه ، ثم قام . وتساءل كيف استقبل الناس بن بللا حين خرج بعد كل تلك السنين . ثم ابتسم وقال ان بن بللا خرج شبحاً مؤمناً ، بعد أن كان . . .

وقطع جملته زميل له . أشار له بيده ، فمضى معه دون أن يعتذر لي . ثم عاد وكان يبتسم ويدخن .

ومن مجلسي رأيت جانب وجه أحد الأعضاء وهو يتطلع برأسه الضخم إلى فتاة تمر في الشارع . اعتدل في جلسته ، ولم يصفر .

« واستغرب » فزاع ظاهرة الاختفاء في وطننا العريق وراح يسمي بعض من اختفى : بن بركة ، الإمام الصدر ، ولم أسمع بقية الأسماء لأنني تشاغلت بطلب فنجاني قهوة .

رمى اسكندر سيجارته على الأرض وقال اننا نستطيع أن نقص ذهباً إذا عدنا إلى تأجير الشقق بالساعة . وكان شاربه متهدلاً .

وكان ابنه يضحك بلا سبب . فقال : « اللهم اجعله خير » .

ونزلت فليبينيه من إحدى الشقق ، ورأتني ، فرجتني أن أتدبر واسطة لبقاء زوجها في البلد . وعلمت أن زوجها يفتقر إلى إقامة . وكان شعرها الأسود مصففاً ـ وأنا عاجز ولا صلات لي . ثم شكت اسكندر ، وقالت انها سيدة محترمة ، وان اسكندر يؤجر الشقة المجاورة لشقتها بالساعة لأبناء مناطق النفط .

* * *

بعد الحجر الصحي ، اكتفيت بالتنقل بين العمارة والجمعية القريبة . وعلى الرغم من تجاهلي المقصود لسكان العمارة . . فقد قامت بيني وبينهم علاقات بحكم الجوار .

شد اسكندر بنطلونه حول خاصرته ، وبعد ذلك وقف وقال :

ــ البلد ما كله هوا . مفيش مصاري . الشيكات المرتجعة عبأت الدنيا . الحالة بالويل .

ومرت بلقيس وتوقفت لتشتري من اسكندر بعض الحاجيات ، وقالت لي انها كانت تبحث عني منذ الصباح ، لتدعوني على الغداء . قالت : « وين كنت ؟ » .

فوجئت بالسؤال ، وقلت انني لم أتحرك عن هذا المقعد . وابتسمت بلقيس ابتسامة غامضة ، ودلفت إلى السوبر ماركت ، واختفت خلف الرفوف ، فلم أستطع أن أرى سوى الجزء السفلي من ساقيها . وسألني اسكندر إن كنت سأتزوجها ، وكانت عيناه تبرقان وتقولان كيف ستتزوج بلقيس من شبح . لكنني أشحت عنه بوجهي ورفعت أصابعي إلى أعلى ورحت أتأملها . ووقفت بلقيس فوق رأسي وقالت ان شكل الأصابع خير دليل على المنبت الطبقي .

وقلت ان الجميع أشبه بديناصور يكافح من أجل الانقراض كفاحاً . فلم تفهم .

كان لكل ما تستقبله حواسي طعم الحلم ، ومذاق الافتقار الى المحسوس الواقعي . والتبست عليَّ المسائل . لم أعرف على وجه اليقين إن كنت أرى مناماً ، أو كنت أحيا يقظة مروعة .

* * *

التقيت بفزاع المزاع في الجمعية . كان الأعضاء يشغلون كراسي الصالة . يدخنون ويحتسون الشاي ويطردون الذباب . قال فزاع :

ــ تعال نقعد على الفرندة .

قعدنا على الفرندة ، وضيفته سيجارة . فأشعل سيجارتي وسيجارته وقال :

ــ شكراً .

ثم شبك ساقاً على ساق . ورمى بصره إلى الشارع . قلت « عفواً » وأنا أعيد علبة السجائر إلى جيبي .

ويبدأ فزاع يحكي عن محاولاتهم في عصبته إعادة اللحمة إلى شظاياها . قال انه هو الآخر يحس بضرورة الخروج من حالة الانشطار والتشظي .

ثم قام وقال :

ــ تعال نتمشى .

وتمشينا .

* * *

قرأت في الصحيفة الصباحيةالخبر التالي :

« حصلت على الطلاق لأن زوجها تزوج جنية » .

«القاهرة ـ حصلت سيدة مصرية على الطلاق قانوناً ، وذلك لأن زوجها تزوج بأخرى من بنات الجن . « جنية » . وتقول صحيفةالأهرام القاهرية التي أوردت هذه القصة الطريفة ، ان محكمة الأحوال الشخصية في الجيزة استندت في حكمها إلى أن القرآن الكريم يعترف بوجود هذه المخلوقات (الجن) ولا يستبعد في رأي المحكمة إمكان زواج الجن من الإنسان .

وجدير بالذكر أن قانون الأحوال الشخصية المصري يسمح منذ عام ١٩٧٩ للزوجة بالحصول على الطلاق ، إذا اقترن زوجها بزوجة أخرى دون موافقتها »(*) .

كنت أجلس في الكفتيرية حين رأيت بلقيس تجتاز الشارع . ثم تقف أمام الواجهة الزجاجية للكافتيرية وتشير لي بيدها . وضعت

(*) صحيفة الرأي ـ الأحد ـ ٩ ـ ١٢ ـ ١٩٨٤ .

الصحيفة جانباً وخرجت . سألتني عن إجراءات تسجيل الأرض باسم ابنها . وكان الظلام يندلع في شعرها كنار سوداء . وعندما طمأنتها سألتني لماذا لا أبحث عن عمل . قالت ان العمل يحدد هوية المرء . قالت بالفصيحة وكأنها تردد قولاً مأثوراً :

ـ قُلْ لي ماذا تعمل ، أَقُلْ لك من أنت ؟

أخبرتها أن أحداً لا يرغب في تشغيل شبح . أما من أنا . . فقلت : صعلوك من ذؤبان العرب وشذاذها . صعلوك مديني . ابن الشوارع ، ابن شوارع .

منبوذ من عصبتي ، مجفو من أقاربي ، مثل عنز جرباء جذماء . ومؤسسة مكافحة الأوبئة ، والحكيم المخلص فرضوا على الحجر . . ولا يعترف بوجودي سوى مخفر الشرطة .

قالت مجفلة :

ـ يا صباح يا عليم يا رزاق يا كريم . مالك على هالصبح مبوز ومزاجك عكر .

استخرجت علبة سجائري من جيب سترتي . أشعلت سيجارة ودخلت إلى الكفتيرية . فتبعتني ، وجلست إلى الطاولة . قالت انني بعصبيتي أذكرها بزوجها السابق . وكان وجهها محتقناً ، وأصابعها متشابكة وأنيقة . أخبرتني أنه منذ تشظي عصبة زوجها وهو متوتر . كان يشكو ، يقول ان العصبة تحولت إلى دكاكين ، وان الدكاكين تفرخ دكاكين أصغر ، وان العصبة ضعفت إلى درجة فقدان القدرة على التأثير . كان يقول بتنا نكتفي بالتفسير لا بالتغيير . وكان متوتراً دائماً . . محتقناً .

كان اسكندر وراء الستارة يتحدث إلى شخص ما هامساً .

نادته بلقيس ، وطلبت قطعة جاتو . قلت لها ان قطع الجاتو هذه

قـديمة . لكنهـا لم تأبـه . أخبرتني أنها جـائعة . وقلت لهـا ان فزاع يسعى مع بعض رفاقه إلى توحيد الصفوف . قلت :

ــ محاولة مستحيلة . . في عصر التفتت هـذا . هذا زمن مـد النفط وجزر حركة الناس .

وأقبـل النقيب . فـألقى تحيـةالصبـاح . وكنت أدخن ، وبلقيس تأكل قطعة الجاتو ، قال ان رجالـه من التعقيب ما زالـوا يراقبـون العمارة للقبض عـلى حسن الثـاني . قـال يبـدو أن وبـاء القلق ينتشر في منـاطق عديدة . قال هذا وباء جديد مثل وباء « الايدز » .

وفردت بلقيس شعرها ، وكان أشبه بنار سـوداء متأججـة . وأرخته طويلاً عـلى ظهرهـا ، وراح النقيب يتفرس بهـا . فالتفتت إليـه ، ورمقته بنظرة ثابتة . تبدى الحرج على وجهه . وقال على استحياء وهو يشيح :

ــ إذا رأيت حسن الثاني بلغنا . . هاه ؟

وأطل اسكندر من وراء الستـارة ، ورحب بالنقيب . ودعـاه لتناول قـطعـة جـاتـو وكـوب شـاي . فقـال النقيب بصـوت لا يخلوُ من الملالـة والسأم :

ــ مش فاضي .

ثم غـادر الكفتيـريـة . ولمحت امـرأة تخـرج من البـاب الخلفي للكفتيرية وتتسلل إلى العمـارة . وتسللت نظراتي إلى عنق بلقيس وأسفـل سـاقيهـا . وابتلعت ريقي وأخبـرتهـا أني أود أن أحكي معهـا بمـوضـوع الزواج . فقامت وقالت انها أحضرت فيلم فيديو ممتازاً . قالت :

ــ بجنن .

وأكـدت لي أنها تريـد أن تراه معي للمـرة الثـانيـة . وقمنـا ودفعت الحسـاب . وعندمـا خرجنـا رأيت علاء الـدين مقبلاً ، وفي تلك اللحـظة خرجت امرأة ـ من جمـاعة اسكنـدر ـ مع رجـل أنيق من العمارة . وركبـا

في سيارة . توقف علاء الدين ، كان يترنح من السكر ، بصق ومسح فمه بطرف فمه . اقترب مني وقال ان هذه العمارة تسيء إلى سمعة سلمان بيك المرحوم الذي كان له تاريخ في مقاومة الاستعمار . وقال :

ــ الله يرحمه .

قال ذلك وراح في صمت عميق .

ودخلت وبلقيس إلى العمارة . ودلفنا إلى شقتها . كانت أم سليمان تصغي إلى المذياع . والمذيعة تتحدث عن طريقة إعداد وجبة ما . وكان ابن بلقيس يضع الهد ـ فونز في أذنيه . وانثنت بلقيس ودست الكاسيت في جهاز الفيديو . وجلسنا على الكنبة . وقالت وهي لا ترفع عينيها عن شاشة التلفزيون :

ــ احبكِ .

تململت في مقعدي ولم أحبكِ . وشعرت بالاختناق ، وأحسست عرقاً لزجاً يتصبب من جبيني ووجهي . مسحت على جبيني وصدغي بأطراف أصابعي بعصبية . ثم رفعت رأسي ، واستندت بمرفقي على وسادة صغيرة أسكنتها حجري .

ألقت بلقيس رأسها على كتفي وعيناها معلقتان بالشاشة . قالت :

ــ احبكِ .

ولم أحبك .

وشاهدت الفيلم . وكان مليئاً بالدموع . وعنوانه : « دموع وحب » . وسألت بلقيس لماذا عزفت عن المطالعة وكتابة القصص . فلم تسمعني لأن حسين فهمي كان يقول لنجلاء فتحي :

ــ يا خاينة .

ثم صفعها .

وخرجت ، ولما ينتهِ الفيلم بعد . ولم يشعر بي أحد . بلقيس

عيناها على الشاشة . وأم سليمان تشخر ، والولد يغلق أذنيه بالهيدفونز ويحل وظيفة مدرسية .

ومشيت في الشارع وحيداً كشبح . ثم ذهبت إلى الجمعية ، لم أجد فزاع . فجلست أنتظره . وأطرقت ملياً . ثم دخنت سيجارتين . وقمت . وعدت إلى كفتيرية اسكندر . فإذا باسكندر يحتسي زجاجة بيبسي ملغومة مع علاء الدين . قال اسكندر ان مفتشاً من المؤسسة جاء وسأل عني .

وتفصد العرق من جبيني . ورميت عقب سيجارتي بعيداً ، ودهمتني رغبة عارمة في أن أصرخ صرخةهائلة تمزق هذا السكون الزائف تمزيقاً . لكنني شكمت نفسي في آخر لحظة . وقال علاء الدين ، وهو يمسح حبات العرق المتصببة من وجهه ورقبته بطرف قميصه ، انه يبحث عن عمل .

وأخذ جرعة جديدة من الخمرة ، فثنى علاء الدين .

وأقبل فزاع وقال ان الجماعة في الجمعية أنبأوه بقدومي . بدا مغتماً مهموماً حائراً . أخبرني وهو يهز منكبيه في أسف أن القائمتين : قائمة « العدل والتقدم » وقائمة الوطنين الديموقراطيين وصلتا الى طريق مسدود ، وأن التحالف بينهما بات مستحيلاً لاختلافهما على نسب المقاعد . وأخبرني أنهما ستخوضان الانتخابات متنافستين .

غشت على عينيه غمامة سوداء . ثم غمغم :

ــ الوسط والمحافظون صاروا القوة الانتخابية المقررة والمرجحة . وقد تضطر إحدى القائمتين إلى مد يدها إليهم .

قلت :

ــ مش معقول .

سقطت ذقنه على صدره ، ودس يديه في جيبيه . ثم رفع عينيه دون أن يرفع رأسه . وقال :

ـــ إيش المعقول في حياتنا ؟ إحنا عايشين اللامعقول .

وخرج علاء الدين عن صمته المؤقت فأنشد وهو يقف ويدنو منا :

ـــ أنا مين اللي صحاني من عز النوم ؟

وكانت أنفاسه تتردد على وجهي معبقة برائحة الخمر . واجتاحته موجة من الضحك . وهتف باسكندر :

ـــ يا اسكندر . . يا إسكندر . . غير محطة الراديو . . ما بدنا نسمع أخبار .

وقال المذيع ان مجموعة من المجهولين اختطفوا طائرة . وهددوا بقتل ركابها ونسفها إن لم يستجب لمطالبهم . وقال إن ستين شخصاً قتلوا في بيروت نتيجة خلاف بين المليشيات على أفضلية المرور بين سيارتين تابعتين لتنظيمين مختلفين . . متحالفين .

وأقبل المساء هرماً ، يمشي بتثاقل كأنه لا يرغب في الوصول .

وشعرت بالجوع ، فتناولت قطعة من الجاتو ، بعد أن طردت ذبابة عنها . وترامى إلى مسمعي صوت بلقيس تنادي . خرجت ورفعت رأسي إلى شقتها . أشارت لي أن تعال . صعدت الدرج بخطى ثقيلة . قالت ان الولد نائم وأمها خرجت . وحين دخلنا الى غرفتها ، استيقظ الولد . وجاء فنام بيننا . ونهضت .

عند باب بيتي التقيت بأم سليمان . قالت وهي تتنفس بصعوبة ان اسكندر الكلب أبو قرنين ، صار يعطيها شيكات بلا رصيد . وأخبرتني أن هذي هي نتيجة تأجير مواطنين محليين للشقق . وأكدت أن الأجانب يدفعون نقداً . ولاحظت أن السوق باتت ميتة .

* * *

فجأة ومض في بالي مشهد غريب :

جسدي مسجى ، والجميع يتحلقون حولي . الطبيب يقول وهو يستعير وجهاً صارماً :

ـ حالة كوما . . غيبوبة .

زوجتي تشيح بوجهها الحنطي . لا تلطم ، لكن الدموع تنحدر وتنحدر صامتة .

علق شعلان بأسى :

ـ خاتمة ما لها مستهل .

وأنا أصغي . . ولا أقول . أتأمل الوجوه المقنعة بالأسى ، ولا أقول . أتبادل مع العيون الجاحظة البليغة نظرات ثابتة ، ولا أقول . عينا شعلان تنطقان ببلاغة ، تثرثران . تقولان : أراح واستراح . كان ينبغي أن يغيب . هذا الزمان ، ليس زمانه . والكل حولي يعلن عجزه : الطب ، والتكنولوجيا ، والعشيرة ـ العصبة ، والجيران ، والأصحاب . الكل يتأملني بعيون راعبة ـ متشفية ـ تتنفس الصعداء ـ حزينة . . والكل عاجز أو متواطىء .

وأنا أرى ما لا يرون ، وأسمع ما لا يسمعون .

الدكتور قال وهو يستعد للخروج :

ـ ستطول غيبته . بدون معجزة لا أمل ببعثه .

صاحت أمي :

ـ أيبقى هكذا . . لا حياً ولا ميتاً ؟

هز الطبيب رأسه ، وانسل .

وطال بقاء القميص ـ الجسد مسجى . باتت زوجتي تحمل معها الترانزستور وهي تجلس إلى جواري .

تصغي إلى أغاني مونت كارلو الفرنسية . ولا تعرف اللغة .

نقلوا التلفزيون والفيديو إلى غرفتي . تقبل بلقيس ، تجلس مع أمي أمام الشاشة . تغزلان الصوف . عيونهما على الصوف ، آذانهما على الشاشة ، شفاههما على الشاي .

وأنا جسد مسجى . . وممعن في الدهاليز التحتية والسراديب .

وألهث مطارداً . الكل يطل ، يلقي نظرة فضولية سياحية عليَّ . . يقولون كلمتهم ، ويمشون . وأنا أركض في الليل حيث تنبت الظلال من الأرض وتقفو أثري .

أتى فزاع مرة وقال :

ــ إذا حدثت المعجزة وقام بلا ذاكرة . فإنه سيكون أقدر على تحجيم لا شعوره ، وما زرع من قيم متخلفة في نفسه أيام الطفولة .

فزاع كان الوحيد الذي يعرف . الذي رأى ما ينبغي ألا يرى .

* * *

صرت أروح إلى سوق عمان المالي مع بلقيس . أتسلى قلت . تشرح لي بلقيس سر اللعبة . لكن عقلي يستعصي . أحاول أن أفهم . ونخرج ، فأدعوها لتناول ساندويتش هامبرغر . . بانتظار الشيخوخة والموت .

قالت انها تعيش فائض عمر .

سألتها وأنا أسكب الكاتش آب على الساندويتش :

ــ بعد الخروج من بيروت ؟

قالت انها لا تحب أن تتذكر بيروت ، لأنها ليست على يقين من أنها وجدت .

أطلقت ضحكة خافتة وعلقت ساخراً :

ــ تعتبرينها مجرد شبح ؟

أكدت لها أن قيم الاستهلاك هي الحاضر الطاغي . يبدو كل ما عداها شبحياً .

أوقفنا سيارة أجرة وعدنا إلى العمارة . الخادم السيريلانكية فتحت الباب .

قالت بلقيس انها تدفع ثلاثة أرباع مدخولها للخادم . الخادم

السيريلانكية لا تعتبرني شبحاً . لكنها تحكي معي بالسيريلانكي . فزاع لا يعتبرني شبحاً . لكن فزاع منشغل عني بتوحيد شظايا عصبته .

وقال ابن بلقيس انه لا يستطيع أن يعيش بلا بيبسي كولا . وانه ظمآن . أحضرت له كوباً من الماء فبكى وقذفه بالأرض . بيبسي كولا أقول . وصاح في وجهي كأنما يشتمني :

ــ واحد شبح صحيح .

وهرعت أم سليمان ترحب بي ، وتسألني أن أتنبأ لها ـ باعتباري شبحاً مطلعاً على المستقبل ـ بالمناطق التي ستشهد تطوراً عمرانياً . وبالشركات التي سترتفع أسهمها . قلت لها باسماً :

ــ أنا مجرد شبح . . لا خبير اقتصاد .

ليلة

حكاية الجب

قال حسن الثاني :

إعلم يا عزيزي أنني خرجت مع صعاليك العرب وذؤبانها في غارة على قافلة من التجار . نريد أن نغير على إبلهم وخيلهم ، فنذهب بها ، ونستاق كل شيء . وننهب البضائع ، ونتخطف النساء في الهوادج ، ونسبيهن سبياً .

علونا على ظهور الجياد ، وسرنا بالخيل ، ثم انحدرنا كالسيل ، وانعطفنا متسابقين ، ورحنا متلاحقين ، وتناوبنا في النزال ، واندفعنا كالجبال ، وسقنا في الفجاج ، وأثرنا العجاج ، ولعبنا بالرماح ، وتقابلنا بالصفاح ، وانفجرت الهيازع ، واهتزت الزعازع . فكم سبيت أحرار ، وقهرت أخيار .

وبينما أنا أطارد على جوادي ، وأطلق النار من عتادي ، عثر الجواد فإذا بي أحلق في الفضاء ، ثم أهوي في ليل ما له قرار .

فكنت كمن انتقل من غفوة بيضاء إلى يقظة سوداء . وحين استيقظت من الهول ، وتلفت حولي ، حسبت أنني مدفون في ظلام قبر . غير أنني أحسست بماء تحت قدمي ، ورأيت لهولي عينين يشع منهما ضياء خرافي ، ونور كالهالة . امتلأ قلبي رعباً ووجلاً . هتفت بصوت كالحشرجة :

ـ من هناك ؟

فإذا بصوت غلام لم يطرق أذني مثله في حياتي يقول :

ـ أنا الغلام المبارك الموعود .

تزعزعت أركاني ، وقفزت كالغزال المذعور .

وكان جسدي يتكوى بالأوجاع . قال :

ـ ومن أنت ؟

قلت :

ـ أنا من يقتحم القفار ، ويخوض البحار .

إتقدت عينا الغلام ببريق عجائبي ، حتى لتكاد عيناه تأمران بنظراتها أمراً . وكدت أنكر أنه إنسان لما اعتراني من هيبته . قلت متلهفاً :

ـ زدني علماً . . من أنت ؟

خفق الضياء في عينيه كما ورقة داعبتها نفحة نسيم هين . قال بصوته الذي يأخذ بمجامع القلوب :

ـ هل نحن في مكان مصون ، لا بأس علينا من واشٍ أو رقيب ؟

فتحت فمي عجباً . قلت :

ــ ألا تعرف أين نحن ؟ أحسب أننا في جب مظلم .

قال ودفق صبا نوراني يشع من نبع عينيه :

ــ أنا المنتظر المبارك . خرجت لأصطاد وضللت طريقي فرأيت نفسي بغتة وسط معركة . هربت فإذا بي أسقط في هذه الحفرة . لكني أعلم أن قومي افتقدوني وجه النهار ، وانتظروني حتى انتصف . وما هي إلا ساعة حتى يدركوني .

أخذتني الرجفة . سألته :

ــ وكيف تعلم كل هذا ؟

قال بصوت عذب :

ــ لقد نبئت بحضورهم . أكاد أسمعهم يتساءلون : « أي مكان يشتمل الموعود ؟ أي وادٍ يضم المبارك ؟ »

قلت :

ــ أرض الله وسيعة فأين يبحثون .. عريضة فأين يتحسسون ؟

لم ينبس الغلام . وإنما ظل يحدق إلي بعينيه الهائلتين ويجللني بذلك الضوء الأخضر المبارك الذي يورق فيهما .

سألته :

ــ وماذا ستفعل حين تخرج من الجب ؟

قال :

ــ عم الشر ، وذاع الفساد ، وتفشى الظلم .. وبات العالم موئلاً للخراب . سوف أفعل كما يفعل الكتاب .

قلت بدهشة :

ــ الكتاب ؟

وكانت العتمة والصدى ، بيننا ، مثل الحجاب الحاجز .

قال :

ـ نعم . سأفكك ما هو قائم وسائد ، وأعيد صياغته من جديد . لن أفسر للناس الحياة . بل سأعمل على تغيير مجرى حياتهم .

قلت بمرارة :

ـ وماذا لو شوه حلمك حين ينتقل من البال إلى الواقع ؟

قال بثقة :

ـ إنني مثل الكاتب المحترف ذي الرسالة . أسيطر على عالمي البديل ، وأتحكم في عناصره .

امتصتني هاوية صمت ملأتها بالتفكير وتقليب هذا الأمر الغريب على وجوهه . والغلام ساكت لا ينبس . جلسنا ساعة لا نومىء ولا نحكي . نتبادل بين الحين والآخر نظرات ترتطم بحجاب الظلام الحاجز . . ثم نطرق .

قلت قاطعاً الصمت :

ـ وهل ستكون بين قومك زعيماً أو شريفاً ؟

قال بتردد :

ـ لقد نبئوا بي في أحلامهم .

سكت ونظر إلي نظرة مستريبة . ثم سأل :

ـ ما لي أرى في وجهك ما يريبني ؟

ذهلت وأخذتني الرعشة . قلت :

ـ في وجهي ؟ هل ترى وجهي ؟

قال :

ـ نعم . أرى أنياب الرزايا بارزة .

ثم قال :

ـ يقول لسانك ما ليس في قلبك .

ثم قال :

ـ إنك رجل يمشي ، فتجري من تحته شوارع مؤرقة ، وأنهار من

الأزمنة . . أعماقها سحيقة ، وفيها من كل حضارة أو عصر غرقى لم يلفظوا أنفاسهم الأخيرة بعد .

أخذني سنا عينيه وأنا أنظر والدهشة تنظر . قلت :

ــ إنني عاجز عن تفسير العالم ، فما بالك بتغييره . أحلم بعالم بديل أسيطر على تفاصيله .

لاذ بصمت فيه صراخ وفيه قراءة لخواطري .

أحسست في تلك الظلمة الموحشة ، أن سراج روحي يوشك أن ينضب ، ونور الحياة فيه يكاد أن يسلم الروح . والصمت ثقيل ، لا أذن تطرب بصوت ، ولا تتخدَّش بصوت . بغتة سمعت صوتاً تنبهت له جوارحي . قال الغلام وهو يحدق بعينه الوضيئة ، ويتطاول بعنقه :

ــ ها أنا أسمع من بعيد صدى حركة مبهمة ، وأصوات مختلطة .

ثم أرهف سمعه وصمت .

أخذت الأصوات تقترب رويداً رويداً ، وتتضح شيئاً فشيئاً ، أصوات أسفرت عن وقع أقدام ، وخفق نعال ، ونباح كلاب . ثم ارتفعت أصوات تنادي الغلام .

كان علي أن أتصرف بسرعة . تناولت خنجري ، فالتمع وأبرق في الظلمة الموحشة . قال الغلام بهدوء :

ــ أتؤثر زهرة الحياة الدنيا البائدة الفانية ، على غضارة نعيم الأبد ؟

قلت بلا تردد :

ــ نعم .

وبسطت له يدي .

كان لسقوط دمه على ماء الجب وقع مكتوم .

هبط دلو ، فامتطيته . وارتفعت . وما أن بزغ وجهي . حتى هرع

القوم نحوي . واجتمع القوم إليَّ كالطير التي تحوم حول مورد ماء . هذا يدفع الأخرين كي يمسني بيده . وذاك يتطاول بعنقه ولا تشبع عيناه من رؤيتي . وثالث ينتحب كمن وجد الخلاص بعد تيه طال . ورابع يسعى إلى التبرك بقطعة من قميصي .

وهكذا وجدت نفسي مبارك القوم ، ومنتظرهم الموعود .

* * *

قبل ان يشرق الصباح فيسكت حسن الثاني عن الكلام المباح ، قلت محتجاً :

ـ يعني أنت تعترف بأنك زورت الغلام ، انتحلت شخصيته ، لبست قناعاً مضرجاً بالدم .

لكن حسن الثاني لم ينبس .

في تلك اللحظة بالتحديد ، بدأت أنظر إليه بعين مسترية . ما أدراني أنه « حسن الثاني » الحقيقي ؟ ما أدراني ؟ . لعله شخص آخر . حامل كاتم صوت مثلاً ؟ لعل الغلام القتيل هو « حسن الثاني » . . لعل هذا الرجل الذي يشبهني ليس سوى ذياب . ذياب ؟ ذياب من ؟ أذكر اسماً له هذه الأحرف . أذكر وجهاً يحمل هذا الاسم . . ولكن في أية حياة رأيته ؟

قال حسن الثاني قاطعاً تساؤلاتي :

ـ عليك بالهرب من هذه المدينة . لذ بقرية نائية ، ودعنا نحاول تفكيك العالم وإعادة صياغته . لنبن عالماً أشبه بمسرح . تكون أنت كاتب السيناريو وأنا المخرج . عندئذٍ ستتحكم في الإضاءة ، والممثلين ، والأدوار ، والديكور ، والتصاميم ، والمكياج ، وتعابير الوجوه ، والحركات ، والسكنات . ونسيطر أيضاً على عواطف المشاهدين . نبكيهم ونضحكهم متى نشاء . . . ألا يفعل التاريخ والمؤرخ ذلك ؟

وهنا أشرق الصباح فسكت حسن الثاني عن الكلام المباح .

نهـــار

حسن الثاني ما عاد ينبثق من سراديب الغمـوض السحيقة . مـا عاد يحكي لي الحكايات . وأنا أرق قلق ، وخاطر الانتحار عاد ليراودني .

وكنت أجلس عنـد اسكندر ، وأشبـك ساقـاً على سـاق . أشـارت ساعة الجدار إلى الواحدة . فرن جرس التلفون . ورفعـه اسكندر وصـاح بصوت مرتفع :

ــ آلو .

فـظننت أنها مكـالمـة خـارجيـة عـلى الـطريقـة القـديمـة ـ وإلا لمـاذا يصيح ؟ ـ ثم قال :

ــ مين . . حسنين ؟ لأ مش موجود .

انتفضت محتجاً ، وانتزعت السماعة بحركة عصبية سريعة . لكن الطرف الآخـر أقفـل الخط . فـزعلت ، وقبضت عـلى سـترة اسكنـدر ، هـزرته بقوة ، فجحظت عيناه . وقال :

ــ شــو . . كفرنا ؟ مالك ؟

ثم بسمل .

صحت في وجهه وأنا أهزه بعنف :

ــ كيف بتقول مش موجود . . وأنا ملطوع قدامك .

شحب وجهه . وتلعثم وهو يقول :

ــ بـس أنت مش موجود . يعني بدك الزلمة يفكرني مجنون ؟

وأفهمني وهـو يضيفني سيجـارة ويـطيب خـاطـري أن الشبـح غـير مـوجـود . يـظهـر للممســوسـين فقط . وأشعــل سيجـارتي وقــال انـه ممسـوس . . لأنـه يـراني ويسمعني . وقـال انني مـوجـود في وهمـه . وأنـه سيعرض نفسه على طبيب نفساني .

ورأيتني أجلس لاهثاً غاضباً . وسمعت نفسي أقول محتجاً :

ـ أما حالة . حتى أنت يا اسكندر . ألا يكفيني عدم إعتراف دائرة تسجيل الأراضي بي . . بأنني حي . وكنت أرى كل ما يجري لي من خارجي . وأتفرج . لأني رجل محايد ، ولا أحب أن أتدخل . وسمعتني أقول لنفسي انني أشبه المدينة . بل انني مدينة . أقصد أنني شيء ، وكل شيء ، ولست شيئاً معيناً .

فحين سألني صحفي لا يعرف أنني شبح ـ في مقابلة صحفية ـ عن بطاقة هويتي . سمعتني أقول له :

ـ ربع فلاح ، ربع بدوي ، ربع مدني ، ربع أجنبي . نتاج سلالات من اللاجئين . خليط من الشركس ، والشوام ، والفلسطينيين ، والبدو ، والعراقيين ، والدروز . . الذين لجأوا إلى هذه المدينة .

لا بل اني أحس أحياناً أنني نشأت مثلها . . بلا تخطيط . بالصدفة . كيفما اتفق . أشهد طفرات وتحولات مفاجئة ، أنمو وأضمر . . هكذا كيفما اتفق .

والحق أن حسن الثاني هو الذي قال ذلك . أنا أصغيت في صمت . كنت أتفرج . حسن الثاني كائن غريب ، ويسعى نحو حياة مفجعة . . أحياناً . حسن الثاني مثل خلد يحفر أنفاقاً ودهاليز بين الأزمنة .

قال اسكندر وهو ينفث دخان سيجارته . ان أحداً لا يعترف بوجودي . ضابط المخفر قال انك مشكلة .

وحين كان يراني أمشي إلى جانب بلقيس ، كان يغمز بعينه بخبث ويقول :

ـــ تبحبح . . فهي مش شايفتك .

كان يعتقد أنه الوحيد الذي يراني . ويقول ليتني شبح ، لأحصل على بلقيس دون ممانعة . لو كنت شبحاً مثلك ـ قال مرة ـ لهبت عليها مثل ريح خفيفة . وكنت أنا أراقب بلا فضول ، ما يجري لحسن الأول .

* * *

. . . الدوائر لا تعترف بأني حي . لا تعترف بوجودي . . لا . . ولا الشركات . ولا المؤسسات . . فكيف أعمل ؟

* * *

وعند اسكندر ، دخل عامل من عمال البناء . وطلب كوباً من الشاي . قال :

ـــ دوبل .

رمقه اسكندر بنظرة لا تخلو من ازدراء . ثم اختفى ليعد الشاي . مسح العامل على شاربه ، ونفض الغبار عن بنطاله . ثم التفت إلي . وراح يتفحصني بعينين اتقد فيهما الفضول . مد يده إلى جيبه واستخرج علبة سجائر . قال بصوت خشن :

ـــ تدخن ؟

هززت رأسي بالسلب .

دخل علاء الدين . وصاح على اسكندر طالباً فنجاناً من القهوة . قال انه سيبيع نصف البيت ، ويفتح محل همبرغر وبيتزا . وأنبأني وهو يكشر أن كل شيء يشهد كساداً إلا الأكل والشرب .

ونفخ العامل دخان سيجارته في وجه علاء الدين ، والتفت إليه ،

فإذا به لم ينتزع عينيه عني . وشعرت بنظراته تنهشني . أزعجتني نظرته . تململت في مقعدي . وبدأ دمي يغلي . ثم قلت بلهجة عدائية :

ـ خير ؟

قال وهو يمسح على شاربه :

ـ سبحان الخالق الناطق . أنت تشبه رجلاً أعرفه . مات رحمه الله . يخلق من الشبه أربعين يا أخ .

وسحب نفساً من سيجارته ثم سعل وبصق على الأرض . وجاء اسكندر يحمل الشاي . وصاح بالعامل أن لا يبصق على الأرض . وسأله أن يفعل هذا في بيته . قال :

ـ لو كنت في بيتك . . بتبصق هيك ؟

تناول العامل كوب الشاي بصمت ثم قال :

ـ ما عندي بيت .

وضع علاء الدين يديه على خصره، وتدخل ، وقال ان العامل كاذب . قال ان عمال البناء أحوالهم فوق الريح . وقف العامل وقد أتى على نصف كوبه بجرعة واحدة . ثم غادر الكافتيرية وهو يقول ان وجهي يذكره بوجه طبيب دعا له بالرحمة .

قال :

ـ كان يعطينا الدوا كمان ببلاش .

هز اسكندر رأسه وقال :

ـ هذا شبح ابنه يا سيدي . أو شبحه هو . كمان انت بتقدر تشوفه ؟

تجاهل العامل قصة الشبح ، لأنه لم يفهمها . لكنه فتح فمه نصف فتحة وقال :

ـ ابنه !

ومد يده مصافحاً . ثم سأل :

ـ وانت كمان دكتور ؟

قلت لا .

مشى نحو الباب وقال :

ـ يا خسارة . ما فيش دكاترة هالأيام بيعالجوا ببلاش .

وغادر الكافتيرية . فركضت وراءه صيحة علاء الدين :

ـ انت بتقدر تدفع . . شو بيحكي الموظف .

وشعرت بصداع في رأسي .

* * *

كنت أجلس إلى طاولة كبيرة في المكتبة العامة أقرأ عن العصر التكنو ـ إلكتروني ، حين أقبل حسن الثاني . كانت الصالة تغص بالرواد ـ إلى جانبي تجلس امرأة عجوز ، تقرأ رواية ليوسف السباعي ـ وقف حسن الثاني أمامي ، فرفعت رأسي .

قال بصوت رخيم :

ـ أنت تقعد عما تسمو إليه النفوس الكبيرة .

أومأت له أن يجلس على يميني . لنستطيع أن نتكلم همساً . جلس إلى يميني بعد تردد . قال انه نفذ تعليماتي على مضض . سألته أن يؤول لي هذا الكابوس :

ـ ليش الكل بعاملني على إني شبح ؟

قال :

ـ ما أحكيه في الليل ، يؤول ما يجري في النهار . لكن لماذا تغير الموضوع ؟ قلت انني أرغب في تأسيس مؤسسة علمية للأبحاث .

صاح وقد نفد صبره :

ــ إلى متى تستظل بشجرة قد تقلص عنها ظلها ؟ إخلع قميص الجسد المزور ، وانتزع وجه القناع . واخرج على الناس بالإشارة والعلامة .

المرأة العجوز التفتت ورمقتني بنظرة زاجرة لا تخلو من دهش . وقالت :

ــ هش . . ش .
همست في أذن حسن الثاني مجارياً منطقه الخرافي :

ــ وذياب صاحبك . . إيش بسوي إذ كشفت عن حقيقة دوري ؟

صاح حسن الثاني مزمجراً :

ــ نكمن له ، ونقطع منه كل بنان . نضرب رؤوسه الألف وواحداً . . ضربة واحدة . فزت السيدة العجوز مغضبة . وسعت إلى رئيس قسم الإعارة ، وشكتني .

جاء الرجل بخطى خفيفة كأنه يمشي في الهواء . وقال هامساً :

ــ شو . . بتفكر حالك في مسرح . . نازل تخطب بالعربي الفصيح .

أكدت له أن حسن الثاني هو الذي يتكلم الفصيحة . وأنني كنت في غيبوبة . وحاولت أن أشرح له ضرورة استخدامي للكتب العلمية . قلت انني أحاول محاولة خطيرة ، لو كتب لها النجاح ، لأنقذت مستقبل الأمة . وقلت انني أحاول توظيف العطب الذي أصاب ذاكرتي ـ بعد أن خرجت من حالة الغيبوبة ـ لأستحيل إلى عقل صرف . وضربت له مثلاً

على ذلك . قلت انني أعيش في قبو تحت عمارة تغص بـالمومسـات . ولو لم أفلح في أن أكـون مشروع عقـل صـرف نـاجـح ، لقتلتهن جميعـاً . أو لسبيتهن جميعـاً . لكن العقـل الصـرف يبحث عن المسببـات ليعـالجهـا . وضربت له مثلاً ثانياً في هجوم إسرائيل عـلى لبنان . قلت لـو لم أنجح في تحجيم وتقليص دور المشاعر ، وتـأثير العـواطف على الإرادة ، والسلوك ، لتـطوعت ورحلت إلى لبنان . لكني رجـل غير عـاطفي كبقية الأعـراب . استفـدت من فقدان الـذاكرة ، وأحـرقت أدغال الـلاشعور السحيقـة . . بالأنوار . فتعرت .

وشكوت له حسن الثاني . قلت انه . .

لكن المـوظف العاطفي الانفعـالي ، انتفض غيـظاً ولم يـدعني أنتهي في جعـل جملتي مفيدة . إذ أمسـك بي من ياقـة سترتي . وجـرني جـراً إلى خـارج القاعـة . ولو كنت رجـلاً غـير عقـلاني لضـربتـه . لكنني طـويت كبـريائي واستسلمت لـه . وحين أصبحت خـارج القاعـة . قام المـوظف بعمـل أدركت من خلالـه أنه واحـد من الألف ذيب وذيب . إذ انـه رفـع قدمه ، ودفعني في مؤخرتي . . فسقطت على الدرج ، درجة درجة .

« ذيـاب » . . اسم الـذي يـطاردني قـال حسن الثـاني . الــذي يـطاردني منـذ مـا قبـل الـزراعـة والكتـابـة . ذيـاب يـرصـدني بـالأقمـار الصنـاعية ، أعـرف ذلك . بلقيس نفسهـا عميلة له . وإلا . . لماذا تكثر من الأسئلة عن أصلي وفصلي . . وحسن الثاني .

وهــذه النـظرات التي تلتهمني حـين أنــام . أستيقظ في منتصف الليـل ، فـأرى نـظرات قـارصـة تلتهمني . أشعـل عـود ثقـاب ، لا أرى عيوناً . لكن النظرات تواصل التهامي .

وهذه الخطوات التي أسمع وقعها يقتفي أثري . وهذا اللهاث .

تـوصلت إلى قرار ، بعـد تأمـل طويـل ، يقضي بمواجهـة ذيـاب .

هذا ما أملاه علي العقل الصرف .

وقد أملى علي عقلي الصرف أيضاً أن أدرس ذياب قبل أن ينفصم إلى ألف ذيب وذيب ، ثم أدرسه بعد أن انفصم إلى ألف ذيب وذيب . دراسة علمية . حتى أرصد مواطن الضعف فيه لأنفذ إليه منها .

شعرت بالجوع . . فوافقت على العمل في شركة شعلان . وكنت أجلس طوال ساعات الدوام أهش الذباب وأكشه .

* * *

كنت أجلس إلى مكتبي في شركة شعلان ، أنتظر حسن الثاني حتى يقدم لي المعلومات اللازمة عن ذياب ورؤوسه الألف وواحد . ولم يطل انتظاري ، إذ أقبل حسن الثاني عند الظهيرة . أمرت له بكأس من الشاي . وأحضرت له مقعداً . سألته :

ـــ ما ظنك بذياب ؟

قال :

ـــ أأطنب أم أختصر ؟

التفت الموظفون السبعة نحوي . فصرخت في وجوههم :

ـــ ليش هالفضول ؟ ما عم بحكي معكم . رجاء التفتوا إلى شغلكم . هذا مندوب من القدر عم يحكي معي .

ثم التفت إلى حسن الثاني ، وابتسمت ابتسامة وقورة مرسومة وقلت :

ـــ اختصر .

قال وهو يرفع كوب الشاي إلى شفتيه :

ـــ لا ينام إلا وعضو فيه يقظان .

قلت . وماذا أيضاً .

قال :

ــ إذ استوى فسكين ، وإن اعوجَّ فمنجل .

قلت مستزيداً :

ــ ثم ماذا ؟

قال :

ــ إذا دهمته الطحمة راغ كما يروغ ثعلب ، وإذا ماده القوم صبر صبر الدهر .

قلت :

ــ وإيش كمان .

قال :

ــ أخف رأساً من الذئب ومن الطائر ، أبصر من عقاب ، أحذر من غراب .

قلت :

ــ إيش شعاره .

قال :

ــ شعاره ! : من تكلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غماً .

هنا تولتني الدهشة . وقلت :

ــ لكن هذي عبارة من عبارات الحجاج .

ضيق حسن الثاني ما بين عينيه . وقال هامساً :

ــ وما أدراك أن الحجاج ليس سوى ذيب من ذؤبان ذياب ؟ لا بل وموظف المكتبة أيضاً .

وهنا خطر لي خاطر مفاجىء . ماذا لو كان حسن الثاني نفسه ، ذيباً . لعله ذيب الثاني ، لعله يتقمص جسد حسن الثاني وقناع وجهي ؟ هل رأيتم رجلاً في اثنين ؟ إذن كيف ظهر حسن الثاني فجأة ؟ لعله مدسوس علي . لعله يروح ويجيء في المدينة ليسيء إلى سمعتي وهو

يتحـدث فصيحـة مقعـرة تثـير ضحـك النـاس . ألم يخـرب عـلاقتي مـع بلقيس ؟

وعنَّ لي أن أدخــل إلى مكتب شعـلان . وأســألـه إن كــان حسن الثـاني ، أقصـد ذيب الثـاني . . أسـاء إلى سمعتي . لم أرغب في ذلــك ، لكنني وجدت نفسي فجاءة أطرق باب شعـلان . السكرتيـرة رفعت عينين دهشتين وقالت انه مشغول . لكنني دفعت البـاب ودخلت . رفع شعـلان عينيه دون أن يرفع رأسه .

بادرت إلى القول :

ــ سيـد شعلان . أحب أن أسـألك إن كـان حسن الثاني . أقصـد ذيب الثاني قابلك . وإذا كان قابلك أحب أن أسألك إذا كـان حاول أنـو ينتقص من عقـلي الخالص . يعني حكى معـك حـول ضـرورة التجـلي ، والخـروج على النـاس بـالإشـارة والعـلامـة . وانني في المستقبـل سـأركب السحـاب ، وأزجي الريـاح و . . لأني سيد شعـلان أعتقد أنـه يحـاول أن يسيء إلي بتصـويري « رجـال » يؤمن بالخـرافات و . . . أعني أن المشكلة تكمن في الأقنعة يا سيـدي . الكل يلبس أقنعـة مزورة هـذه الأيام . كـل ذيب يلبس قنـاع . حسن الثاني يلبس وجهي . وأنـا أريد أن أحـافظ على لقمـة عيشي يا أستـاذ . وهو يسيء إلي . أنت مثـلاً . . أنت مـزور . أنـا بسـألك إن كنت مـزيفاً . أنـا ما بعتقـد إنـك مزيـف . لأنـك قلت انـك سقـطت لأنك تعبت ولأنـه صـار عنـدك مليـون ليـرة . غيـرك بقـول انـو « تـرك » لأنو العصبـة ما مشيت مثـل ما بـدو . انت على الأقـل ، بتقـول إنـك سقطت لأنـك ساقط . وهـذا هو العقـل الصرف . العقـل الخالص لا يعرف مشاعر الذنب والخجل أستاذ . لا يتصنـع . حرّ حرية مطْلقة. أنا مثلاً رح إتزوج بلقيس زواج مدني . ليش ؟ لأنو . .

قاطعني شعلان وهو يرفع وجهه الذابل في دهشة :

ـ أستاذ حسنين . أرجوك . أنا مشغول هلق .

في تلك اللحظة بالذات ، دخل حسن الثاني دون أن يطرق الباب ويستأذن . ودنا من المدير بخطى واثقة . ثم انحنى على مكتبه . وسأله إن كان هو مدير وكالة السيارات ، ووكالة المشروبات الروحية والتلفزيونات ووو . . .

قال المدير وقد أبرقت عيناه :

ـ نعم .

أطلق حسن الثاني صيحة غضب ، وضرب بقبضته على طاولة المدير ، فطار قلم المدير ، وطارت القهوة من فنجان قهوته ، وانتشرت على الأوراق . صرخ حسن الثاني :

ـ والخيل يا سيدي ؟ الخيل . هويتنا وأصالتنا .

ضاعت لقمة العيش ، قلت في نفسي . فتحت فمي لأحتج ، لكني لم أقل .

قال حسن الثاني مطلقاً ضحكة مجلجلة :

ـ هذا ليس حسنين يا أستاذ . ولا هو حسن الثاني أو الأول . هذا الرجل الذي يقف أمامك الآن هو ذيب السابع ـ أحد انشطارات ذياب وتجلياته ـ هذا الرجل المهيب الرهيب الذي ارتفعت قامته في السماء ، وامتد جسمه في الفضاء هو ذياب بعينه . انه يدعي أنه حسنين . يحسب أنه اثنين . لكنه ألف ذيب وذيب واحد يا أستاذ .

صعقت . هل يكون ذياب قد سكنني . هل يتوحد الضحية والجلاد ؟

* * *

وقالت بلقيس انها تحب فزاع وتخافه في نفس الوقت . وكنا نقف

في الشمس بانتظار سرفيس . وسألتهـا لماذا تخـافه . قـالت لأنه لا يخـاف الآخـرة . وكنت أعـرف أن حسن الثـاني . . عـلى الـرغم من صعلكتـه يخـاف الآخرة . ورفعت يـدي مشيراً إلى السـرفيس أن يقف . فتـوقف . وركبنـا . وصمتنا حتى لا يسمـع السائق حـوارنا . وحـين هممت أن أدفع عنها ، رفضت . ودفعت عن نفسها . ونـزلنا في منتصف البلد . وسـألتها وأنـا أشعل سيجـارة ، إن كانت تشعـر بالحـرج لأني أمشي إلى جـانبهـا . فهزت رأسها ، ولوت شفتيها . وقالت :

ـ مهو . . ما حدا شايفك .

وتجاهلت مـلاحـظتهـا ، وذكـرتهـا بـأنها هي أيضـاً لم تكن تخـاف الآخرة . فأشاحت وقالت :

ـ كنت جاهلة . . ثم هداني الله .

وسـألتها إن كـان الله قد هـداهـا بعـد أن عـاشت في أمـريكـا مـع زوجها ، وصدمتها الحياة هنـاك ، يعني التفكك والانحـلال و . . قلت . فأنكرت ذلك . ودلفت إلى مكتبة ، فتبعتها .

ومن النـظرة الأولى اكتشفت أن المكتبة متخصصـة في الكتـب الدينية . . والفلسطينية . قرأ صاحب المكتبة ملامحي . فقال :

ـ هـذا الماشي هـلأ . الناس بـدهـا تقـرأ كتب دينيـة . والمنـظمـة تشتري ألف نسخة من كل كتاب بيحكي عن القضية .

وحين تمعنت في وجه صاحب المكتبة . . تذكرتـه . قلت انني رأيت هذا الوجه من قبل . التفتت بلقيس دهشة وسألت صاحب المكتبة :

ـ شو . . عم تحكي مع حالك ؟

ابتسم ظناً منه أنها تمازحه . وقـال انه يحكي معي . قـال مشيراً إلي بإصبع نحيل طويل :

ـــ مع الأخ .

فتساءلت كالمشدوهة :

ـــ وأنت كمان شايفه ؟

عطفت وجهها نحوي وقالت متسائلة :

ـــ شو . . انت بتطلع لناس وناس ؟

وعندما قلت لها انني موجود مثلي مثل غيري . تفرست في وجهي بدهشة . ثم تهلل وجهها . وانطلقت من بين شفتيها ضحكة على الرغم منها . إلا أنها سارعت وكتمتها . وسألت البائع عن كتاب « جامع كرامات الأولياء » .

وحين خرجنا إلى الشارع . قالت انها ترتاح لكوني شبحاً . وتساءلت عن السبب الذي يدفعني إلى الإصرار على نفي شبحيتي . وقالت انني لو كنت إنساناً من لحم ودم . . لما مشت معي ، ولما نشرت علي أسرارها ، وباحت لي بمكنونات قلبها . وما زالت تحاججني حتى كاد حسن الثاني أن يقتنع بأن (شبحيتي) ، امتياز نتمتع به . أقصد نحن : حسنين .

ودعت بلقيس ومشيت وحسن الثاني بقدمينا . اشترينا ساندويتش من الفلافل . ولم ندر ماذا نفعل . . فدخلنا مسرحاً وقال حسن الثاني انه سيلعب دور « أبو ذر الغفاري » . فقلت لحسن الثاني ان الحياة تمثيلية مفجعة ، وانه ليس سوى ممثل وانني أتفرج عليه من مقعدي بين المتفرجين . وقام حسن الثاني ووقف على خشبة المسرح . وهو يأكل الساندويتش . وصاح المخرج الذي يشبه الدكتور وقال إن حسن الثاني يخرج على النص . وأشار له أن يقف في مكان آخر من المسرح - في مكان هامشي - فأطاع . . وكنت أتفرج . أراقبني بحياد وسلبية ، إذ انني لا أفهم بالمسرح ، ولا أميل إليه . ربما لأننا نحن العرب ، نفتقر إلى تراث مسرحي كما يقولون .

وقـال حسن الثـاني محتجـاً ، انـه لا يـرغب في أن يلعب دور بـطل تراجيدي . فرفع المخرج يديه نحو شعره . وراح يشده . وصرخ :

ــ أنت مش مخير . في عقد . في محاكم . في حكومة . في دولة .

وسقط رأس حسن الثاني على صدره . وقال :

ــ بس البطولة المظبوطة هي التمرد على الدور المرسوم .

لطم المخرج خـديه . فنهضت من مكـاني . وسعيت إليه . وأنبـأته أنني أشبـه حسن الثاني ، وأنني أعـاني من البطالـة . وأنني مستعـد للقيـام بالدور الذي يرفض حسن الثاني التقيد به .فزعقت في وجهي :

ــ يا خاين .

فدافعت عني قائلاً ان هذا الموقف ليس خيانـة ، وإنما هـو مواجهـة الـواقع بعقـل بارد منـطقي . واعترفت لحسن الثـاني أن لا شعوره يسيـطر عليـه تمامـاً . وأن لا وعيه الجمـاعي يغلب عليـه . تلك هي مصيبتـك . قلت .

ثم طردنا المخرج من المسرح . وقال ان أعصابه تعبانة . وقال :

ــ تعالوا بكرة .

وساءلت نفسي موجهاً كلامي لحسن الثاني :

ــ ليش . . كـل ما بشـوفه وبسمعـه بحس إني شفتـه أو سمعتـه في حياة سابقة ؟

لم يرد . كان مبـوزاً وحردانـاً ، ويمشي بسرعـة كأنمـا يريـد أن يهرب مني . وكانت يداه في جيبيه ، وظهره محنياً ، ورأسه مائلاً نحو الأرض .

وهتفت به من بعد :

ــ وين رايح ؟

فقال انه ذاهب ليسكر . قالها دون أن يلتفت إلي .

وعـدت إلى الحـارة ، وأنـا أقـول لنفسي : لـولا الحجـر الصحي المفروض عليَّ . . لهاجرت .

لكن المؤسسة العربية الواحدة لمكافحة الأوبئة ترفض أن تمنحني شهادة صحية ، وخلواً من الأوبئة المعدية .

* * *

ويلقيس كانت تشاهـد فيلم فيديـو . وتغمض عينيها عنـد المشاهـد الحـرجة بين رجل وامـرأة . ودخلت أنا وكـان الباب مفتـوحاً . فسـألتني دون أن تلتفت إلي :

ـ شو . . دخلت من الحيط ، ولا نزلت من السقف .

وأقبلت أم سليمـان . مشرقـة الوجـه والنفس جميعاً . وسـألتني عن الجنـة والنار . فبـادرت بلقيس وقالت لهـا ان مثـل هـذا السؤال حـرام . وطلبت من أمها أن لا تحرجني مـرة أخرى بمثـل هذه الأسئلة عن الغيب . وأكـدت لهـا أن القـرآن الكـريم أجـاب عن كـل التسـاؤلات . وعـادت تتفرج على الفيلم .

ودخـل ابنهـا الصغـير . وشـدني من بنـطالي وأمـرني أن أبلغ والـده المرحوم عتبه عليه . قال :

ـ ليش أنت بتزورنا وهو ما بزورنا .

وهنا دخل حسن الثاني وقال لي ان النـاس نيام فـإذا ماتـوا انتبهوا . وانهم ذهبوا في غفلة مثل أهل الكهف .

فقلت لـه همسـاً ، انهم يعتبـروننـا شبحـاً ، وانهم هم الأحيـاء . فقال :

ـ قد ضربوا على آذانهم في نومهم سنيها عدداً ، ويحسبوننا شبحاً وهم في غفلتهم سادرون .

التفتت بلقيس نحوي ، وسألتني إن كنت أكلم أشباحاً آخرين ، ثم عادت تيمم نحو الشاشة الصغيرة ، دون أن تنتظر جواباً .

وقامت أم سليمان إلى غرفتها . ثم عادت وهي تحمل ورقة طويلة . ناولتني إياها وقالت انها كتبت عليها كل أعمال البر والتقوى التي قامت بها . . حتى لا تنساها . وانها تقرأها كل يوم لتحفظها تحسباً ليوم الحساب . ثم مالت نحو أذني وتمنت علي أن ألفت أنظارهم « هناك » إلى هذه القائمة من الآن .

وأشارت بإصبعها إلى السقف . حين قالت « هناك » .

وقالت بلقيس ان فزاع يفزعها لأنه ينظر إلى الماضي بعيني مستشرق . وقالت انها تتنشق فيَّ رائحة غريبة . وانها لا تستطيع أن تقرر إن كانت رائحة مسك الجنة ، أم دخان جهنم . وسألتني أن لا أخبرها أي الدارين حللت . وقالت ان الطفرة غير المنظمة التي بدأت بعد ١٩٧٣ ، ما هي إلا امتحان عسير للعرب . . سقطوا فيه . وان العقاب سيلاحقنا أينما حللنا . وأشارت بكلمات مبطنة إلى ظواهر شاذة شوهاء ، واعتبرتها نتيجة للطفرة ـ الامتحان . وأكدت لي أن الله شديد العقاب . وقالت انه بوسعي ـ باعتباري طيفاً يستطيع أن يكون غير منظور ـ أن أدخل بيوت الناس في المناطق الراقية من خلال الجدران ، أو السقوف . . وأرى بنفسي .

وكدت أقول لها :

ـ مش معقول . انت بتمزحي .

لكني لم أقل .

وكانت أم سليمان قد رجتني أن لا أرفع تقريراً « إليهم » ،

وأشارت إلى السقف ، عن حركات اسكندر المشبوهة . قالت :

ـ حرام .. مضطر . . عندو ولاد بدهم يعيشوا . .

وكنت أعرف أن أحد أبناء اسكندر في السجن بتهمة سياسية . والثاني مقاتل في إحدى فصائل المقاومة . لكني كنت أعرف أيضاً أن الإنسان مجرد إنسان . وأن كونه والد مناضلين لا يجعل منه بالضرورة قديساً . . ولا يجعل منهما أيضاً سوبرمانين خارقين . ـ كما يريد بعض مثقفينا المحليين للبطل الإيجابي أن يكون ـ .

* * *

وهبطت من شقة أم سليمان . فتبعني حسن الثاني أعني الشبح . وقال انه يتشهى بلقيس . فتوقفت عند منتصف الدرج . والتفت إليه ، سألته إن كان صعلوكاً أم زاهداً . كنت حائراً فيه . فقال انه يتمتع بطاقة صعلوك جبار خارق ، وانه يخشى نفسه . . يخشى هذه الطاقة الهادرة فيكبحها بالإيمان .

جاوزني . وهبط إلى بيتي وفتح الباب . دخل ، فتبعته . قال اجلس على هذا المقعد لأحكي لك حكايتي مع الحسناء وبرميل الخمرة . وقال ان حسناء وعدته أن تسلمه جسدها إن استطاع أن يأتي على ما في البرميل بجرعات ثلاث . وكانت ترغب في الهزء منه ، وترمي إلى الضحك عليه . قال :

ـ فأتيت على الخابية الهائلة بجرعة واحدة . . ونمت معها كسيارة بقوة ألف حصان .

ثم علق بأسى :

ـ أنا طاقة محض لولا الإيمان . طاقة مدمرة . وكنت مغبراً ورائحتي قاتلة .

وكنت قد كتبت بحثاً حول الطاقة . وأرسلته إلى الأمين العام للجامعة العربية . وشرحت له فيه كيف أنني قادر على تفتيت الطاقة . وأنني قادر على إنشاء « مفاعل سرابي » يتحول السراب داخله إلى طاقة تغييرية . مثلما تتحول المادة إلى طاقة داخل « المفاعل الذري » ، وذلك بانشطار نوى ذرات اليورانيوم انشطاراً متسلسلاً ، يستمر تلقائياً . إن وظيفة مفاعلي السرابي ، هي نفس وظيفة المفاعل الذري ، فكما تنشطر نوى ذرات اليورانيوم داخل المفاعل الذري ، تنشطر نوى ذرات المادة السرابية داخل مفاعلي السرابي . وهذا ما أنجزته فعلاً بعد انهيار الظافر والقاهر ، وضرب المفاعل النووي العراقي . . وصدور كتاب « خريف الغضب » .

وفتحت النافذة فسمعت لغطاً ينطلق من الشقق المجاورة :

ـ مش عارفين إنام .

ـ الشبح اللي ساكن العمارة هو المسؤول .

ـ بيقولوا إنو بيسرق النوم من العيون .

ـ وبيزرع الأرق والقلق في الرؤوس .

لاحظت قطعة خبز ملقاة على الشارع . هرعت من فوري . رفعتها عن الأرض ، قبلتها ـ لأنها نعمة ـ ثم مسحت جبيني بها ، ووضعتها على جدار مرتفع . وحين هممت بالعودة إلى البيت شاهدت حذاء مقلوباً . فسارعت إلى تصحيح وضعه واستغفرت .

ثم عدت إلى كتابة البحث الذي يتعلق بالثورة التكنولوجية الثانية . . وبنوك المعلومات .

* * *

رأيت علاء الدين يهمس في أذن اسكندر . أرهفت السمع ، فلم أتمكن من تمييز الكلمات . انهما يطبخان شيئاً . يحيكان مؤامرة . أقرأها

في وجهيهما ولا أدرك تفاصيلها . أراهما من وراء زجاج نافذتي . منذ أيام لم أغادر جحري هذا . العالم لا يفهمني ، وحسن الثاني يحجرني . لعلهم جميعاً نيام وأنا اليقظ الوحيد . لا أدري . دخلا إلى الكفتيريا وهما يتضاحكان . علاء الدين ضرب كفه بكف اسكندر .

وأنا هنا في جحري ، أخاصم العالم الخارجي . فزاع جاء مراراً . حثني على الخروج ، رفضت وتأبيت معانداً . مرة شدني من كم قميصي ، قال ينبغي أن تخرج إلى العالم . أن تحيا . قلت لا أريد . الحياة تمثيلية مفجعة وأنا أفضل التفرج . أتفرج على مصائركم ومصيري من موقعي في صالة المتفرجين . وتمزق كم القميص من ناحية الكتف . وخرج فزاع غاضباً يبربر .

بلقيس قرعت بابي مرتين . قالت انها تعرف أنني في الداخل . قالت افتح نتشارك في كآبتنا . ولكني لم أفتح . لذت بركن مظلم في الصالة . ثم تسللت إلى الحمام ، واختبأت . لعل « نبوخذنصر » أرسلها لتدس السم في طعامي . ولعله بريجنسكي ، أو الحجاج ، أو حسني الزعيم ، أو « بينوتشيه » الذي رقص على جثة « اللندي » .

جلست أنا والكآبة وحيدين . هي سوداء زنجية ، وأنا لا لون لي . كمصباح شاحب . وأقبل الليل ثقيلاً يجرجر خطاه كأنه مل من مهمته السيزيفية . يقبل كل مساء فما ان ينتشر ويكاد أن يبلغ ذروته حتى يخبو ثم يتلاشى . أقبل ينفخ بضجر ، الليل أعني . وأورقت الأنوار في المصابيح . المصابيح عيون تتجسس على الليل من وراء الشبابيك . وهو يمر غير مبال . لا يلتفت . يجثم . . ثم ينهض ويختفي . وعن صهوة الريح الباردة ، تترجل الظلال ، أناخت راحلة الظلام ، عقلتها ، وانتشرت في الأزقة . فجأة تناهت إلى مسمعي أصوات خلف بابي . خفق نعال وضحكات محمومة ـ بينها ضحكة أنثى ـ أرهفت السمع ، وسعيت نحو الباب بخطى خفيفة ، كأني أمشي في الهواء .

سمعت صوت علاء الدين يهمس :

ـ هذا بيت مسكون .

جاء صوت أنثى :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . امشوا نرجع . لا تناموا بين القبور فتشوفوا منامات مزعجة .

ثم سمعت ضحكة اسكندر تجلجل .

أدركت أنهم سكارى . تمة أصوات أخرى لم أميزها . أصوات رجال أثقلت الخمرة ألسنتهم . قال اسكندر :

ـ ولا يهمكم . أنا معي حجاب ضد الأرواح الشريرة .

وقال علاء الدين وهو يضحك في عبه ويكركر :

ـ صاحبنا « حنا الماشي » . . خير سلاح ضد الخوف .

وقال رجل لبناني :

ـ ليش الشيخ « توما » والشيخ « غنطوس » من شو بيشكو ؟

وفرقعت ضحكة المرأة .

ولهولي سمعت مفتاحاً يدور في مزلاج حجري . ارتبكت . تلفت حولي . استنفرت غريزة الاحساس بالخطر لدي . اندفعت نحو الدولاب . فتحت بابه ، اختفيت فيه .

رأيت أشباحهم وهم يدخلون . قال اللبناني :

ـ شو باك يا اسكندر . اضوي الضو .

وقع اقدام ، وهمهمات . قال اسكندر :

ـ ما في كهربا .

ــ هاي مثل بيروت . متل الملاجىء .

ــ أنا بجيب شموع . أحسن . . حتى ما ينتبه حدا .

وقفوا لا ينطقون . وأنا من ثقب الدولاب لا أراهم . ثم جاء اسكندر حاملاً الشموع . لم أره ، أحسست به يدخل . عود ثقاب يحتك بعلبة الكبريت .

هتفوا جميعاً :

ــ هيه . . هيـ ي . . ي .

ثبتوا ثلاث شموع على الطاولة . وواحدة في المطبخ . بت أرى أشباحهم بوضوح . ظلال تتوهج .

هتف اسكندر وهو يترنح مع ترنح شعلة الشمعة :

ــ مش قلتلكم . ما في حدا . الأشباح بالليل بتروح على المقابر . يمكن . فأنشدت المرأة بصوت خشن :

ــ ما في حدا لا تندهي . . عتمي وطريق و . . .

ونهض الرجل الثالث اللبناني وقال :

ــ في تلج في البراد ؟

قال رجل رابع يعتمر كوفية بيضاء ، ويرتدي جلباباً أبيض :

ــ أكو عيني . . أكو . . خوش .

وظهر اسكندر وهو يحمل وعاء فيه قطع ثلج . بينما استخرج علاء الدين من كيس ورقي زجاجة ويسكي وزجاجتي عرق ، وكيسين من النايلون ، لا شك في أنهما يحتويان على « تسالي » . ثم استخرج من كيس آخر برتقالاً وتفاحاً . وقال :

ـ قشري ازا سمحتي يا صاحبة الصون والعفاف . هيء هيء هيء .

قال اللبناني انه لا يعرف بعد مناسبة الاحتفال . أشعل اسكندر سيجارة من شعلة الشمعة . نفخ وقال :

ـ عمك علاء الدين صار عزابي . مرتو سافرت .

تصفيق .

ظلال تروح وتجيء . وتضطرب . ثم تستقر جميعاً على كنبات حول الطاولة .

رفع اسكندر كأسه وقال :

ـ نخب العزوبية .

جرعوا جرعة سريعة . ثم نحوا الكؤوس . رفع علاء الدين كأسه وقال :

ـ نخب العبث .

ضحكوا . قال اللبناني :

ـ بخربيتك . مثقف ؟

وقال الرجل الرابع معلقاً :

ـ خوش .

عرفته من صوته . لم أره . شربوا ، ثم صبوا ثانية .

خشخشة ، وصمت واهن ، ثم زفير . رفع اللبناني كأسه وقال :

ـ نخب الانقراض والفسيفساء .

ضحك علاء الدين وقال :

ـ يا ملعون . انت المثقف . . وأبوك .

وقال اسكندر :

ـ أنا مش فاهم انتو عن إيش بتحكو .

وقالت المرأة :

ـ نسينا نجيب كاسيت لأم كلثوم أو وردة الجزائرية .

ـ مهو مفيش كهرباء .

ـ آه . . نسيت .

ـ نسيت كيف انسيت . . ما بتذكر شو حكيت . . تم . . تم . . تم . .

ونقر الرابع على الطاولة مجارياً إيقاع الأغنية .

ـ طيب . . في في العالم مسجلات بتشتغل على البطارية .

ـ معنا هون أحسن بطارية في العالم .

وأشار اللبناني إلى مكان لم أره من جسد المرأة .

بدأت أشعر بالاختناق . لا بد وأن يكون وجهي محتقناً . ولماذا أخرجوني من دائرة حفلتهم ؟ يغزون بيتي فأختبىء في الخزانة ، غير معقول . سأخرج حالاً وانفجر في وجوههم ، واطردهم . سأقول لهم . . هذا بيت رجل محترم . ورفعت يدي نحو باب الدولاب إلا أني سرعان ما استرجعتها ، إذ خفق قلبي خفقاً متلاحقاً فحسبت أنني سأصاب بالجلطة . الوحدة تضغط على صدري . لم لا أخرج وأشاركهم مسراتهم الخفيفة ؟ وكنت أسمع فصفصة بزر . وتقشير فستق . لا بد أنهم يرمون القشور على الموكيت . لا . هذا كثير . يجب أن أتدخل . ولكن ما ان جمعت شجاعتي ، وقر قراري على الخروج من الدولاب ،

ومفاجأتهم ، حتى تخاذلت قواي . تخيلت نظرة الرعب في عيونهم . أحسست بلذة حادة في البداية ـ حين تخيلت رعبهم ـ لكني سرعان ما ارتعدت فجمدت في مكاني لا أزول ولا أميل .

ضحكة فاجرة .

نظرت من الثقب . دخلت المرأة إلى غرفة نومي . ودخل وراءها علاء الدين . صفقا الباب خلفهما . لا . . هذا كثير . يفوق احتمال الطاقة البشرية . يجب أن أفعل شيئاً . لكنني لم أفعل . أحسست بحاجة ملحة إلى سيجارة . لكن علبة سجائري ليست معي . ثم إن قمصاني وستراتي تزاحمني . المكان يضيق ويضيق ويضيق . .

بغتة فتح باب غرفتي وخرج علاء الدين وحيداً . كان يمشي بتثاقل . مشية مكتئب خائب . انتفض اللبناني من مكانه ودخل إلى غرفة نومي وهو يفرك يديه .

قال اسكندر هامساً :

ـ ها . . كيف يا علاء ؟ بضاعة نظيفة ، مش هيك ؟

لم ينبس علاء بكلمة . سكب كمية كبيرة من الويسكي في كأسه . ولم يضع ثلجاً ولا ماء . ثم أتى على كأسه بجرعة واحدة . وجمد في مكانه ، لا يقول ولا يومىء . كأنما يعتزل الصخب الذي كان فيه ، ويدخل في شرنقة كآبة .

فقال الرابع :

ـ خوش . .

واحتسى ، منتظراً دوره .

والعرق يتصبب من جبيني وعنقي . والرغبة في الجلوس . . مجرد الجلوس مع أي كان ، تتأجج في صدري . وراح اسكندر والرجل الرابع يغنيان :

ـ يا مرتكي على السيف . . سيفك جرحني يا قلب ويلي .

وكان الرجل الغريب ، ينقر بكفيه على طرف الطاولة ، وقد أخذه الطرب . وعلاء الدين يرشف من كأسه في صمت . وينفخ دخان سيجارته فيما يشبه التنهد .

بغتة خرج اللبناني محدودب الظهر . وخرجت المرأة في أثره . سعت إلى الحمام . بينما ترامى هو على الكنبة . قطع اسكندر والآخر أغنيتهما وسألاه بفضول واضح :

ـ هاه ؟

لم ينبس . قال اسكندر :

ـ احكي . مالك ؟ كيف ؟ زي ما قلت لك والاّ لأ ؟

وأنا أختنق بالوحدة ، وأذوب في الوحشة . قال اللبناني بصوت محايد :

ـ لنلعب الورق .

ـ ما في شدة .

ـ أف . .

وعادت المرأة . لمحت إشراقاً في وجهها . هم الرجل الرابع بالوقوف . فبادرته قائلة :

ـ بدي أستريح . شو أنا آلة ؟ هات سيجارة .

أحسست بحاجة ملحة للذهاب إلى المرحاض . حاجة . . لا أستطيع إنجازها في الدولاب .

وترامى صوت المرأة :

ـ الناس بيفكرونا ماكينات .

هذا مقرف . مثير للاشمئزاز . ينبغي أن أتدخل . خطوة واحدة وأكون بينهم . خطوة . . والعرق يتصبب من وجهي ولا أجففه . .

حل صمت ثقيل . أحسسته . . لمسته . قطعه اسكندر فقال :

ـــ بردانين ؟
قال آخر :

ـــ إمبارح كانوا اسناني بيوجعوني . . لكن مش عم بعرف نام . مش من وجع الأسنان . لأ . في شي مش عارفه . في شي عم يقلقني . . بس مش عارفه .

وتناهى صوت :

ـــ لو في تلفزيون . اليوم في حلقة عن . . .

ـــ أنا كمان مش عارف نام . بيقولوا انو الشبح بينشر وباء معدي . وباء قلق وأرق و . . وعشان هيك حجروا عليه .

ـــ بلا أرق بلا بطيخ . .
ـــ كله في المواني يابا . .

العرق يتصبب من صدري وظهري وعنقي وجبيني . أدركت أنني لن أغادر الدولاب أبداً . ولكن في تلك اللحظة المظلمة ، أي حين اقتنعت بأنني عاجز عن مغادرة الدولاب ، ومفاجأتهم ، عثرت على نفسي أدفع الباب الدولاب . . وأخرج .

انتصبت وسطهم مثل مارد خرافي ، مثل جني خرج فجأة من قمقمه . فتحوا أفواههم ، ورأيت الرعب يطل من عيونهم ثم يتراجع كرأس سلحفاة .

هتف اسكندر مغالباً ذهوله :

ـــ شـو جـابـك ؟ مستلبسنـا ! أنـا فكـرت الأشبـاح مـا بتـطلع في الليل .

ندت عن المرأة آهة فزع وقالت :

ـــ يخـرب بيتـك يـا اسكنـدر . مش أنـا قلتلك إنـو هـادا البيت مسكون .

وانتفض اللبناني كأنما يرى كابوساً وقال معاتباً اسكندر :

ـــ لك يا زلمة الأشباح أصلاً ما بتطلع إلا بالليل .

هز الرابع رأسه وقال :

ـــ أخاف « يئذي » !

اغتصب اسكنـدر ابتسامـة وقال مـطمئناً الجميـع وقد اتخـذ كـلامـه لهجات عديدة :

ـــ لأ . . خـوش شبـح عمي . . مـا « يئـذي » . هـذا شبـح مثـل « كاسبر » الـلي بيطلع في أفـلام الكرتـون . شبح طيب . يمكن زهقـان . تعال إشرب كاس معنا يا حسنين .

ـــ تعال .

قال ذلك وكأنه يدعو قطة لشرب كوب حليب .

علاء الدين ظل متماسكاً . قال :

ـــ يـا جماعـة . يا جمـاعة . حسنـين كان جـدي ودغري أكـتر من اللزوم في حيـاته . يعني قبـل ما الله يـاخـذ وداعتـه . بـركي حـابب هلق يعوض ما فاته في حياته . شـم ريحة قعده وهيصـة ، وحابب يقعـد . والاّ لأ يا حسنين . بس ليش كنت في الخزانة ؟

ضحك اللبناني وقال بين الخوف والدعابة :

ـ بركن مفكر حالو بنطلون . أو شلحة ؟

لم يضحك أحد .

قام اسكندر وأخذني من ذراعي ، وأشار إلى كنبة . قال :

ـ اقعد يا شيخ . اقعد خدلك كاس .

كنت أقف جامداً ذاهلاً ، مزروعاً في مكاني . لم أقاوم ، تداعيت على الكنبة .

اشتعل الفضول في الوجوه الكئيبة الكابية فأضاءها .

ـ ها . . هات ما عندك .

تنحنحت . ثم تململت في مقعدي وجففت عرقي بكم قميصي ثم قلت بصوت واهن :

ـ انتم الأشباح . . وأنا الحي الوحيد .

هتف اللبناني مكركراً :

ـ كيف هالحكي ؟

سكب لي علاء الدين كأساً وهو يغالب ضحكه . فلكزه اسكندر وقال زاجراً :

ـ للأموات حرمة .

اتقدت عيناي بشرر أحسست بأواره يحرق وجهي . والمرأة تتأملني بعينين واسعتين ، فيهما رعب ، وفيهما رغبة .

تناولت كأسي بيد مرتعشة ، وقلت بصوت واهن :

ـ انتو عارفين إني مش شبح . وعاملين حالكم مش عارفين . لأنكم ضحايا . ضحايا « بريجنسكي » . أما أنا فمش ضحية . لأنو أنا

بعرف . أنا اللي شفت . والحرية هي إدراك الضرورة .

أرسل اللبناني ضحكة كادت تقلبه على قفاه . بدا مستمتعاً . قال :

ــ حتى الشبح مثقف . شوها الشغلة .

زجره اسكندر :

ــ لا تقاطعوه .

قلت وأنا أسكب كأسي الثاني :

ــ انهم يصلون إلى منازلكم . إلى غرف نومكم .

قاطعني اللبناني قائلاً :

ــ شو مالك بتحكي بالفصحى يا عمي . شو قصتك ولوو . . .

وقالت المرأة وهي تغطي جسدها شبه العاري بغطاء السرير :

ــ مين هدول ؟ كائنات من كوكب في الفضاء ؟ اللي بوصلوا لغرف نومنا يعني . . والاّ قصدك أشباح ؟. والاّ الشرطة ؟ وإلا قصدك الطائرات الاسرائيلية ؟

لم يضحك أحد . فتشجعت . قلتُ لي : بدأت أسيطر عليهم . وبدأت أكتسب إعجاب المرأة .

ما كنت أرى ملامحهم بسهولة . ظلال . . تتوهج شعلة الشمعة فأكاد أميز ملامحهم ناقصة . ثم تخبو فلا أرى سوى ظلال تكتنفني . . وأنا الوضوح . بدأ رأسي يدور مع الكأس الثالث . وبينما كنت أجرعه لأستنبت من الخمرة جرأة . سألتني المرأة :

ــ مش انتَ اللي هاجمت مرة محل ببيع أجهزة تلفزيون أميركية ؟

وهنا وقفت تياهاً مزهواً ورحت أذرع الصالة بمشية فيها الكثير من الاختيال والاعتداد . قلت :

ـ نعم أنا وهذا بيت القصيد . بريجنسكي ـ أيها السيدات والسادة ـ أقصد « زبيجينو » ، (سمعت ضحكاً مكتوماً لم أتبين مصدره بالتحديد) زبيجنو بريجنسكي بَشّر بأن يحول العالم إلى مزرعة للكابوي . هل تعرفون معنى الكابوي : راعي البقر . هذا الراعي صاحب نبوءة . فهو يتنبأ بأن العصر القادم هو العصر التكنو ـ إلكتروني . لا بل ، هو يقول اننا دخلنا هذا العصر . فبواسطة التلفزيون عبر الأقمار الصناعية والتلفون الأوتوماتيكي سيصبح في مقدور أمريكا وصاحب مزرعة الفستق (كارتر) ـ هذا قبل راعي البقر ريغان ـ أن تغزو المنازل الخاصة في البلدان الأخرى ، خاصة النامية النائمة . بل سيصبح في مقدور الأقمار الصناعية البث مباشرة لأجهزة استقبال دون محطات وسيطة تستقبل وتعيد البث ثانية . وتنبأ بأن الأجيال الجديدة ستدخل مزرعة الطاعة الأمريكية عن طريق الاتصالات السمعية والبصرية ، أي الراديو والسينما والتلفزيون والفيديو . لأن لغة العالم لن تعود الكلمات ، بل الصورة ، وهي لغة عالمية . إن بريجنسكي ـ سيداتي سادتي ـ يبشر بظهور عالم واحد . عالم أمريكي . تصوري يا سيدتي ملايين الجائعين من سكان أفريقيا والصحارى والأدغال . . الأميين ورعاة الإبل والماشية ، الذين لا يعرفون الكتابة والقراءة . . تصوريهم ، وهم يجلسون بالعشرات في خيمهم ، وبيوت شعرهم ، وكهوفهم ، وعرائهم ، يشاهدون « باباي » و« ميكي ماوس » و« جي ، آر » دالاس ، وريغان ، وماكنرو ، ودعايات كانتاكي تشكن . . وهم في نفس الوقت يجهلون اسم عاصمة بلادهم ، واسم رئيس دولتهم . أية فجيعة ؟

وهنا توقفت لألتقط أنفاسي . وأتأمل ردود الفعل في الوجوه .

خاصة وجه المرأة . فاكتشفت لهولي أن المرأة نائمة . واسكندر يرسل شخيراً متصلاً . ما إن صمت لألتقط أنفاسي حتى قال اللبناني بضجر :

ــ يا عمي ما عندك تلفزيون ؟ شبعنا خطابات . بدنا نشوف تلفزيون . ليش ما في كهرباء ؟

ساورني شعور مزعج بأنهم متواطئون . فصرخت بصوت أيقظ المرأة واسكندر فانتفضا فزعين :

ــ هذا بالضبط ما يريدون لكم . . تلك هي المسألة . اما أن نتفرج ، أو نقوم بأدوارنا أو . . . وهنا تدخل حسن الثاني كالعادة ليفسد كل شيء بنيته . فحل محلي وقال بصوتي :

ــ ولكن صُمت الآذان ، وغُلِّقت القلوب ، وعميت الأبصار . فقد اشتريتم الضلالة بالهدى .

كنا أتكلم والعرق يتصبب من جبينه ، وأنا لا أجففه . والقوم فتحوا افواههم نصف فتحة ، كأنما ينكرون ما يسمعون ، وينكرون ما يبصرون . كأنما وقع عليهم كلامي وقوع البلاء العظيم . فانشرحت نفسي ، وأشرق وجهي ، ودهمتني غبطة لاذعة . فاستأنفت كلامي وأنا أذرع الغرفة وألوح بذراعي :

ــ إن الصراع الجوهري في العالم ـ سيداتي سادتي ـ هو بين رعاة البقر ـ أي هم ـ وبين رعاة الإبل أي نحن . وهو صراع وجود ، لا صراع حدود . صراع بقاء .

ولكن رؤوسكم في الغيب ، وأقدامكم في أغوار الوحل . لقد انتدبت من القدر لأدعوكم إلى السعي لإنشاء تكنولوجيا مضادة . ولحثكم على انتهاج المنهج العلمي . والرؤية العلمانية . الكمبيوتر مثلاً أيها السيدات والسادة : .

في تلك اللحظة . انتفض الرجلٍ ذو الشارب الكث والجلابية البيضاء وقال وهو يتجاهلني تجاهلاً مقصوداً :

ــ ما جا دوري يا صاحبة العفاف والصون . قومي . الجلسة كلها على حسابي .

تثاءبت المرأة . ثم تناهضت بتثاقل وهي تنفخ . وأدركت أنهم يتقصدون تجاهلي ، والحط من معنوياتي . ولكنني تابعت غير هياب ولا وجل . فقلت :

ــ الكمبيوترايزيشن مثلاً . .

قاطعني علاء الدين بأن قال هامساً كالمتآمر :

ــ هش !

ثم دس يده في حقيبة الخليجي . واستخرجها محملة بالدنانير .

العرق يتصبب مني . انهم يتجاهلونني عن سابق تصور وتصميم . صرخت محتداً ، وقد انتفخت أوداجي :

ــ اسمعوها كلمة صادقة . لقد نصحت لكم ما وسعني النصح . وأفصحت لكم ما استطعت الافصاح . لكنكم ذهبتم في الأرض ضلالاً وأعرضتم عن العلم والعلمانية والعقلانية . وذهبتم في أعقاب الظلام جهالاً . أقول لكم لا يواجه بريجنسكي بغير التكنولوجيا المضادة . التكنولوجيا الشعبية . فإذا بكم قد سقيتم كأساً بدلتكم بالنطق خرساً .

وصمت برهة . أجفف عرقي ، وألتقط أنفاسي . فإذا باسكندر واللبناني وعلاء الدين . يستخرجون السيجار من حقيبة رجل الدشداشة . ويعيدون النقود . ثم تتقارب رؤوسهم ويتهامسون . وطرقت مسمعي كلمات مثل :

« شــارع ٤٢ في نيـويــورك » . « وشــارع ١٤ في واشنــطن » . و« ســوهو » و« بيغــال » . لكني لم أيأس . فصــابرتهم وطـاولتهم وتابعت قائلاً :

ــ ولكنكم سقيتم كأساً بدلتكم بالنطق خرسـاً . وبالسمـع صمماً . وبالحركات سكوناً . ما نحتاجه هو العقلية التخطيطيـة التصميمية . هـذه العقلية يجب أن تسود نشـاطات الـدولة ونشـاطات الأفـراد والجماعـات . ومـا أبعد هـذه العقلية عـما روي عن أحـد المستـوزرين في لبنـان من أنـه احتج عندمـا أولي وزارةالتصميم على اعتبـار أنها وزارة ثانـوية لا تتنـاسب ومقامه ومقام طائفته .

وقـاطعتني ضحكات مجلجلة . فـأدركت أنهم يروون النكـات وقـد تجاهلوني تمـامـاً . اقشعـر بـدني ، ورحت أغـلي كـما الماء في المـرجـل . صرخت :

ــ ولكن . . عـلى من تنادي أيهـا المكـابـد . هؤلاء . . لا يفـزعهم ورود الأهــوال . ولا يحــزنهم تـنكــر الأحــوال . . وعــدم استـغــلال الكمبيوترايزيشن استغلالاً . .

هتف اسكندر :

ــ واحد بدو يقطع الشارع . . حمل سكين . هيء هيء .

قلت معانداً مستيئساً :

ــ اننــا نـنــظر إلى الـعلم . . إلى الآلــة . . إلى ثــورة وسـائــل الاتصــال ، بأبصــار العَشْوة ، وعيـون الضريـر . ولكن لا تجتمـع عـزيمـة ووليمة .

هتف اللبناني :

ــ واحد راح على القهوة . . قعد على الشاي .

قال علاء الدين :

ــ قديمة . ومش مضبوطة .

وخرج رجل الدشداشة . وخرجت المرأة في اثره . وصفق الجميع . وراحوا يهتفون :

ــ عاش حسنين .

ودارت الكؤوس ودارت الرؤوس ، وأنا لا أني أدعوهم إلى العلم ، وأحضهم على إنتاج تكنولوجيا تنسجم ومتطلبات الطقوس الشرقية . ولكن يشهد الله أني نصحت وما غششت . فما وجدت سوى الإنكار ، والإتهام بأني أرجم بالغيب ، وأضرب في أودية الوهم والضلال . صرخت مغضباً :

ــ لئن لم تفيقوا من سكرتكم ، وتزجروا غراب جهلكم ، ليبعثن القدر عليكم جنوداً أشداء من بني صهيون . لا تسكن الرحمة نفوسهم ، ولا تعرف الرأفة سبيلها إلى قلوبهم ، يأخذون بناصيتكم ، ويرغمون أنوفكم . فتصبحون حرماً مستباحاً ، وكَلأً مباحاً ، وإذا قصوركم استحالت خراباً يباباً ، وحدائقكم التي ترونها ذات بهجة تضحي عرينات أسود .

قالت المرأة وهي تأتي على كأسها :

ــ أف . . انت دايماً هيك ؟

لكن الآخرين صفقوا لي . وهتفوا مرة أخرى بكل صرامة وحماسة :

ــ عاش حسنين . . بطل ما بين النهرين والبحرين . . والمحيطين . .

وهتف اسكندر والسكر يطوطحه :

ـــ على شنبه وقفوا صقرين .

وصرخ أبو دشداشة :

ـــ يا صلاة الزين .

بعث في قلبي أمل . وقلت لي ـ للأحمق حسن الأول ـ ها قد فعل حديثي فيهم فعل السحر . وها هم يدركون خطورته أخيراً .

بغتة ، اندفع ذو الدشداشة نحوي . وحملني وهو يترنح على كتفيه عنوة . فلحق به الآخرون . واكتنفوني عن يمين وعن شمال . وخرجوا بي محمولاً على الأكتاف إلى الشارع الصامت المظلم الوجه . فأيقظوا الليل .

وأنا أهتف :

ـــ لا للظلام . . نعم للتنوير والاستنارة .

وما زالوا يرددون ورائي الهتاف . حتى أورقت أنوار مصابيح النوافذ ، وأطلت الرؤوس من الشبابيك . وقذفتنا أيدي بأحذية رخيصة . ثم إنا انتهينا في بيت خالتنا عند النقيب « أبو شارب » معقوف .

قال لي النقيب وهو يجهد في فتح عينيه اللتين أوصدهما النعاس :

ـــ أنت مشكلة . مش عارف شو أعمل معك . صاير زبون دائم عندي . . ما شاء الله .

ألقيت اللوم بيني وبيني على حسن الثاني :

وطرد ذبابة عن وجهه . وصرخ :

ـــ هاتوا شاي .

واستأنف حديثه قائلاً :

ــ حيرتني . شو بدي أعمل معك . لا انت بشر زي الناس والعالم حتى احبسك وأضربك فلقة . ولا انت شبح أصيل .

ثم حرك أصابعه أمام وجهي بازدراء وضجر وقال :

ــ روح . حل عني . انصرف .

ثم التفت إلى الشرطي الذي دخل يحمل الشاي وقال :

ــ أما هدول السكرجية فخدهم على الزنزانة . خليهم يتعلموا يعزموني مرة ثانية .

* * *

منذ ذلك اليوم الذي حل فيه حسن الثاني محلي . . وجاء صوت عبد الباسط ليطوح بي نحو حضيض العجز . . وبلقيس تلتزم شقتها . . لا تغادرها . تعتزل في غرفتها ولا تستقبل أحداً ولا تكلم أحداً .

قالت أم سليمان ذاهلة :

ــ شو صار ؟

فقلبت شفتي . قالت أم سليمان ان بلقيس لبست شرعي بغتة . ثوب طويل ، ومنديل يحجب رأسها . ثم حجاب يحجب وجهها ، ثم قفازات سود .

وبدأ بطنها ينتفخ . وكان لا بد من ضحيه .

في قمقمها الذي لا تغادره . . كانت تصلي وتصوم وتكتب . وقد انتبذت بحملها غرفتها النائية .

ضجت الحارة ، وسكان العمارة لاختفاء بلقيس وتواريها . وسرت الاشاعات سريان دفء الظهيرة في الرمال .

بعد إلحاح مني . سمحت لي برؤيتها . وقفت بالباب ذاهلاً

واجماً . كانت كتلة سوداء مظلمة كخيال شبح . وشاح أسود يحجب وجهها كله . وثوب أسود يجلل جسدها ، وقفازان أسودان . بدت لي أشبه بخيمة مظلمة .

استدنتني بإشارة من يدها . دخلت وأوصدت الباب ورائي . قالت بصوت اصطدام بخمارها وتاه :

ــ كلنا وحيد ! ونحن جميع .

صمت . ما كان صمتي عن جحود أو تجاهل ، إنما ألجم لساني فرط تهيبي واضطرابي لحالها . ثم قالت :

ــ إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع . أما المحصنات فمداخل الشيطان إلى نفوسهن مغلقة .

غشيتني غاشية من حزن ثقيل ممض . وقلت :

ــ إني نبئت بكل هذا يا بلقيس قبل أن نولد .

جاء صوتها نائياً من وراء الحجاب :

ــ ابتلاني القدر بابتلاءات كثيرة ، فكابدتها متجلدة صابرة . لكن ابتلاءات الفتنة بالشهوة غلبتني .

أظلم وجهي . وانقبض قلبي . قلت أواسيها :

ــ ولكننا لم نرتكب إثماً ولا خطيئة .

هزت رأسها ـ تلك الكتلة السوداء ـ ولم تنبس .

في تلك اللحظة انبثق حسن الثاني وهمس في أذني قائلاً :

ــ هذه امرأة كانت في صُرع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الكاسح نحو الخطيئة . فما حفلت حياء أنثوياً ،

ولا كبرياء ذاتياً ، ولا مركزاً اجتماعياً ، ولا فضيحة عائلية .
وما كانت تحس في إرواء هواتفها الأنثوية أمراً يعاب أصلاً .
وها هي تدفع الثمن .

رمقته بنظرة حاقدة كاوية ، فإذا بي أرى فيه ذئباً من ذؤبان الصحراء . من أولئك الشذاذ الذين أوغلوا في القفار ، فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً . ورأيته يتخذ من الغيران والكهوف مآوي . ويأكل العشب والحبوب واللحم النيء . وينزل من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان .

ومض في بالي أني سمعت كل هذا في زمن ما ، ورأيت ما أرى في مكان ما .

قالت بلقيس الخفية :

ـــ بت استوحش من الدنيا وزهرتها ، وأستأنس بالليل وظلمته .
ولقد نبئت أن ولدي سيذبح في حجري . . فلا تجف عبرتي .

التفت إلى حسن الثاني مغضباً وهتفت :

ـــ أصعلوك أنت أم زاهد ؟

فأطرق ملياً ثم قال :

ـــ انحلت عني عرى الولاية ، وطويت عني أعلام الهداية . فلم يبق في فيافيَّ وبحار ظلماتي سوى الوحش والضواري والشذاذ .

وقفت بلقيس بغتة . وانتصبت وسط غرفتها الظليلة التي تصد ستائرها شعشعة الصباح . فبدت وكأنها قطعة من الليل نسيت أن تلحق به عند فلوله . . فجمدت في مكانها بعد أن دهمها النهار . أخذتني من يدي وقالت وهي تشير بيدها المجللة بالقفاز الأسود :

ــ لماذا لا تعتزل العالم معي . نبقى أنا وأنت هنا صوامين قوامين . . ننأى فنجتمع ونأتلف .

أحسست بداخلي إثماً . ابيضت عيناي . ثم غادرت الحجرة دون أن أودعها . دهمني إحساس بغيض بأن حملها كاذب . وأنها تتعشق الوأد . . وجلد الذات . ألم تكن تقول أحياناً بغضب :

ــ ليت أبي وأدني حين ولدت . فكنت نسياً منسياً .

ألم أقل لها حينذاك :

ــ أنت تتقمصين دور غيرك .

* * *

أتذكر :

جسدي مسجى . وهم يتفرجون على شاشة التلفزيون بعدما أقنعهم فزاع بنقله إلى غرفتي . هم يتفرجون على التلفزيون داخل الغرفة . وأنا أتفرج بصمت من داخل جسدي . وأرى الرؤوس من الخلف . شعر زوجتي تائه بين كتفيها . وأمي تغزل الصوف وعيناها على الشاشة . الخادمة السيريلانكية تسترق إلي النظر بين الحين والآخر ، من موقعها الهامشي في الغرفة . فزاع وشعلان يراقبان الشاشة . أرى وجهيهما . شعلان يصيخ كأنه يتوقع انفجاراً . وعينا فزاع استقرت فيهما مرارة لا تزول ولا تميل كأنها اليقين بعد التردد .

كنا جميعاً نشاهد زيارة السادات التاريخية للقدس . الكل لا يصدق ما يراه . الكل ينكر ما تستقبله حواسه من الشاشة الصغيرة . الكل يصرف نظره إلى الآخر ليقرأ ردود الفعل في محياه . الكل يصرف نظره عني .

قال شعلان انه يحسدني ، لأني لا أعي أية فجيعة تقع في هذه

اللحظة على الشاشة الصغيرة . فرمقته زوجتي بنظرة زاجرة . وقالت أمي تواصل حياكتها :

ــ شو . . قولكم الناس ما بتتحرك . . لا مين شاف ولا مين دري .

لم ينبس أحد منهم . العجز الكامل الساحق ينهب رغبتهم في الحديث ، في الحركة ، في الحياة . كانوا مثلي شللاً يتوق للحركة ، فيثقله العجز ، وتشده الضآلة إلى موقعه . كلهم ظل . . وأنا شبح .

انتفض شعلان واقفاً وصاح :

ــ سكروا التلفزيون . كيف قادرين تتفرجوا ؟

لم يتحرك أحد من مقعده . انهم تماثيل جامدة عاجزة . كائنات قدت من حجر ، ومن عجز .

والخادمة السوداء لا تفهم . تنقل بصرها بيني وبين التلفزيون بصمت فصيح . في عينيها شهوة بليغة بدائية . يقول وجهها المتوثب انها ترغب في اغتصابي . أبرقت عيناها . كان العالم يغتصب بكارة حريتها . . فلماذا لا تغتصب هذا السيد . . هذا الـ « ماستر » العاجز السهل .

العجزة ، المغلوبون على أمرهم يشاهدون السادات . مناحيم بيغن يستقبله . الموسيقى . السلام . الغليون . الطائرة . الحاجز النفسي الذي سينهار .

والكل قابع في مكانه يشاهد وينكر . ويسمع وينكر . ويهم . . فيعجز . أدركت أنهم مثلي . محاصرون في شرنقة العجز . حطت ذبابة على أنف شعلان ، فلم يطردها .

وزوجتي جميلة ، وتثق بالخادمة السيريلانكية . وتشاهد التلفزيون

بعينين نصف مغمضتين . تشاهد مصيرنا بعينين نهشهما النعاس .

* * *

أذكر :

الخــريف مـوحش متلون منــافق . متقلب كمـزاج عصــابي . ثم شمس دافئة تلحس قدمي بلسانها السليط البذيء .

أنا أرى الكل ظـلالاً . ولا أسمع الأصـوات . أنا هـامشي . . مثل الجميع .

أذكر :

كنت مسجى . وشعـلان يطل من فـوقي بوجهـه كأنما يطل في بئـر ويقول لي :

ــ هل تسمعني ؟

وأنـا أسمعه . لكن قـوة خفية تمسـك لساني في فمي . أفتـح شفتي لأقول انني أسمعه . لكن صوتي يخبو قبـل أن يصل شفتي . لا سيـطرة لي عـلى الجزء الخـاص بإصـدار الأوامر الإراديـة في دماغي . الجـزء الخـاص بالأوامر اللاإرادية يعمل من تلقاء نفسه . المعدة تهضم الطعام باستقلاليـة تـامـة . الـطعـام يتسلل إلي عبــر أنبـوب . رئتــاي تتنفسـان . الخادم تضـاجعني ، بل تغتصبني كـل ليلة . ويأتي مـوظفون ليـأخذوا بصمـاتي . يحملون أوراقاً ثم يرفعون إصبعي ويبصّمونني .

الخادم السـوداء أطلت في الليـل . وكـانت تـرتـدي ثـوب نــوم حريرياً. دنت مني وقالت بصوت رقيق :

ــ هل تراني ؟ هل تسمعني ؟

وعجزت عن الإيماء أو القول . فلبثت مكاني كجسد محنط .

مدت يديها نحوي . وباعدت ما بين ساقي . وكنت أسمع لهاثها وهي لا تعرف أني أسمع . وأرى صدرها ، وهي لا تدري إن كنت أرى أم لا . ما عادت تضع ذلك العطر المثير الذي كنت أحبه . إذ باتت ممارسة الحب خاضعة لمزاج طرف واحد . وباتت ـ منذ غيبوبتي ـ تترك الساعة في رسغي ـ عندما تأتي لتمارس الحب معي . أنا كنت أخلعها . لكن ممارسة الحب . . أو هذا الاغتصاب بات خيار طرف واحد . وهي لا تدري ، تعتقد أنني لا أشعر . لا أحس بشيء . كائن نباتي . قال الطبيب لزوجتي . سألته إن كان ثمة أمل . هز رأسه والتفت إلي بوجهه الصارم . وقال :

ـ علمياً لا . لا بد من معجزة . لا تقنطوا من رحمة الله . إنه على كل شيء قدير .

وأنا أسمعهم وأراهم من داخل جسدي الذي بات غريباً عني . بات أشبه بقمقم . أحسه جسد رجل آخر . كأنما أنا مجموعة ذؤبان . كأن ذياب انفصم إلى « ذيبين » ذيب الأول . . أنا . وذيب الثاني . . هذا الجسد المسجى .

وأعرف بالحدس ، والحاسة السادسة ، والحواس الخارقة ، أنني بت كائناً فسيفسائياً . تشظيت إلى ذؤبان . وأعرف أن ثمة ذؤباناً بدأت تتحرك وتتململ وتغادرني . تحمل وجهي واسمي ، وتحاول أن تكون .

* * *

ماذا يا دكتور ؟ ماذا كان يقول الدكتور المشرف على علاجي ؟ أنا أقول لك . كان جسدي مسجى . وأنا محبوس فيه . ساكن لا ينشط ولا يثور . أقصد أنا . كان الدكتور ذو الوجه الصارم يقول لزوجتي انها حالة « كوما » . لكن فزاع صديقي ، ـ وهو حكيم أيضاً ـ يقول انها حالة شلل نفسي . حالة استلاب . يهرب المرء من خلالها إلى كهف

الجسد ، بعد أن يثقله الاغتراب ، وتبهظه الهامشية . قال هي حالة استجارة بكهف الرحم ، حيث يلوذ الهارب المطارد الطريد ، المنبوذ ، الصعلوك ، المقطوع من شجرة ، ابن الشوارع ، إلى السراديب المظلمة التحتية عندما يصهره لظى البنى والاتجاهات والأنظمة والمؤسسات السائدة .

زوجتي يا دكتور ، اعتبرت أن كلام فزاع يغمز من قناتها . وكأنها تتحمل جزءاً من المسؤولية ، بالاضافة إلى العصبة ودائرتي وأسرتي ووو . . . . فطردته . صرخت في وجهه بهستيرية . قالت له انه يتهمني بالجنون . قالت هذا يعني أنهم جننوني ، وأفقدوني عقلي . وهرعت نحو الباب وقالت :

ــ بره . بره .

كان فزاع يأتي لي بأشرطة موسيقية يعرف مدى حبي لها . يضعها في مسجلة صغيرة إلى جانبي . ويضغط على الزر . وأصغي فيشرق وجهي . فينادي زوجتي يقول لها :

ــ شوفي . كأنو عم يبتسم . شوفي عيونه . . تتحرك .

فتقول له :

ــ يا شيخ . بلا هبل . هذي حركة انعكاس شرطي بفعل الضوء .

مرة دس شريط « والله زمان يا سلاحي . . » فانحدرت الدموع من عيني . طار فزاع إليها . جرها من المطبخ . قال :

ــ شوفي الدموع في عينيه . كأنها رسالة منه بدو يقول فيها إنو قادر يتواصل معنا .

فهزت منكبيها وقالت وهي تشيح :

ـ يا شيخ . يمكن شوية غبرا دخلت في عينو . هذا رد فعل انعكاسي أو شرطي مش عارفه شو بيسموه . بكفي ترش عالموت سكر يا فزاع ، الله يخليك ، مش ناقصني هم .

وغادرت الغرفة . وكنت أحبها ، وأعرف أنها تحبني .

ومرة أقبل شعلان لزيارتي . وكان فزاع في الغرفة . تبادلا نظرات ذات مغزى ، ولم ينبسا بكلمة . وقف شعلان يتفحصني بعينيه الضيقتين ثم همس :

ـ إسمع يا فزاع . عم يصلني حكي إنك عم بتشيع إنو أنا إلي علاقة بها الشيء اللي صار لحسنين .

أظلم وجه فزاع وقال دون أن يلتفت إلى شعلان :

ـ صحيح .

وقال له ان الدائرة فصلتني من الوظيفة لانتمائي إلى العصبة . ثم فصلتني العصبة لانتمائي إلى جدي . قال ان الجميع كانوا يطالبونني بعدم الانتهاء .

* * *

سعيت إلى الجمعية لأستمع إلى محاضرة حول العصر التكنو ـ إلكتروني . . والدول المتخلفة . قال لي فزاع حين دعاني ، انه ينبغي أن أخرج من قوقعتي . أن ألتقي بالناس . بعد تردد طال وافقت . ووجدت نفسي أطل من باب الجمعية . فإذا حشد كبير من الناس يجلسون بانتظار المحاضر . وتلفت بحثاً عن فزاع فلم أره . بحثت عن مقعد شاغر ، فعثرت على واحد في ركن هامشي . تقدمت وجلست ورحت أنتظر ، وأدخن .

وما راعني إلا دخول حسن الثاني من باب جانبي وجلوسه إلى

طاولة المحاضر . ثم تبعه شخص آخر وجلس إلى جانبه وابتسم . وكان حسن الثاني يفرك يديه ويبعثر نظراته على الناس .

احتقن وجهي ، وانقبض قلبي .

بعد أن قدمه عريف المحاضرة بكلمات مبهمة . وقف حسن الثاني ، فوقف معه شعر رأسي . قال بلهجة خطابية :

ــ منذ زمن بعيد وأنا أدعوكم إلى ثورة العلم والعلمانية واستيعاب التكنولوجيا ، لكنكم وضعتم أصابعكم في آذانكم واستكبرتم وأمعنتم في الجدال . فجادلتكم وناضلتكم ، ثم صابرتكم وطاولتكم . ولكنكم أكثرتم الجدال . كأنكم رأيتم رُقعة الحلم وسيعة عندي فأغريتم بالكلام . صمّت الأذان ، وغلقت القلوب ، وعميت الأبصار . دعوتكم إلى « الكمبيوترازيشن » فأنكرتم علي دعوتي ، وهزئتم بها . وقلت لنفسي مراراً إن قلوبهم عنك منصرفة ، وآذانهم لقولك غير مصغية . أقول دخل العالم عصر الثورة التكنولوجية الثانية . ولكنكم ما ازددتم على الأيام إلا عتواً ، وما بلغت دعوتي منكم إلا نفوراً . وأنا صامد لاستهزائكم صمود نوح الذي مكث ألف سنة صابراً على أذى قومه . وقلتم عهدناك ثاقب الفكر ، مصيب الرأي ، تلوح عليك مخايل الخير ، وإمارات الرشد . كنا ندخرك لملمات الدهر ، تضيء ظلماتها بنور عقلك وتحل معضلاتها بصائب رأيك . فإذا بك تنطق هُجْرا ، وتأتي نكراً . . اننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . ونحن لا نطمئن إلى قولك ، ولا نثق بصدق دعوتك . كل هذا سيداتي آنساتي سادتي . . لأنني بلا عصبية ذات بأس تعزني وتمنعني منكم .

وهنا ضرب الطاولة بقبضة يده ضربة قوية ، فطار كوب الماء من أمامه وحط على حجر عريف الحفل . وصاح :

ـ لا بـد من الثورة العلميـة التقنية ، فهي روح هـذا العصر . وأنـا المنتدب من القدر ، قد خرجت عليكم بالإشارة والعلامة . . لتلبوا ندائي .

وضج الحضور . وظنوا بعقلي الظنون . وسأل سائل :

ــ لماذا يحكي عن التكنولوجيا بلغـة تراثيـة ؟ أليست اللغة انعكاساً للفكر ؟

* * *

ولكن كيف ســأتـدبـر مصـروفي ؟ من أين أقتــرض مبلغـاً يكفي لمصـروفي ، لدفـع الإيجـار ، وشـراء السجـائـر والأكـل . ودفـع ضريبة المسقفات .

قلت لموظف الضريبـة ، ان زوجتي وابنتي ورثتـا الأرض . فـأطلق ضحكة مجلجلة ، وظن أني أداعبه . قال كالساخر :

ــ ورثوك حياً ؟

شـرحت له . قلت انـه لا يفهم المسألـة . وصحت غـاضبـاً وقلت انهم ـ أقصـد الموظفـين ـ يعاملونني بمقيـاسين ويكيلون بمكيـالين . فعنـدما يتعلق الأمـر بحقـوقي . . يعتبـرونني غـير مـوجـود . وحـين يتعلق الأمـر بواجباتي يلاحقونني ملاحقة أشباح لحي يتهرب من واجباته .

هـز الموظف منكبيـه ، وقال انـه مجـرد مـوظف ينفـذ التعليمـات . ولا نـاقة لـه ولا جمل . طلبت منـه أن يمنحني فـرصـة لكي أجمـع المـال . ولكن كيف أتنقــل من مكــان إلى مكــان وأنـا لا أملك فلســاً واحـداً في جيبي .

المفاجأة الحقيقيـة ، أتت من حيث لا أتوقـع . إذ ناداني اسكنـدر . ثم اختلى بي وراء الستارة . وقال بصوت متلعثم مرتبك :

ـ أكيد انت متضايق مالياً . خـذ . . إلى أن تفرج . حتى الأشباح بيحتاجوا لمصروف جيب إذا قرروا الاختلاط بالبشر .

ودس في يدي ورقة من فئة العشرة دنـانير ، بخفـة من يدس في يـد الآخر منشوراً سرياً . ثم اختفى فجأة .

دهمني إحساس ساحق بالخجل والحرج .

وصاحب البيت بصوته الأجش يلح ويلح . يقول :

ـ أنـا لا يهمني إن كنت شبـح والاّ لأ . إذا كنت شبـح . . يعني غـير موجـود ، فمن حقي أن أعتبر البيت فـاضي . . ومن حقي أن أدور عـلى مستأجـر تاني يـدفـع عشر أضعـاف إيجـارك . وإن كنت بني آدم مثلنـا . . ادفـع المستحق من الأجـار . علماً بـأنـو مجـرد انتشار إشـاعة أنـو البيت مسكون بشبـح رح يضر بسمعـة البيت ويخلي اللي كان متحمس يستأجر . . يبطل .

وقمت واقفـاً وسألتـه إن كـان مهتـماً بسمعـة البيت ، أكـثر ممـا هـو مهتم في التـأكد من حقيقتي . ونـاولتـه سيجـارة . فقـال وهـو يخـرج انـه لا يـدخن . وقفت أفكر ملياً . ثم خـرجت ، وكنت جـائعـاً . واجتـزت الشـارع ، وحييت اسكندر ، ثم مشيت حينـاً ، ثم انحرفت إلى الشمـال ومضيت خطوات ، وتوقفت عند بائع الفلافل . قلت :

ـ مرحباً . . ساندويش فلافل من فضلك .

فضيق ما بين عينيه وقال :

ـ مع شطة ؟

هززت رأسي بالإيجاب ، وتلفت . عاد يضيق ما بين عينيـه ويرميني بنظرة متفحصة لا تخلو من فضول . هتف فجأة وقد برقت عيناه :

ـ مش الحكيم واللا أنا غلطان ؟

قلت انني ابنه . فأعرب عن الدهشة والفرح وراح يردد : حسنين ؟ حسنين ؟ ابتسمت ابتسامة أجابت على سؤاله بالإيجاب . صاح وقد أشرق وجهه :

ــ أهلاً . . أهلاً . . يا عمي انتو أصحاب فضل علينا . لولا والدك رحمه الله لماتت زوجتي من السل .

دسست يدي في جيبي لاستخرج ثمن الساندويش . فاندفع نحوي وسد جيبي بيده وقال :

ــ عيب . عيب يا أستاذ . إحنا أهل .

وتناولت الساندويش ، وشكرته .

وفي الشارع كان المساء حمياً ، فاجتزت وأنا أصفر .

وسال من الساندويتش خيط من الشطة وحط على قميصي . فحدثتني نفسي بأن أَمُرَّ بشعلان لأستدين منه مبلغاً . لكنني سرعان ما انتزعت هذا الخاطر كما ينتزع المرء قبعته . وقلت لنفسي ان شعلان سيشمت بي . لكني وجدت قدمي تحملاني إلى مكتبه . وبغتة عثرت على نفسي أطرق بابه . قلت كمن يرش على الموت سكراً : لوالدي اياد بيض عليه .

فرك يديه بارتباك . وقال ان السوق ميتة والكل عايش على تلبيس الطواقي . على كل مرحباً بك . كم ؟ قلت خمسمائة دينار . شحب وجهه ، وابتسم ببلاهة . ثم قال :

ــ أف . أف . أف ، شو ! ناوي تفتح مشروع .

وكان حذائي مغبراً حين غادرت مكتبه . وجيبي خاوياً .

* * *

وقال فزاع ان صديقته لاحظت أنه يحكي لها كلما اختليا عن المادية الجدلية . وأنها سئمت ذلك . وقال انها رمته بالهامشية والابتعاد عن الواقع ، والوقوف على حافة الجنون . قالت :

ــ انت في واد ، والناس في واد .

وأشارت له بيدها ، ومضت . دون أن يتبادلا كلمة وداع .

لكنني كنت أعرف أن فزاع ، مع الناس ، في ذات الوادي .

* * *

وكان اسكندر يصافح أحد المستأجرين الجدد بحرارة . ويميل نحو أذنه ويوشوش . وامتلأ فم المستأجر بالضحك . ثم ربت على ظهر اسكندر بحركات حميمة . وانصرف .

اجتزت الشارع ودخلت الى الكفتيرية . لحق بي إسكندر وقال :

ــ أهلاً أهلاً .

وكان يبتسم .

ولأول مرة قلت له :

ــ يا إسكندر . . مش رح تبطل حركاتك القرعة هذي ؟ يا زلمة إذا مش علشان سمعتك . . علشان سمعة الشهيد ابنك جميل .

توهج في عيني اسكندر بريق وحشي ، واحتقن وجهه . أشاح وهو يقول بغضب :

ــ إنت آخر واحد لازم يجيب هالسيرة .

اتجه صوب واجهة المحل . اراح جبينه على زجاجها البارد وذكرني بأني قلت له مواسياً قبل أن أموت ، ان جميل استشهد في سبيل العصبة ، وان العصبة لن تنساه . وقال انه فجع حين علم ذات يوم أن العصبة خلعتني واعتبرتني من الشذاذ والصعاليك . التفت إلي وابتسم ببلاهة . رف جفناه كأنما لتحبسا دمعة كادت أن تنزلق . قال :

ــ خليها مستورة يا شيخ .

لكنه لم يخلها مستورة . إذ دار دورتين حول طاولتي . ثم توقف وذكرني وهو يهز رأسه كيف قلت له ـ قبل أن أغيب ثم أموت ـ بكل برود ومجانية ان العصبة انحرفت عن مبادئها . قال : « هكذا بكل هدوء » . قال :

ــ طيب . . إذن عشان حين استشهد الولد ؟ عشان وهم ؟ عبث ؟

ارتبكت ، دهمني إحساس خانق بالانقباض . قلت متصنعاً :

ــ استشهد عشان الوطن والقضية . . مش عشان فلان أو علان .

حاول اسكندر كظم غيظه وهو يتساءل لماذا لم أستمر أنا إذن ؟ لماذا ـ ما دام النضال لا يتعلق بفلان أو علان ـ لم أواصل الطريق ؟

فتحت فمي لأتكلم ، فلم أجد ما أقوله . دار رأسي ، وتناهضت بتثاقل . قلت بإصرار قبل أن أخرج :

ــ ما راح عبث . ابنك الثاني وين ؟

شحب وجه اسكندر واضطربت عيناه . غمغم هامساً :

ــ معهم . مش عارف وينو . في الشام في لبنان في السودان في بغداد في تونس الله أعلم .

قلت اتكلف كظم ما يملؤني من مرارة :

ـ طيب . إذن الطريق ما انتهت .

انـدفع اسكنـدر نحوي ، وأمسـك بقميصي وشدني نحوه بغضب . صرخ :

ـ وانت . . انت اللي كنت تحرضهم !؟

ارتج علي فلم أهتد إلى كلمة أقـولها . رفعت يـدي ومسحت جبيني المبتل بالعرق بظاهر يدي . ثم غمغمت وأنا أغادر كالهارب :

ـ أنا ميت . . مش انت بتقول اني شبح ؟

عندما وصلت الرصيف المقابل لحق بي صوته يقول :

ـ لما بدك بتصـير ميت وشبح . ولما ما بـدك ، بتقـول كـذب أنـا حي .

ووضع كفيه على خاصرتيه . ثم صاح بي :

ـ خلينا نشوف شغلنا . حل عنا يا شيخ .

واختفيت . . وظل صوته يرن في الشارع ويقرع في دماغي .

* * *

هكذا تكلمت بلقيس

إلى الأرض التي لا عودة منها ، إلى ثمرة الخطيئة ، هبطتُ . هبطت في دهاليز الهاوية السحيقة ، السحيقة تحت الحضيض ، في أغواره . حين مسني الإثم بأنيابه ، وألقيت جسدي ببستانه الذي فيه من كل فاكهة زوجان . إلى دار الظلام هبطت ، إلى الدار التي لا يرجع منها الداخل . إلى الدرب الذي لا يقود صاحبه من حيث أتى . إلى المكان الذي لا يرى أشباحه نوراً ولا ضياء . حيث الغبار طعامهم والتراب معاشهم ، يسبحون في الظلام فلا بصيص ولا شعاع .

ورأيت نفسي وقد لبيت نداء جبلتي ، وطاوعت غريزتي ، ليخضر عودي ، ويفتر ثغري . ودخلت إلى محرابك ، غرائزي مطفأة ، فأشعلتها وأوقدت ما خبا من رغائبي ، وأضرمت في حواسي غمغمة لهفة . وكلما نفرت دعوتني بفحيحك الفاتن ، وكلما حاولت نسيان أصابعي ، أشرت إليها بأنفاسك اللاهبة . وأستعيذ بالباب فإذا هو موصد أبكم أصم . أنى تكون لي مناعة وأنت تمسني ؟ . . أنت الذي تمثلت لي بشراً سوياً لآنس بك . أي سر غريب هذا الذي تريد أن تغلق عليه داخل أحشائي . وقبلني بقبلات فمه الأطيب من الخمر . هذا الوحشي البدائي الذي تحبه العذارى . الذي يمشي بخطوات لها إيقاع الخطوة البكر على الرمل البكر . رمل بكر فتي همجي يفز لينهش ورقة التوت الأخيرة . . فلا يبقى غير العراء والوحشة .

وأنا كنت . وشعري الهمجي يتيه في يباب مراعيه . أبحث عن كلأ اللذة في مراعي الشهوة . وأنت تقطف كرمي . يا من قطف الرؤوس التي أينعت . نطرت كرمي ، فكنت حاميه وحراميه .

على عنقك قلائد ، وسلاسل من ذهب ، أغلال أسوار الرغبة

البـائدة . البـائدة التي وئـدت عند مـولدهـا . لما بـزغت جللتها القبـائـل الجامحة بالوشاح ..

وبت بين ثدييَّ . ضـربت الـوتـد ، ونمت بـين الكـروم في خيمـة الشهـوة . خيمتنـا طـائـر ، والشهــوة خضـراء . وانغــرس شـوكــك في تفـاحتي . وأنا رقـدت تحت ظل شجـرة الوعـر ، فاتحة مسـامي لالتقـاط ثمـره الحلو . شمالـه تحت رأسي ، ويمينه تعـانقني . . والـظبـاء والأيـائـل تخترق حقـولي وتحمـل رائحتـه ، وتحمـل رأس عبـد الخــالق محجـوب . ووجهي تجلله أوراق التــين ، ولا أرى . . وكنت سـارحــة في سـرحــان بشارة سرحان ، وشاردة كذكرى مؤلمة . هذا الـذي كان وجهـه يتراءى لي دائماً مضرجاً بدمائه . وجه فجيعة .

وقال حسن الثاني :

أجيبـوا أيها الأرواح الـروحانيـة بحق هـذا العهـد الشـريف عليكم وطـاعته لـديكم . أجيبوا يـا معـاشر الأرواح الـروحـانيـة والملوك الكـرام الطاهرة الزكية ، والأشخاص الجوهرية والأشباح النورانية .

أنـا الذي أخـذ خرقـة بيضاء من أثـرك ، وأوقـدتهـا في إنـاء أخضر جديد ، فيه زيت الطيب ، وخلطته بزعفران مسته أصـابعك ، ومـاء ورد مسته شفتاك ، ثم ركضـــت بعد تمنعك واستعصـائك ، فـانجذبتِ ورائي وجريتِ .

بلقيس :

ــ رحماك يا رب ! ما هذا الذي يخبئه لي القدر ، وما تكنـه الليالي . وأنا التي من أسرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، ولم يكن أبي امرأ سوء ، وما كانت أمي بغيـاً . ولكني أحبه حبي للراعي بـين السوسن .

لمـاذا طلع لي من البريـة كأعمـدة من دخان معـطرة بالمر واللبـان ؟

لماذا لم يئذنِ أبي . . فأكون نسياً منسياً ؟ لماذا فراشته تغوي وردتي ؟ لماذا نكتب على ورق البردى رعشة النهر ؟

وجاءت ورحنا نشرب . قالت انها لا تشرب . انها لم تحتس الخمرة في حياتها . قلت نحتفل بمناسبة خاصة . قالت لا أذكر اليوم مناسبة . قلت نخترعها . عيد ميلاد الشركات المتعددة الجنسية . نحتفل بمناسبة الثورة التكنو ـ إلكترونية ، نخب بطولة صايل الشهوان العجرمي . في صحتك وصحة الفئران التي قرضت سد مأرب . نخب هذا السوس الذي يتسلل إلى أسناننا ، ويتسلل إلى دمنا ، على صهوته جراثيم الانقراض . في صحة جلجامش وحمورابي وحسني الزعيم . وعبد الله السلال وعلي عنتر . . . والقات .

لماذا أظلم وجهك ؟ نحن لم نتواطأ ضد الحسين . ولم نكن في كربلاء . لم نسحل الشفيع ، ولم نشنق عبد الخالق محجوب . ولم نأكل في مطعم « نيويورك نيويورك » البيتزا والهامبرغر مع الكاتش ـ آب . نحن شعلة الشوك في يباب البدو الباحثين عن كلأ المسرة وماء الحياة .

قالت انها مكتئبة ، وترغب في مشاهدة التلفزيون . أكدت لها أن الوقت مبكر . أشعلت سيجارة من سجائري . وعبرت عن رغبتها في مشاهدة أفلام الكرتون : توم وجيري « باباي » « غريندايزر » . . أي شيء ما عدا الصمت . قالت ان الرغبة في كأس تلح عليها .

قالت انها تقريباً .

فساءلتها عيناي عن المعنى والعبارة . قالت :

ـ أنا مؤمنة تقريباً . أنا متمردة إلى حد ما . أنا محافظة تقريباً . أنا مجنونة بمعنى أو بآخر . أنا مدمنة خمرة مائة بالمائة .

ودار رأسها ، ورأس السنة أتى بلا رأس . كأن حجاجاً

ما احتزه . أطلقت ضحكة سكرى وقالت وهي ترفع كأسها :

ــ بصحة رأس السنة المحتز . سنة بلا رأس .

ودار رأسي . كنت أعرف أنها أدمنت الخمرة في صباها . غير أني فهمت أنها تجاوزت تلك المرحلة .

وبدأت تُلْقي إلي فأبسط يدي ، فإذا بها تمسك عني وتولي . حتى تهيجت كغبار في يوم عاصف . ثم جعلت وجهها في نحري . فلم أفهم . قالت :

ــ لو أبديت لغة اللغز لخطفت فهمك خطف المناجل .

فقلت :

ــ الكل الظاهر والباطن . والنصف الظاهر ، والنصف الآخر فجاءة الغموض والمجهول .

ضربت كأسها بيدها فسقط على الأرض ، وسال الخمر على الموكيت البني الجديد .

قالت :

ــ احفظ عليَّ مقامي وإلا ماد بي كل شيء .

قلت :

ــ مقامك هو الرؤية ، وهو ما رأيت من اختطاف وتجلي ، وظهور وتخفي ، وانقلاب . . . فقد رأيت الأبد . ولا عبارة في الأبد .

وقالت وهي تشعل سيجارة :

ــ تجربتي النضالية علمتني الباطنية .

قلت :

ـ إذا اصطفيت أخاً فكوني معه فيما أظهر ، ولا تكوني معه فيما أسر . فهو له من دونك سر . فإن أشار إليه فأشيري إليه ، وإن أفصح . . فتجاهليه .

وأخفيت وجهه في متاهة شعري . واريت ملامح هذا المطارد في عتم خصلاتي المجدولة كنهر لا مصب له . هذا الطريد مذ كانت الأرض خربة خاوية على وجهها ظلمة ومياه ترفرف عليها أرواح الصفاء .

أدخل في ليل شعري . توار في حضرة مسامي . ها قد أتيت إلى الإقليم الذي ركض فيه الزمن البدائي مثل قطيع من وعول البرق .

أفتح لك دهاليزي وأنفاقي وكهوفي البكر المغتسلة أبداً بالشعشعة ، حقل يجتذب إليه كل الحقول . الخمرة تأتي إليه مبحرة فوق نهر ، والنشوة مسوقة بالريح تقبل ، والخطيئة تفح وتسعى على صهوة الأرض .

ها جسدي ، لذ به واستكن . انه سفر العالم السفلي . وأنا أمعن في دهاليز الحذر . يا ليت أبي وأدني قبل هذا وكنت نسياً منسياً .

قالت ينبغي أن نفكر في مشاريع . نفتح حانة للعصابيين مثلاً . نربح الملايين . قلت مستنكراً : لتشربي كل خابية فيها . ضحكت شفتاها وعيناها معاً . قالت : مطعم له اسم أمريكي . نربح الملايين .

وقلت متأسفاً متمرمراً انني لو طرحت فكرة إنشاء أجهزة أمنية لركض الجميع إلي . لكن فكرة مواجهة الأقمار الصناعية الأميركية لا تجتذب أحداً . وقلت وأنا أشعل سيجارة . . عبر هذه الأقمار سيتسلل رعاة بقر تكساس إلى خيام رعاة الإبل . إلى منازلنا . إلى عقولنا . بدعاياتهم عن البيبسي كولا ، والجينز ، وكانتاكي فرايد تشيكن . . وصمتنا . وكان صمتنا ثقيلاً .

وهنا تدخل حسن الثاني بالفصحى وقال انه يقرأ ظمأ للخمرة

ملحاً في عينيها . وقالت بلقيس بالفصحى :

ــ أعرف . . أنهم يلاحقونك منذ ما قبل الزراعة والكتابة وتقسيم العمل . وأنهم قصفوك بالحجارة والرماح والمنجنيق والبارود والرصاص والمدافع والطائرات والقنابل الذرية . . . فكيف زغت ؟ وكيف بعثت ؟

قلت : أصعب شيء في بلادنا إنو تكون مرا مدمنة كحول . الله يعينك . ثم قال حسن الثاني :

ــ اللغة حجاب . والشرح لغز . والتفسير أحجية . والصمت بلاغة .

وصمت ، لا أنبس . ففهمت . هي التي تشبه الوطواط والرسولة .

أطرقت وهي تعبث بأصابعها بعصبية . وتقضم أظافرها بقلق .

وسألتني إن كنت جائعاً . فهززت رأسي بالإيجاب . فخرجت والليل نقابها ، وعادت والظلمة ثوب حدادها . وكانت تحمل البيتزا والهامبرغر والبطاطا . . وكانت عارية . أطفأت النور ، واكتشفت أن ملابسها الداخلية ، فيما وراء العري . . سود أيضاً .

قالت ينبغي أن نسمي المطعم اسماً أمريكياً « حتى يمشي سوقه » شأن نيويورك ـ نيوروك . فاقترحت « غريت غاتسبي » أو « مطعم الجاز » . فقالت انني متأخر عن العصر عشرين سنة على الأقل .

حسن الثاني :

ترتعد فرائصنا . وتشيبين من هولك . جسدك الباهر كهفي الملاذ . . لماذا علا الغبار مزاليجه ، لماذا أوصدت أبوابه . . ووأدته في حفرة الذنب . دعيني أخلع عوارضه وأرمي مصاريعه نحو الأبد .

أزاحت عن رأسها تاج النشوة . وكللته بشوك الذنب والندم . وراحت تنتحب . وأنا أقول البيتزا لذيذة ، ألست جائعاً . وغاب اللهاث . لم يرفع وجهه المضرج بالدموع . وقالت عيناها المعتمتان رب إني نذرت لك ما في أحشائي محرراً فتقبل مني .

يا خير امرأة ركبت الإبل ، وباتت بين أوراق التوت ، وتحت ليل يورق ألقاً دافئاً . . أرقاً نارياً .

لكن بلقيس تسربلت بعتم شعرها ، وتجللت بثوب الليل من عنقها البلوري حتى أخمص قدمها . وأسدلت على وجهها نقاب الظلام ، وأدخلت يديها في أنفاق قفازين أسودين . فباتت حصينة ضد اللمس . واستعصت على أصابع الهواء .

وانتبذت من الناس مكاناً في بيتها ، لا تُكسر مزاليجه ، ولا تتحرك ستائر نوافذه السود ، كهفاً تنزوي عنه الشمس ، ويعرض عنه الهواء كأنما يتفاداه مرغماً . ويجتنبه الصخب كأنما يخاف حارس بوابته الخفي .

أدخلي سيدتي فهذه شرائع العالم السفلي . لا بيبسي كولا عندنا ، ولا والت ديزني .

لماذا يا حارس البوابة أخذت من أذنيها الأقراط ؟ لماذا يا حارس البوابة انتزعت عن وركها تعويذة الولادة المرصعة بجواهر الميلاد . لماذا أخذت قلادتي لماذا نزعت عن صدري الحلي ؟ . . لماذا تقحمت « التابو » يا سيدتي ؟ لماذا ؟

وجلست أنا وحدي بعد أن مضت إلى قصر اللارجوع . وحدي أنا والبيتزا والهمبرغر مع الكاتش آب ، والبطاطا . . وخابية خمر خاوية . والذباب يحوم على البيتزا التي لم نأكل . ولا أطرده . أشاهد فيلماً من أفلام رعاة البقر الأمريكية على التلفزيون . « جون وين » يذبح

الهنود الحمر .

ضد عينيها أطلقت علل العيون . ضد أحشائها أطلقت علل الأحشاء . ضد كل إجزائي ، ضد كل جسدي فلتطلق العلل . ولكن المخاض لن يأتيها ، ولن تلجأ إلى جذع النخلة .

اضطجع الوحيد ، الاثنان ، في غرفته . وعض على أصابعه . هي التي ظنت أنني روح تتمثل جسداً سوياً . ولم تتناول قرص منع الحمل إذ قالت أنى يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشر ، وما أنت إلا روح قلق شفيف كالهواء .

قرعت بابها . وقرعت أم سليمان بابها . لكن أبوابها صماء بكماء . في داخلها ظلال الاثم تتحرق .

كان هارباً مطارداً . كان طريدة ، وأنا كهف الخمر واللبن . نائمة وقلبي مستيقظ ، وصوته الشارد يقرع . وفتحت له لأن رأسه امتلأ من الطّل وتجلل بالغبار . وأخذت قدميه بين يدي ، وانتزعت الشوك والمسامير ، شوكة شوكة ، ومسماراً مسماراً . ثم رفع إزاري . واحتسى خمري . ونهض وقال :

ــ رايح أجيب بيتزا وهمبرغر . . مش جوعانة ؟ وشو رأيك أجيب قنينة نبيذ كمان ؟

وكنت ظمأى إلى هذا الطيف الأنيس . . الحلو كالفجيعة .

جواد الموت شد اليوم هودجه . هذه المرأة ذات الشعر الطويل المرسل كالخط . . التي اكتشفت مضائق الرغبة فيها يأخذها الروع .

أخذ الروع مني أعنف مأخذ . وها أنا أرى جواد الموت شد اليوم هودجه . سيأخذني إلى عذاب تسمعه البهائم والرياح والنائي من الطير . سأدخله بيت الغربة ، بيت الوحشة ، بيت العذاب ، بيت الدود . فيأويني ، ويلتئم علي حتى تختلج أضلاعي . ها ملك الموت

يجلس عند رأسي . أيتها النفس الخبيثة اخرجي . لم يقل . قلت أعترف بالمعصية ، غير أني حسبته طيفاً رأيته فيما يراه النائم . ها اسمع خفق نعالهم حين يولون مدبرين بعد أن ضمني بيت الوحشة حيث لا رجعة ولا فرصة أخرى للندم الجليل .

وعند اسكندر قبل أيام وأيام رَحَلْتُ كقبيلة لا تعرف الاستقرار والاستيطان . قلت له اني حائرة . أرى في أفكار فزاع خلاصاً للبشرية . لكن انعتاقي أنا . . تبدد هذا القلق الداخلي . . لا أراه في الاستيحاش من الدنيا وزهرتها ، والاستئناس بالزهد والكشف . وقلت كان فزاع يضحك . وقال حسنين ـ هذا الطيف الأنيس الخفيف كالهواء ـ هذه أحجيتي ومعضلتي بيني وبيني . بين حسن الأول والثاني . قال انه مهجور مثل سراب . لا يَرِدُ عليه القوم ، يحسبونه سراباً . تنشقته فشممت رائحة القطعان ، ورطوبة قيعان متاهات الصحارى الجهنمية . وكان هيكل نزواتي يتزلزل .

وكان ينفخ دخان سيجارته في وجهي كالفحيح .

لماذا اقتربنا من الشجرة العصية ، وظلمنا نفسينا . وهبطت إلى وحل الاثم . . مستقر ومتاع إلى حين . وما كنا جائعين ولا عاريين . وعصينا فغوينا . ودخلنا شجرة الكرم ، وبستان الحنطة . ودار الابتلاء . وخرجت مدحورة قد نبذ جسدي ، ولفظ ثمرتي ، وأعرضت عني رغائبه ، فقام عني ويدي لم تقطف الثمرة المحرمة بعد . وغادرني تاركاً شجرة بستاني يبوساً مهجورةً . كأنما يقبل على نفسه بإدباره عني . أو كأنه يقبل علي بإدباره عنه .

وكنت وحدي ، عارية بيضاء ، في غرفة عارية بيضاء . وهو في الصالة العارية البيضاء ، يدخن . وأنا مجللة بشعري التائه الأسود في الوسادة البيضاء ، المنهمر على صدري . وهو مجلل بالدخان . دخان رمادي كئيب ينهمر نحو سقف خفيض .

هكذا تكلمت بلقيس

ـ ٢ ـ

كلنا أشباح يا حسنين . لماذا لا تجيب يا حسنين ؟ انه يتثاءب ، ولا ينظر إلي . أنا أحتسي الخمرة التي تغتال الوقت ، لأن شوك الأرق ينبت على مضجعي . لأن ليلي يستنبت شوك القلق . وأنا أتقلب فوق مخدعي . شوك الأرق في مراعي ليلي ، يجرح كرمتي . يتشعبط على دالية جسدي مثل ماعز تلتهم الأخضر واليابس . ماذا يا حسنين ؟ طبعاً . . أنا كمال النقص . أنا ورقة التوت الأخيرة . سأسقط ولن يبقى بعدي سوى العراء الصرف . . مثل كأسي ، بلا ثلج ولا ماء ، خمرة صافية . ماذا ؟ تقول ينبغي أن أتوقف عن الشرب . حسن ، هل تبدد ليلي أنت ؟ هل تمسد هذا الليل المرسل كشعر معتم ، لا يورق فيه سراج قرنفلة ولا قنديل الحكايات ؟

وفزاع . . لماذا يراني أحجية مستعصية ، ولا يبصر أنني ثمرة الماضي . سفرجلة تتعفن على غصن شجرة شوك في حقول يبابكم . أنا أذكر طفولتنا ، كما أشم رائحته التفاحية . راهبات مجللات بثياب مظلمة مثل كآبة سوداوية .

وأنت شجرة المعصية الطالعة من سراديب الأزمنة . أوراقك سرية ، وأغصانك باطنية . أيها الراضع ثدي الذؤبان وحليب العصاة . كيف أهرب إلى فزاع وهو موصد الأبواب مثل قلعة من الصمود ، ويرج من النهوض . هذا الذي طلع كنبتة صحراوية بدائية فوق ناطحة سحابي . الذي سرح كتائب رمالة في عشبي ، وبساتيني . فأحببت رائحة بداوته ، ترعى ماشية الفطرة في فندق أطرافي ذي النجوم الخمسة . في مطعمي الفاخر ذي الولائم الباهرة الوحشية . هو الآتي من متاهات الصحراء ، ويحمل مندلاً ، يضرب في رمل التاريخ . .

فيتنبــأ . بصـارة الــزمن الآتي . الـذي رأى مــا ينبغي ألا يـرى . لمــاذا لا يفهمني ؟ لا يـراني ؟ هذا الـذي اجتاحني كـزويعة غبـار صحـراويـة ، اجتـاح بستـان سكينتي . وسكن في سكينتي ، ضـرب أوتـاد بيت شعــره فيها ، ثم قام .

لماذا لا تصغي يا حسنين ؟ صمتك يشبـه عويـل أهل كـربـلاء في عاشوراء . لمـاذا تدخن في صمت . وأنـا حسبت فزاع كمال القوة، أنت قلت انـه جلجـامش قـرننـا . لكنــه يبكي مثـل طفــل ، ويضعف مثـل إنســان . عنيد مثـل جلمود ، وصلب مثـل بشري . وأنـا الذهـول حـين اكتشفت أنه خلق من طين .

ما بالك مظلم الوجه ؟

لماذا لا تتركني أتـوغل في كـل مظلمـة فيك أيهـا الملغز؟ الـظاهر في باطنيتك، الخفي في تجليك .

وكنـا صغـاراً ، والأرق يسـرح في حقـول ليلنــا كقـطيـع نعـاج . والنـواطير نيـام . وكنت تبكي غيبة حسنـين الأب الذي اسمـه آدم المبشر بعهد البطولة . وكنا نلعب ، وأبو التوت يقول انه ورقـة التوت الأخيـرة ، فـإذا سقط شلح العـالم ظـلالـه ، ولم يبق غــير عـراء محض . وكنت أنت خلاصة سلالات قديمة ، أقدم من الأزل ، وثمرة شجرة الأصـداء الموغلة في البعـد السحيق . وكنت تقـول الخـرافـة ، وتلعب بـالمـذيــاع . وتقـرأ أبجدية العلوم والسحر .

قلت لـك هل أريـح رأسي على صـدرك ؟ . . ليكـون وشم القبيلة المنقرضة؟ لماذا لا تضحك يا حسنين ؟ لماذا لا تكشر ؟

أنت تفهمني يا حسنين . . لأنك مثلي غـريب . لأنهم لا يرونـك . . لأننا شبحان . أنا المرأة ذات الشعـر المرسـل كالـريح ، وكـاتم صوت من الخمرة لاغتيال الوقت . أنا المرض الذي يـزعجني ويزعـج عاداتهم . أنـا

زويعة الغثيان التي تهز السائد ، وتعصف بالمتعارف ، وتنقض على المتداول ، على المواثيق ، على العقود العامة . . تنقضها ، تتركها خراباً يباباً . يفهمون مرض الرجال ، ولا يفهمونني . لا يفهمون المرض . لا يفهمون ثأري بعد آلاف السنين . بعد الوأد الجماعي :

ـ امرأة . . وتسكر ؟

يتصايحون بفزع . هم الذين يدمنون المهانة . المروضون المدجنون . . الذين لا أيدي لهم يرفعونها اعتراضاً ، ولا أصوات . هم الأشباح .

أتذكر يوم دعانا فزاع إلى ذلك الاحتفال بمناسبة . . بمناسبة ماذا ؟ وكان في الباحة سفراء ، ومناضلون ، ووزراء سابقون ، ونقابيون ، ولا أذكر من ؟ وكان النُدل يدورون بين المدعوين بالكؤوس . وأنا ـ مفاجأة الاحتفال لنفسه ـ أحتسي ، وأحتسي وتدور الظلال والكؤوس والرؤوس . وكان ذلك الرجل الأنيق يلقي كلمة قصيرة طالت . وأنت إلى يميني وفزاع إلى يساري . وهتفت طوبى لمن في طريق الفجاءة البكر لم يمشِ ، وفي مجلس العصاة لم يقف .

ثم أرسلت ضحكة اتسعت لها العيون ، وأنكرتها الآذان .

لماذا لا تضحك . لماذا لا تبكي . . يا حسنين ، يا دليلي نحو الخلاص من متاهة الشمس وبردها وعتمها وعينها الراصدة .

أعطيتك كرمتي ، لآخذ منك اليأس الخالص ، اليأس الصرف ، اليأس المقدس . حيث لا مخرج ، ولا رجوع ، ولا باب .

أريد أن تسرح كتائبك في بستاني ، لتحترق سفني ، ويلتهب البحر ، ويمسي الأفق حصار يأس . لأدخل إلى كهفك ، وأخرج بكمال اليأس .

لأنني أنا الطيش العارم ، أنا النزوة العامرة . تعبت من هذه المدينة الحكيمة ، من عقلانية المحيط البليدة ، من السكينة التي تسكنها .

لعلي ألوذ بجنون بيروت ؟ من يعلم ؟ لعلي أستجير بتلك الغاب التي اتزانها جنون ، وعقلها فوضى ، والصخب منهجها ، والنزوة سنتها ، والخروج على السائد حرفتها ، واللعب بنار الموت حكمتها .

لعلي أرجم نفسي بنار الخطيئة وجمرها .

وأنت لماذا لا تقول ولا تومىء يا حسنين ؟ أنت الذي يذكر حيواته الماضية . . لماذا لا ترى ؟ أنا أرى رؤيا . . رأيتها فهالتني وأفزعتني . أرى ما يقبل من الغيب ، مثل زرقاء اليمامة . مثل كمال ناصر الذي قال انه سيموت برصاصة ، قبل أن يموت برصاصة . مثلما أحس أنه رأى هذا المشهد من قبل ، حين كان في شقته بـ « فردان » . مثلما قال في نفسه : والآن ستضربني الرصاصة في عنقي . قبل أن تلدغه الرصاصة في عنقه .

أرى رائحة دخان . أراني أرجم نفسي بالجمر . وأراهم يعترفون بك . يندفعون نحوك . يحطمون باب كهفك . يوجهون أصابعهم المتهمة صوبك . وتقول ما أنا سوى شبح . لكنهم يعترفون بآدميتك بدنيويتك ، لأنك تجاوزت الهامش ، وتضرجت بالخطيئة الفتانة . . فرأوك بعد أن كنت متخفياً . وسمعوا لهاثك بعد أن أعرضوا بآذانهم .

وسيحملونك إلى الصلب . على عمود كهرباء ذي مصباح هشمه حجر طفل . وستتطلع من علياء فجيعتك ، ولن ترى إلا وجوهاً ليس بينها واحد تستقر عليه العين ، فتأنس وتطمئن . أنت حسنين الحكيم الذي كان سيد الشوارع وحبيب الفقراء . وسينزف دمك سخيناً ، يتدفق من يديك وقدميك ، ويقطر من جبينك فيخضب شاربك

الكث . والنـاس يتمايلون شـرقـاً وغـربـاً وجنـوبـاً وشمـالاً ، يشـرئبـون بأعناقهم . يتطاولون بـأبصارهم إلى من عـلى عمود الكهـرباء . يتـرنحون بمـرأى الدم . منهم من يصـرخ شماتـة وتشفيـاً ، ومنهم من يكتم أنينـه . أكـاد أسمـع تلك الصـرخـات ، لا بـل أسمعهـا . أكـاد أرى تلك الجماهير ، لا بل أراها . وعيناك المنطبقتـان تنفتحان بهـدوء وترتفعـان إلى فـوق . أنى لهم أن يفهمـوا مثلما فهمت ؟ أمـا كنت تخفي بينـك وبينـك إحساساً مبهماً غامضاً باطنياً بأنك المختار الموعود المنتظر الهادي المبارك ؟

يمـوجـون حـولـك ـ أراهم ـ مهللين ، بـاكـين . كلهم يتمنى أن يكونك . وكلهم فرح لأنه سواك . وكلهم يتمنى لو كان غير نفسه .

لماذا لا تحكي عن ميخائيـل نعيمة ؟ لماذا لا تتحرك ؟ أتـذكـر يـوم جـاءك أبوك بـراديو الترانزستـور . كيف ذهلت ؟ علبة لا أسـلاك لها . . تحكي . وفككتـه لأنـه لغـز . فككتـه سلكـاً سلكـاً ، جـزءاً جـزءاً . لتعـرف . آه كم تتعشق المعرفـة أيهـا الممعن في البـاطن . جـدتـك تحكي عن حيواتها ، وأخـوها بـالرضـاعة يحكي عن المهـدي . جدك عن قبيلتـه التي انقرضت .

وفزاع يسخر منك . من جسدك النـاحل . من افتقـارك العصبية . فزاع البري الذي انقلب على نفسـه ، على ضيق العصبيـة . فزاع المقـاتل من أجـل حلم ، المكـافـح من أجـل اتحـاد . . لا يفهم امـرأة تـدمن الخمرة ، ثم تدخل التوبة .

أنا اضطجعت ونمت ، فـرأيت . رأيت ذلك الـطيف يمشي في الهواء ويكلمني . وجهه هالة من ضياء ، وصوته ناء يأخذني من كل الجهات .

تعـاتبني . . كنت . تقـول لا مخلص إلا العلم . يمـد يـده لينتشلنـا من عصـور الظلام . تعـاتبني : « تؤمنين بمخلص لا وجـود لـه » وأنت في جبك الموحش السحيق ، تحسب أنك المخلص . عيناك تعريانك .

لماذا لا تقول ولا تومىء ولا تزول ؟ لماذا لا تعلق ولا ترد ولا تجيب ؟ لماذا بيننا مسافة صماء ، مساحة بكماء ، جدار أعمى ؟ حجاب حاجز . فزاع يقرع بابي . . وأنا أتهيأ لرجمي بجذوة الجمر . بسلامة أضطجع بل أيضاً أنام . لأن سكينة المخلص تسكنني . أنا التي هرولت نحو الهاوية قبل حزيران . وطرت نحو الأفق بعد حزيران ، فوق سحاب الوعي والمعرفة . ثم هدر النفط مثل الطوفان . . فغرقت في الأزياء وفردوس « ديزني لاند » . ثم عدت إلى سكينة الإيمان .

ألا يحق لي أن أحل تناقضي بيدي ؟ كي يغفر لي هذا الطيف ذو الهالة ؟

يا رب ما أكثر أربابي ومضايقيَّ . كثيرون قائمون عليَّ . . وأنا واحدة وحيدة تسيجني الوحشة . كلماتي لهم تصير جدراناً عازلة . لا يفهمون ولا أفهم . وأنت المخلص المتخفي وراء الأفق ، الغائب في دهاليز الزمن ، ومتاهة الأماكن ، أدعوك فتستجيب .

حتى متى يكون مجدي عاراً ؟ وتكون عزلتي مثار فضول ؟ وتكون أسئلتي معصية ؟

قم . . وتعال . إنزل .

لكنك تتنفس بانتظام ، ولا تحكي ولا تومىء ولا تزول .

يا حسنين . هيه . . ياح . . سن . . نيـ . . نين . . نين . . نين . .

وأراهم وقد فاضت روحك ، ينتحبون . كلهم ينتحبون . القتلة والضحايا والشهود . كأنما لا يصدقون أنك قابل للموت . معرض لقتلهم . كأنهم كانوا يمتحنون حصانتك ، مناعتك . فأذهلهم كمال ضعفك .

اذهبوا إلى البعيد واتركوني . كي أستحم باللهب . كي أستحم . . كي . . .

* * *

الجزء الثالث

المتاهة

« . . بواسطة التلفزيون . . . ونتيجة للتطور في التكنولوجيا والإلكترون « التكنترون » . . . وعبر الأقمار الصناعية والتلفون الأوتوماتيكي سيصبح في مقدورنا « غزو » المنازل الخاصة في بلدان أخرى . بل سيصبح في مقدور الأقمار الصناعية البث مباشرة لأجهزة استقبال دون محطات وسيطة تستقبل وتعيد البث ثانية » .

زبيجينيو بريجنسكي

« في الأعماق السحيقة المظلمة للنفس البشرية يوجد اللاشعور الجمعي ، الذي يتضمن كل ما هو بدائي . . (أساطير . . خرافات . . طقوس إلخ) . . . ونحن نلتقي مع مكونات هذه الأعماق السحيقة عبر الأحلام والهذيان والأوهام (. . .) أما الأحلام فهي الباب الصغير الخفي المتواري في الأماكن السرية الجوانية . . . » .

كارل غوستاف يونغ .

هكذا تكلم حسنين

كان علي أن أهرب . . بعدما أحرقت بلقيس نفسها . بعدما رجمت نفسها بالجمر . بعدما لحستها ألسنة اللهب . بعدما إلتهمتها النار . . وهي جائعة ظمأى .

وكنت أركض . . وهم يركضون في ظلي . من الكهوف خرجوا ، من عصور الظلام انبثقوا . نَسَلوا من كل ثكنة في الأرض ، وهرعوا من كل محكمة ، ووفدوا من كل الأزمنة ، وأشاروا إليَّ بآلاف الأصابع : هذا الرجل دفع بلقيس إلى محرقة اليأس .

وأنا ألهث وأركض . وهم ورائي . . اعترفوا بوجودي بعد اتهامي . في البدء كان الاتهام بدفع بلقيس إلى حمم النار . . ثم جاء الاعتراف . كأن اتهامي وملاحقتي شرط مسبق للاعتراف بي .

حين ولجت مدار اليأس من تفسير هذا العالم . . وتغييره . . توقفوا . لذت بقرية صحراوية نائية ، تقوم قرب مقبرة غبراء . وفي بيتي الصغير المنسي الموحش . في غرفتي المتوحدة . . بدأت أصوغ عالما بديلاً . أفكك العالم القائم ، وأصوغ البديل من خلال « عمل » لا سيطرة لأحد عليه سواي . أنا ظروفه الموضوعية . . أنا ظروفه الذاتية . . أنا لحظته الحرجة .

تحت ضربات شمس وحشية جهنميةكنت أصوغ هذا العالم البديل وأنسج خيوطه . اللفح الناري يضربني على رأسي . . وأنا أصوغ أصوغ أصوغ . ومثل خلد الحقل رحت أنبش أنفاقاً في حقول الأزمنة . تواريت عن الناس في هذه القفار . اعتزلت العالم العصي على التواصل معي . وعكفت على إقامة معمار « عملي » الجديد ، وعالمي البديل .

أحسست بأن لا خيار آخر أمامي سوى الانتحار . فقد نبذني الحلم ، ولفظتني العصبة ، وخلعتني القبيلة ، وهجرتني البطولة والرسالة والأدوار ، فأضعت المعنى والمبرر . . نعم . . كان عليَّ أن أبدع حلمي . أن أصوغ وهمي . أن أصور بطولة أسيطر على ظروفها ، وأعد مسرحها واهيىء وقائعها . فلا تتدخل ظروف موضوعية أو ذاتية خارجة عن إرادتي لتفسد ما بنيت .

أدركت أن العالم الخارجي لن يعترف بي إلا مجرماً : إما أن أكون قاتل بلقيس . . فيعترف بي . أو أن يرى إليَّ بريئاً فيشيح عني ، ويسحب مني هويتي ويتعامل معي على أنني شبح . . مجرد شبح .

هربت من الناس والمؤسسات والعالم الخارجي ، ولذت بهذه العزلة ، وهذه الحماسة المجنونة لإقامة أسطورتي الخاصة ، أبطالي أنا ، نصي أنا ، أدواري أنا : مسرحي أنا .

كنت بحاجة ماسة إلى الشعور بالانتماء . فعمدت إلى تصوير آدم الحسنين ، جدي الأول ، كأنني أبحث عنه ، كي أجد جذوراً (أنا المقطوع من شجرة) . أبحث ؟ لا . . بدأت أصوغه من جديد . وكنت أغرف عناصر ملامحه من أعماقي السحيقة المظلمة .

أعرف أنه موجود في داخلي . في تلك الأعماق الغائرة المتوارية تحت طبقات موصدة ، يرصدها حرس الوعي ، وجند الشعور .

أعترف أن قوة خفية باهرة ساطية سيطرت عليَّ كلياً . . ودفعتني دفعاً إلى صياغة هذا البطل المفجع . إلى لملمة شظاياه من الواقع والذاكرة وأطلال الكوابيس ، ورموز الأحلام ، وصدى الرؤى . . . وإعادة تركيبها في « عمل » خلاق .

رحت أشيد هذا العالم المدهش ـ عالم البطولة المفجعة ـ لبنة لبنة . أحفر في أعماقي أنفاقاً كما لو كنت أقيم منجماً . وجعلت أصوغ

شخصيات هذا « العمل » كما أشاء . أتلعب بمصائرها وملامحها كيفما أردت . دلفت إلى جحور الذاكرة المنسية المحرمة ، فنسيت انتحار بلقيس ، واتهامي بدفعها إلى لهب اليأس . نسيت في دهاليز الذاكرة الجمعية قضية أبي ، وحسن الثاني ، وأبناء الحارة ، وعدم الاعتراف بوجودي . حياة جديدة تتفتح أمامي يخرج فيها الوهمي من الواقعي ، ويدخل اللاشعوري في الشعوري . كنت أدفع أبطالي (القدامى ـ الجدد) إلى أدوار حلمت بأن ألعبها أنا . كنت أشبه بضحية خذلها عالمها ، فانقلبت إلى طاغية يصوغ عالمه الخاص . ليسيطر هذه المرة على ظروفه ، وتفاصيله ، حتى لا يبقى للخذلان منفذ .

طاغية يرسم دور أبطاله بدقة ، ويمنعهم من الخروج عن النص والسيناريو وشروط الإخراج .

كانت هذه العملية ـ صياغة عالم جديد على أنقاض عالم خذلني ـ أشبه بولوج سلسلة من الأحلام . أحلام أنقذتني من يأس مظلم ذي نفق لا يؤدي سوى إلى هاوية الانتحار .

كان ينبغي أن أحيا . كان ينبغي أن أقص .

وهكذا بدأت بصياغة عالم أسيطر عليه ، بعد أن عثرت على نفسي شبحاً في عالم وجدت ظروفي الذاتية أنها متضاربة مع ظروفه الموضوعية .

ولكن الصفعة الكبرى ، والصدمة الهائلة ، تمثلت في تمرد أبطالي على مشيئتي . فهذا آدم يسمي نفسه « ذياب » . ثم إنه يرفض مواصلة الدور البطولي المفجع الذي أسندته له ، بحجة الحمل الذي بهظه وأنهكه . وإذا به ينعطف نحو مسلك لم أرسمه ويهجر دور البطولة المفجعة ليلعب دوراً عادياً يومياً يلعبه آلاف الجنرالات ، ومئات من الموظفين الصغار ، في العالم الثالث .

كيف إنفلت هذا « العالم ـ العمل » الجديد وأبطاله من بين أصابعي ؟ .
لا أدري .

ولماذا أعتبر أبطالي أن البطولة الحقة تكمن في التمرد على الدور الذي رسمته لهم ؟ وأن التمرد بالخروج على النصوص التي صغتها لهم هو رسالتهم الكبرى !

وهكذا حرمت مرة أخرى من خرافة كنت بأمس الحاجة إليها . ومن وهم رأيت فيه خلاصي . ومن حلم حسبته مخلصي من يأس خطر ملغوم .

قضيت أياماً لم أخرج فيها من قبوي القائم ما بين المقبرة والصحراء . كنت أقلب الرأي ، وأتلمس الخروج من هذه الخيبة القابضة ، وهذه الوحشة المظلمة التي ألحت علي بعد أن هجرني أبطالي الذين صُغْتُهم .

ثم انتهيت إلى قرار لا راد له : الانتحار شنقاً .

ولكن قبل أن أعلق حبل الغسيل بسقف غرفتي وأصعد مقعدي الخشبي وأدس رأسي في عقدة الحبل ، سوف أقرأ مسودة ذلك العالم الجديد الذي صغته ـ عالم البطولة المفجعة ـ .

العالم البديل الذي انفلت كالسراب ، كقبض الريح . . من بين أصابعي . وتأبّى على مخيلتي . فاختلطت أدوار أبطاله ، وتداخلت ملامحهم ، وتبدلت أسماء كل شخص من شخصياته . . حتى فقدت سيطرتي عليه تماماً . وبت أرنو إليه كما يرنو غريب إلى آثار وأطلال قديمة ، لا يربط بينه وبينها رابط تأريخي حضاري ، ولا تراث .

ولكن . . هل هذا صحيح ؟

لنقرأ ونحكم بأنفسنا :

مسودة فصل من فصول « العمل » .

العالم البديل

لم تعرف الصحارى ، ومجاهل وديان اليباب ومتاهات القفار شاباً مثل آدم الحسنين . . رجل ولا كل الرجال . تعددت الروايات حوله وتضاربت . لكنها تتفق جميعاً على أن هذا الرجل الفخم الضخم ، المهيب الرهيب ، ليس كائناً عادياً .

قيل انه ليس بشراً عادياً . . بل كان كائنين إسطوريين في جسم واحد . وقيل : هو قبيلة كاملة تتقمص رجلاً . وقيل انه خطف من حجر أمه الحقيقية ، ومن مضارب قبيلته الأصلية ودفع وهو طفل رضيع إلى متاهة صحراوية مجهولة . لكنه لم يمت . بل عاش في أعماق الصحراء مع الوحش مسالماً لها حتى ألفته وأرضعته وأنست به واطمأنت إليه . ووجد في ضواري الصحراء أهلاً له ، يستعيض بها عن أهله من البشر .

وما ان شب حتى بات على علم واسع بأسرار مجاهل الصحراء ، ومعرفة دقيقة بشعابها ودروبها ومسالكها ومياهها . واكتسب مقدرة فائقة على الاهتداء في متاهاتها المضلة دون دليل .

وقيل انه عاد إلى قبيلته بعد عشر سنوات من الغياب . وفي رواية أخرى أنه لم يعد إلى قبيلته الأصلية ، وإنما عثرت عليه قافلة بدو ينتمون إلى قبيلة الحسنين ، فحملوه إلى شيخ مشايخهم . فما ان وقع بصر الشيخ عليه حتى سمع هاتفاً خفياً يقول له بصوت لا لبس ولا غموض فيه :

ـ هذا غلام مبارك . هذا غلام مبارك .

فتبناه .

كان آدم تياهاً كالنخيل ، متواضعاً كملاك . يتقمص وجه ولي ، وعيني ذئب . على محياه حكمة الشيوخ وجموح الشباب .

سُئِلَ ابن عمه عنه ذات مرة . قيل له :

ــ ما ظنك بآدم ؟

قال :

ــ أأطنب أم أختصر ؟

قالوا :

ــ إختصر .

قال :

ــ لا أعرفه ينام إلا وعضو فيه يقظان . إذ استوى فسكين ، وإن اعوج فمنجل .

وسُئلت أمه عنه . فطردت ذبابة عن عينيها ونادت عنزتها ثم قالت :

ــ أخف رأساً من الطائر ، أبصر من عقاب ، أحذر من غراب ؟

وقيل عنه :

ــ يكاد المرء ينكر أنه إنسان لما يعتريه من هيبة حين يقف بين يديه .

وقيل :

ــ حمله أبوه حين ولد إلى منجم عراف ليقرأ طالعه . فما ان قلب

العـراف كفه حتى استـطار قلبه وصمت لاَ ينبس . وعنـدما حثـه الأب على الكلام .

قال :

ــ علمت شيئـاً لا أجسر عـلى التفـوه بـه . وأكــاد أكـذب تنجيمي ولا أصـدقـه لغـرابتـه . هــذا غـلام يبلغ الأسبــاب ، ويـركب السحاب ، ثم يهوي فاجعاً كالشهاب .

ثم صمت لا يضيف كلمة .

قال قائل من القبيلة :

اجتمع شيوخ وفـرسان القبيلة في مضـافة القبيلة ذات مسـاء . بعد أن تسـامـع القـوم بنبـأ خـطير وقفت لـه القلوب فـما تخفق ، وجمـدت لـه الدماء فما تجري ، ووجمت له النفوس فما تستطيع روية ولا تفكيراً .

وهلعت النساء في بيوت الشعـر ، وشخصت عيونهن إلى المضـافة . وسرت همهمة غير عادية حين دلف آدم إلى المضـافة بجسـده الذي ارتفـع في السـماء ، وامتـد في الأفق . ورأى الجميـع عينيـه تتقـدان بنـور أخضر مبارك .

في تلك اللحـظة صهلت الخيـل ، وثغت الغنم ، ورغت الإبــل ، وخارت البقر ، وأرعدت السماء . . ومال النخيل وانحنى .

الـوجـوه المتجهمـة ارتفعت بعـدمـا كـانت مـطرقـة . وتعلق بَصَرُ أصحابها بآدم فتابعت دخوله المهيب ، ووجهه الحبيب .

قال بصوت عميق :

ــ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فـردوا لـه التحيـة بصـوت واحـد . بـادر الشيـخ حسنين فجعــل

يتحدث عن النبأ الخطير . قال وهو يقبض على ذقنه العريضة ويعبث بعثنونه ، ان السلطان عبد الحميد أمر بمد خط حديدي لنقل مواكب الحجاج والقوافل وأحمالها . وأكد أن هذا الخط الحديدي ما هو إلا عمل من رجس الشيطان . خطط له إبليس كي يحرم القبيلة من المورد الضخم الذي يجعلها من أمنع عشائر العرب وأكثرها بأساً وجاهاً .

الخط الحديدي يعني استغناء مواكب الحجاج ، وقوافل التجار عن جمال العشيرة ورواحلها التي تنقل الحجاج وتحمل متاعهم كل عام . وعن فرسانها الذين يؤمنون لهذه المواكب الحماية من غارات البدو وقطاع الطرق لقاء مبالغ كبيرة . كما يعني انقطاع الهبات العثمانية الحكومية السنوية المخصصة لشراء طاعة القبيلة وخدماتها . أضف إلى هذا كله أن أهل البلاد من الفلاحين قد أجدبوا في هذه السنة التي أصابتهم فأهلكت زرعهم وأصابهم جوع وبؤس . وما عاد خروج القبيلة لغزو يصيب معاشاً ينفعها . فالمطر محتبس في سحاب بعيد ، والأرض قاحلة .

تطاول القوم بأعناقهم ، والتفتوا إلى آدم كأنما يحثونه على الكلام . أبرقت عيناه ، وأوقف طرفي شاربيه الكثين أنفة وكبراً ثم نهض واقفاً . فأخذت القوم الرجفة . ولاحظ الجميع تلك الشعلة الغريبة تتقد في عينيه . لا ينقطع نورها ، ولا يحتبس ، ولا يخبو . لكنه أمسك لسانه في فمه لا يقول ولا ينبس . قال أبوه :

ـ عرفناك يا آدم كريماً لا ينقطع عطاؤه ، فيصلاً لا يطعن رأيه ، شجاعاً لا يُضام نزيله . فأنبئنا فيما نسألك عنه .

قال آدم دون أن يلتفت :

ـ سل عما بدا لك .

ومد بصره إلى البعيد ، كأنما يرى مصيره أمامه .

سأله الأب :

ـ أرشدنا بثاقب رأيك . هل نواجه هذا الوحش الحديدي الذي سينقض على أرزاقنا ، أم ننصرف عنه طلباً للسلامة ؟

أطرق آدم كأنما رأى لتوه رؤيا جمدته في مكانه فلا يستطيع منه انتقالاً . ثم شحب وجهه والتمع في عينيه بريق متوحش . قال بصوته العميق وهو يلملم أطراف عباءته :

ـ نهاجم الخط الحديدي ، ونتخطف العمال والمهندسين الأجانب ، ونتلعب بالجنود والدرك من العثمانيين .

بهت القوم وظهر عليهم الوجوم ، وزحف بعضهم فاقترب من النار ليداري قشعريرة الخوف . أرهفوا آذانهم ، وثبتوا أحداقهم ، وعلقوا أنفاسهم . رمقهم آدم بنظرة ذات مغزى ثم شد الفروة الكابية على كتفيه واتجه صوب باب المضافة . ثم التفت باسم الثغر وقال :

ـ أرزاقنا في رماحنا . . ورماحنا مشحوذة على برق السماء .

غادر الهمهمة وعم صوب الصمت . وجعل الأولاد والفتيان يخلون بينه وبين الطريق . وقف وسط واحة النخيل . تأمل سعف النخل يمسد جدائل الرياح ويلتمع . جلس عند جذع نخلة فأخذته عينه ونام . آتاه آت في منامه وقد تقمص صورة قوة نورانية اتخذت شكلاً إنسانياً . هزه الطيف وقال :

ـ أفق من غشيتك ، وانتبه من رقدتك يا آدم . . إنك ستحمل ما لو حملته الجبال لهاضها . فالقدر سيقلدك جسيماً من أمره .

أقبل والده يبحث عنه بعد أن انفض المجلس . رآه نائماً عند جذع شجرة النخل فاقتعد الأرض إلى جانبه ، وراح يتأمله ويفكر :

آدم . . سريع الغضب ، سريع الخاطر ، براق العينين ، عالي

العنق . تشع عيناه السوداوان الواسعتان جاذبية وقوة وسحراً من تحت أهداب طوال حوالك .

ثم غمغم كأنما يحدث نفسه :

ـ ستجلب علينا الويلات يا آدم . انتقام العثمانيين والخبراء الألمان . وما أراك إن أنفذت عزمك إلا هالكاً . ولكنك رجل ولا كل الرجال .

رمق آدم بنظرة زهو واعتداد . ثم هز رأسه وعبث بعثنونه ونهض ليختفي في واحة العتمة .

غادر القوم المضافة ، والقلق يعمل في نفوسهم ، والبرد يقرص أجسادهم . بغتة هبت عاصفة هوجاء عاتية ، أخذت تسفع الوجوه بريح محرقة ، وتثير من حول المضارب رمالاً كأنها الشرر الملتهب . وأربدت الآفاق تحمل ألف شر مستطير ، فامتلأ الجو بالغبار والذهول والجزع .

* * *

في الصباح الباكر هدأت العاصفة ، وسكنت ثائرتها ، لكن نفس آدم لم تسكن ولم تهدأ ، وإنما ظلت تمور وتضطرب بشتى الانفعالات المتضاربة والخواطر المتنافرة .

سعى إلى بيت الشعر الذي يقيم فيه والده . فوجد الشيخ واقفاً منتصباً في وسط الخيمة كأنما ينتظره منذ زمن بعيد . رآه مشتهب الرأس ، واهن العظم ، نحيل الظل ، معروق العظام ، معوج القناة .

انحنى الشيخ وفتح صندوقاً خشبياً قديماً لم يفتح منذ أزمنة سحيقة . استخرج سيفاً عجيباً يسطع في الظل وفي اللظى وناوله لآدم في صمت . فأدرك آدم أنه السيف الذي حدثه عنه الشيخ طويلاً أيام

الطفولة : حسام سيف بن ذي يزن الذي قيل انه مطلسم ذو قوة سحرية . تناوله آدم وقد اتقدت عيناه ببريق خرافي .

عنَّ له أن يضم والده إلى صدره ويقبله في جبينه مودعاً . لكنه لم يفعل . ظلا يتناظران في صمت ذي مغزى ، وسكون بليغ لا ينبسان بحرف واحد .

دخل آدم في فروته الغبراء . حمل بندقيته العثمانية وسيفه المطلسم ، ثم انفتل وخرج من الخيمة دون أن ينطق بكلمة وداع .

سعى نحو جواده صامتاً يتقد ومض عينيه . فإذا بعشرين فارساً من بطون القبيلة المختلفة ينتظرونه ليمضوا معه . اعتلى جواده الأبيض الأصيل وانطلق أمامهم ، فتبعوه .

أمعن الفرسان في وديان اليباب ، ومضوا يطوون القفار ، ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد . إلى أن أطلت الشمس ـ سيدة الصحراء ـ فاحتقن وجهها لرؤيتهم وتضرج . وسرعان ما بدأت تتحرش بهم . فإذا بها ترسل شعرها الذهبي الناري لينهمر على رؤوسهم ووجوههم وأبدانهم . أحاط بهم لظى محرق سكنت له حركة الكون ، وخفتت له الأصوات . وأوشكت الصخور السود المتوهجة أن تصرخ من لذع لسان سيدة الصحراء السليط .

لكن الفرسان لم يهنوا ولم يترددوا بل واصلوا طرادهم بلا وجل إلى أن بلغوا هضبة عارية جرداء . .

رفع آدم يده ، فتوقفت المسيرة . ارتقى بجواده الهضبة . مد بصره فرأى معسكر المهندسين الألمان . وأبصر الدرك يحرسونه .

رجال يدخلون ويخرجون من خيامهم ، يدرسون مخططات طويلة عريضة ، وقد شرعوا في مد الخطوط ووضع الدعائم والركائز والحفر والتسوية .

كـان الألمان شبـه عراة ، وبـدت أجسـادهم الـذهبيـة تسـطع تحت وهج الشمس الكاوية .

اتقـدت عينا آدم . رفـع حسامـه المطلسم وأشـار لقومـه . فسـاروا بـالخيل وانحـدروا كالسيـل ، وانعطفـوا متسابقـين ، ورمحوا متـلاحقين ، وتنـاوبوا في النـزال ، واندفعـوا كالجبـال ، وساقـوا في الفجـاج ، وأثـاروا العجـاج ، وارتفعت الأصوات ، وعلت الصيحـات ، وزادت الهيـازع ، وكثرت الزعازع .

وأقسم بـدوي شـارك في « الحملة ـ الغـزو » أنـه رأى آدم ينثني عن صهـوة جـواده ويضـرب حـديـد السكـة بحسـامـه العجيب ، فيشقه الى نصفين .

تولت الدهشة الخبراء الألمـان ، وأربكت المفاجـأة الجنود والـدرك . ولعلع رصـاص حين اقتحم آدم الخيمـة الرئيسـة فدكهـا بقوائم جـواده ، وانتثرت دماء خضبت الأرض اليبوس .

وقـال قائـل من الذين شـاركوا في الحملة ـ بعـد مـرور الـزمن ـ ان آدم كـان مجللاً بهالـة من غبار نـوراني مضيء ، وان هـذا الغبـار العجيب كـان يتلقى رصاص العـدو وضربـاته ، فيمـرق آدم بـين صفـوف الـدرك مروق الشبح في الحلم عصيّاً على الرصاص ، عصيّاً على الحراب .

عندما سكنت الأصوات وهمد الضجيج ، وبينما أخـذ البدو ينهبـون ما استطاعوا إليه سبيلاً ، ترجل آدم عن جواده فإذا به يسمـع أنيناً يـرسله جريح ألماني متوارٍ خلف صخرة صماء .

مشى آدم بـين الجثث المضرجـة بدمـائها ودنـا منه . صـاح الجريـح مستغيثـاً وتنـاهض بصعـوبـة ثم زحف إلى خيمتـه ونبش بـين بقـايـاهـا واستخرج شيئاً أشبه بالصندوق يرسل صوت مغنية أجنبية .

صـوت غنـائي سـاحـر مـا إن سمعـه آدم حتى استـولى عـلى نفسـه

وسيطر عليها وأخذ بمجامع قلبه وهزه هزاً عنيفاً .

تولته الدهشة ، ورمق الألماني ، شبه العاري إلا من بنطال قصير ، بنظرة ثابتة . فرمقه الألماني بنظرة تتوسل وتستعطف ثم ردها مسرعاً . أشار إلى الصندوق ثم أشار إلى آدم . وأدرك آدم أن الألماني يعرض عليه مصادرة الصندوق مقابل الحفاظ على حياته .

وقف الألماني بين يدي آدم مسمراً لا يميل ولا يزول ، وجرت في جسده رعدة اصطكت لها أسنانه وركبتاه . ومض بريق مخيف في عيني آدم . كان يُنقِّل نظراته بين الصندوق العجيب وبين جسد الألماني الأبيض المتوهج .

حك آدم رأسه يقلب رأيه ، ثم هزه كأنما بيت في نفسه أمراً خطيراً . رمى ببصره إلى رفاقه وصاح :

ـ ماذا تفعلون ؟

قال أحدهم :

ـ ننهب .

قال آدم بلهجة آمرة :

ـ تعالوا انظروا هذا الصندوق العجيب . انه أشبه بقمقم حجز فيه الجن حورية باهرة .

دخل رفاق آدم إلى الخيمة ، فانتفضوا كالملسوعين حين سمعوا الصوت الخلاب والموسيقى الساحرة . حدقوا إلى الصندوق في ريبة ، وثارت في نفوسهم الظنون ، فأنكروا ما يسمعون وما يبصرون ، وظنوا بأنفسهم العلة .

ثم إن آدم أصغى إلى الصوت الذي سلب لبه ، وقد اقشعر بدنه

وتاه عقله ومادت به الأرض ، ودار به الفضاء دورة كادت تصعقه . وأنشأ الصوت السحري يتسرب إلى مسامعه ويتسلل منحدراً بقوة وعنف صوب قلبه ، فإذا به يشغف بالفتاة الخفية الحبيسة شغفاً جنونياً .

وإذا هي تتراءى له في مخيلته امرأة خارقة الجمال ، إذا رآها الرائي خالها كوكباً درياً من البهاء الخالص . ورده لغط الرجال إلى يقظته فنزع بصره من الصندوق العجيب كمن يصحو من غفوة .

التفت آدم إلى الألماني المنكمش في ركن الخيمة وحدجه بنظرة طاغية وقال بلهجة آمرة :

ــ أخرج لي هذه المرأة من هذا القمقم . . أي عفريت أنت ؟

احتبس صوت الألماني ، وبكى وصرخ بالألمانية ولوح بذراعيه يائساً .

اشتعل غضب آدم ، وأعماه الغيظ فاستل سيفه المطلسم وضرب رأس الألماني ضربة استطارت منها قلوب رفاقه .

وفي رواية أخرى قيل ان آدم ضرب عنق الألماني بحسام سيف بن ذي يزن المطلسم واحتزه . لكن رأس هذا العفريت ظل ثابتاً في مكانه لا يهوي ولا يزول . فصرخ آدم بصوت رجل عازب العقل :

ــ اهزز رأسك يا عفريت .

هز الألماني رأسه ، فتدحرج عن رقبته وهوى نحو الأرض . وظل يتدحرج متيامناً متياسراً مخضباً بالدماء حتى توقف بين قدمي آدم .

وقيل :

ثم إن آدم حطم الصندوق فسالت دماء غزيرة ، لكن المحبوبة لم تخرج من أحشاء الحاكي ، بل تناثرت قطعاً صغيرةً من الحديد والأسلاك .

وأقسم البعض أن آدم ابتعد ليخلو بنفسه ثم أجهش في البكاء ، ـ هو الذي لم تدمع عينه منذ ولدته أمه ـ متفجعاً على مصير حبيبته التي اختفت تماماً واختفى معها صوتها إلى الأبد .

وهرع رفاق آدم فجمعوا قطع الحديد والأسلاك وحملوها لآدم كما لو كانوا يحملون رفات حبيبته . وجعلوا يواسونه . فحمل آدم الأسلاك وقطع الحديد ، ومشى مشية حزينة مهيبة ، ثم إنه حفر حفرة . . ودفنها فيها .

سار خبر هذه الواقعة مع الشمس ، وانتقل مع الريح . وراحت أصابع الأعراب تومىء إلى آدم ، والأعناق تمتد إليه . وطار صيته إلى الأستانة فأمر السلطان شخصياً بقتله والتنكيل بعشيرته إن لم تسلمه للدرك .

وداخل آدم إحساس بأن بعض أبناء القبيلة باتوا يتجنبونه ويرمقونه بنظرات تطالبه بالجلاء عن المضارب حتى أيقن أنه غدا منبوذاً من بعض الأقرباء ، مجفواً من بعض الأشقاء . غير أنه لم يحقد على أحد منهم . كان يدرك أن بقاءه بينهم جلاب لويلات لن ينجو منها طفل أو امرأة .

في ليلة غاب عنها القمر ، حمل آدم حسام سيف بن ذي يزن المطلسم ، وجراح قلبه وحبه التي لم تلتئم ، وراح يضرب في الأرض صوب مجاهل الصحراء .

مشى آدم ومشى ، وقد أدرك أنه بات من ذؤبان العرب وشذاذها ، صعلوكاً لا عصبية تجيره أو ترد عنه الأذى . وولج مدارات الوحشة والليل المرعب والصمت الحذر وهو يقلب الرأي ، ويتلمس الخروج ، ويحاول أن يتعرف على المصير المجهول ، والحياة المقبلة الغامضة .

شعر وكأنه يخرج من حلم ويدخل في حلم جديد . حلم مبهم

يناديه بصوت فاتن مجهول . وظل يمشي ويمشي كالسائر في منامه ، قدماه تحملانه صوب وجهة محددة لا يعرفها وعيه . كأنما تسيره قوة خفية لا يكاد يتبينها . إلى أن انجابت الظلمة ، وتمزقت خيوط العتمة ، وانفلق عمود الصباح .

بزغت الشمس ـ سيدة الصحراء وعفريتها ـ متوهجة بهية ، فلمحت آدم يوغل في مجاهل اليباب . داعبته بشعشعة بثت في نفسه الحياة ، وفي جسده النشاط . ثم تضاحكت منه وعبثت به ، فسلطت عليه أشعة حارقة كاوية كأنما تنشد أن تضرب بنارها هذا الرجل الذي يتحداها ويمشي وحيداً في مملكتها .

ويقول الرواة ان سرباً من اليمام حلّق فوق رأسه وكون غيمة بيضاء ألقت بظلالها عليه ، وصانته من فجور الشمس الطاغية .

ومشى آدم ومشى واليمام الأبيض يفرد أجنحته وينشرها فوق رأسه ، يجلله بظل وارف ، ويتلقى ضربات الشمس ويردها عنه .

مشى آدم ومشى واليمام عمامة من غمام .

مشى آدم ومشى ، وولج زوبعة رملية تئز وتصرخ صراخ جنيات ضللن الدرب . ودخل في أتون وهج يصهر الأبدان . وطوى رمالاً تئن من لسع السعير اللاهب .

ومشى ومشى عارياً من العصبية ، قابلاً للزوال ، تائهاً تقوده قدماه ، وتبصر طريقه قوة خفية ، ووعيه أعمى وباله متناوم .

بغتة . . عثر آدم على نفسه يقف أمام سلسلة جبال صقيلة عجيبة أشبه بالمرايا . والتفت فمد بصره نحو الأفق البعيد . رأى شكلاً مبهماً أشبه بنقش غريب ملغز يتصدر الفضاء كالوشم .

روع آدم أيما روع . ووجد نفسه معقود اللسان . جعل ينظر

حوله ليتحقق من أنه في يقظة ، ثم عاد يرمي بصره إلى النقش المرسوم على الأفق كأنه الوشم . فإذا بالوشم يتحرك ، كأنه مكوَّن من ذرات سود صغيرة تدور وتنتشر وتهبط وتصعد وتكر وتفر وتظهر وتختفي ضمن الإطار الكلي للشكل الغريب . ثم عاد ورمى بصره نحو الجبال العجيبة . أي عجب يرى ؟ أتكون هذه الجبال سراباً خبيثاً ؟ أيكون هذا الوشم وهماً أو طيفاً يراه بصر قد عبثت به الشمس الجهنمية ؟

* * *

ولكنه يحلق إلى الجبال الملساء الصقيلة فيبصر فيها وجهه في شيء من التزوير ، ويجول بعينيه الذاهلتين بهذه المرايا المقعرة فيرى مدن الشرق ، وغاباته ، وصحاريه ، وقراه ، وماشيته ، ورجاله . لكنها صور محورة أو مضخمة أو محرفة أو مشوهة .

وقف شعر رأسه عجباً ، واقتعد قلبه الرعب ، وتطاول عنقه ورأسه . وطافت نظراته التي تكاد تنكر صدق ما تراه في حركة متصلة فلا تكاد عيناه تستقران على جبل واحد ومرآة واحدة . . وإنما هما تتلمسان بنظراتهما الدهشة هذه السلسلة العجيبة من جبال المرايا المقعرة .

وساوره قلق ملح بعد ذهوله : هل سدت الجهات دونه ؟ لكن غمامة الحمائم دارت دورتين فوق رأسه فبدت وكأنها هالة من النور تتوج رأسه ، ثم انحدرت ومالت وانثنت فإذا بها تدخل نفقاً سرياً لا يمكن للعين المجردة أن تراه . أشارت له يمامة بجناحها واستدنته بإشارة من ريشها . . فعبر آدم الشق السري وقد أخذ الدهش منه كل مأخذ . فوجد نفسه إزاء صخرة سوداء جهمة تقف في طريقه كمارد جبار انبثق لتوه من قمقمه فشبك ذراعيه وسد الدروب .

في تلك اللحظة وقفت ببغاء فوق رأس آدم وهتفت :

ــ افتح يا سمسم السراب .

فإذا بالصخرة لا تتفتح .. ولكنها تختفي كأنها لم تكن هناك أبداً ، كأنها صخرة من سراب يخدع الحواس ويوهم العقل .

تسلل آدم عبر النفق مأخوذاً بظمأ تساؤلات لا تروى ، مشدوهاً تدور في رأسه قوافل حمى لا تحمل أجوبة .

مشى آدم ومشى حتى وقع بصره المتشكك في يقظته على تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية ، تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال الجرداء .

وأدرك آدم عند ذاك أنه يلج عالماً جديداً ويكتشف أرضاً عجيبة مجهولة .

وأدرك آدم بفراسته الحادة أن هذه التلال هي معاقل الصعاليك . التي سمع عنها قصصاً أشبه بالأساطير . صوب بصره ثم صعده فشاهد عن بعد مغاور تنبثق منها أشباح تنثني وتقفز وتميل كقطعان الماعز ، وكهوفاً تشهد حركة لا تستقر : لقد رصدوا ظهوره .

تلال .. تلال .. تلال .. وكهوف مستديرة كعيون ترصد الغادي والرائح . حانت من آدم التفاتة فإذا ببصره يقع على رجل مقنع انتصب كالرمح على صخرة فوق رأسه . صاح المقنع بخشونة :

ــ من أنت ؟

ولمح آدم فوهة بندقية الرجل مصوبة نحوه . هتف والبهجة تروي نفسه القلقة اليبوس لأول مرة مذ غادر مضارب العشيرة فتورق أملاً :

ــ أنا آدم الحسنين . جئتكم لاجئاً ينشد ملاذاً . ومستجيراً قد أهدر دمه .

أشـار له الـرجـل المقنـع بكـوفيـة سـوداء أن يتبعـه . لكنـه لم ينـح البندقية جانباً . وجعل الرجلان يرتقيـان التلال الصخـرية الـوعرة بمشقـة وعسر نحو الكهوف التي تشبه عيوناً سوداً واسعة مبحلقة .

وتلفت آدم حـوله وهـو يلتقط أنفاسـه بصعوبـة فرأى تحتـه صحراء مشعة ساحرة مترامية ، تسطع بين الحين والآخر فيكاد الضوء المنبعث من انعكاس بريقها المؤتلق أن يذهب بالأبصار .

ثم رأى في السهـل البعيـد قلعـة تشبـه تلك الحصـــون التي تقيمهـا الحاميات العثمانية . . لكن بصره لم يقطع شكـه باليقـين . فداخـل عقله ريب وقال في نفسه :

ــ لعلها قافلة من الخيام . . أو قطيع ماشية .

أشار له الرجل المقنع بكوفية سوداء أن يتقدم . اقتربـا من الكهوف والمغاور . فأطلت عشرات الوجوه وفوهات بنادق وسيوف ساطعة .

تقدم منه رجل أسود طـوال ، مهيب رهيب ، قد ارتفعت قـامته في السماء . تفحص الرجل آدم بعينين حالكتين ناريتين يكاد لهيب نظراتها أن يلفح الـوجوه بنفحـة كاويـة . فجـأة أشـرق هـذا الـوجـه العبـوس وانبسـطت أساريره المنقبضة وقال بلهجة تنم عن ترحيب صادق :

ــ أهلاً بآدم القحطاني . .

ذهل آدم لمعرفة الرجل به وباسمه . ورفع عينين متسـائلتين كلهمـا دهشة .

قال الرجل :

ــ إني نبئت بمـا كنت وما ستكـون قبل أن تـولـد . منـذ ألف وألف وأنا أقعى هنا بانتظارك .

ثم رمقه بنظرة غريبة ائتلف فيها الاعجاب بحسـرة متفجعة . هـذه

النظرة بالتحديد لم ينسها آدم . . كأنما فطن بـاله النجيب إلى مغـزاها رغم غموضها الملغز .

تنادى الصعاليـك وذؤبان التـلال من الأعراب فـرحبوا بـآدم وأنسوا به منذ لحظة اللقاء الأولى واطمأن هو إليهم بعد ذهول واضطراب .

وفغـر الرجـال أفواههم دهشـة حين سـألوه كيف استـطاع أن يعبـر جبـال المرايا ، فـأجـابهم مـداعبـاً أنـه دعـا السـماء أن تنقله إلى صحـراء السـراب المجهولـة التي كان يسمـع عنها منـذ طفولتـه عشرات الأسـاطـير والخرافات والقصص . . فـإذا بطير رخ هـائل يهبط إليـه ويحمله ويطير بـه متخطياً جبال المرايا لتحط به عند هذه التلال .

فتضـاحك الجميـع بين مصـدق ومكذب . وانهالـوا عليـه بـالأسئلة عن وضع العالم الخارجي ، وحال بلاد ما وراء جبال المرايا .

لكن عـروة الوردي الـرجل الأسـود الطوال الـزعيم نحاهم جـانبـاً بـإشـارة من يـده . ثم قبض عـلى ذراع آدم وقـاده إلى كهف مقفـر وقـال بصوته المهيب :

ـــ هـذا كهفك يـا آدم . أنتظرك عشـرات السنين ، وظـل يرد عنـه كل دخيل . وقد أضناه جهد الارتقاب .

استولى الذهول على آدم مرة أخرى . فقال وهو يـرمق عروة بنـظرة مستطلعة :

ـــ حـديثـك عجيب ، وأمـرك غـريب . كـأن كـلامـك كلما بـان غَمُضَ . وبيانك كلما أوضح أشكل .

ربت عروة الوردي على كتف آدم وقال :

ـــ لهـذه الصحراء حكـاية لـو كتبت بالإبـر على آمـاق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر :

اعلم يا آدم أن هذه القفار ـ ارض العجائب ـ تدعى صحراء السراب . ونحن لا نعرف منها إلا ذلك الجزء الذي يترامى من جبال المرايا ويركض نحو حدود بحيرات السراب . وجبال المرايا المقعرة هذه تعكس صور بلاد الشرق وأرض العجائب ، وما يجري فيها من أحداث ومغامرات ووقائع . وما يجري هنا ما هو إلا انعكاس سرابي لما يجري في العالم الخارجي . وتمتد هذه المنطقة التي نعرفها معرفتنا ببواطن أيدينا إلى حدود بحيرات السراب . أما ما وراء بحيرات السراب تلك من قفار الصحراء السرابية ، فهي فيافي مجهولة تماماً لنا .

سكت عروة على نحو مفاجىء . ثم فز قائماً كالرمح وسعى نحو باب الكهف ، فلحق به آدم . ردد عروة طرفه في السماء ، ثم صعد بصره وصوبه نحو القلعة البعيدة وقال بلهجة تنم عن حنق شديد :

ـ وكما ترى . . تحول تلك الحامية العثمانية البعيدة بيننا وبين بحيرات السراب . لكن بيننا وبين والي القلعة معاهدة شفوية . . فهو لا يعتدي علينا ، ولا يمنعنا من غزو تلك القرى الواقعة في محيط تلالنا ، ولا يحول دوننا وغزو بعض القوافل . . ولا يقبض على المطلوبين منا ، ولا يرسل رؤوسهم إلى الآستانة ، ونحن بالمقابل لا نتحرش بحاميته أو نهاجم قلعته المنيعة ، أو نغزو المنطقة الواقعة تحت سلطته .

وهكذا راح عروة يقص على آدم ما يعرفه من قصة الصحراء . وآدم يصغي والدهشة تخفق في باله وفي خياله . وأدرك أنه يعيش الآن في مبهمات . . تلفه الأسرار ، وتكتنفه الألغاز .

علم آدم أن هذه المنطقة بمتاهاتها ومجاهلها وجبالها المنيعة

باتت منذ زمن بعيد ملاذاً للثوار والخارجين عن قوانين الدولة العثمانية ، وملجأ للمعذبين في الأرض ، وقطاع الطرق ، والمناضلين .

وجعل هؤلاء الصعاليك يعيشون من رعاية الماشية ، والغزو . . فقد كانت أرزاقهم في رماحهم . أما بحيرات السراب فقد علم آدم أن القوم يعتقدون أنها بحيرات مباركة ملعونة في آن . تعيش فيها أرواح أجدادهم الأوائل جنباً إلى جنب مع الجن . فيؤلف الفريقان وجوداً خارقاً .

والعجيب من أمر هذه الصحراء السرابية أنها لا تترك في ذاكرة من يغادرها إلى العالم الخارجي أثرا. إذ ما ان يجتاز الراحل عنها جبال المرايا . . حتى تبدو له الصحراء أشبه بحلم غريب لا يستطيع له تذكراً . هكذا يقول قومها .

وعلم آدم كذلك أن صحراء السراب ظلت منطقة مجهولة لا تشير إليها الخرائط ، ولا تتضمنها الأطالس لهذا السبب بالذات . فكيف يرسمها رحالة ألم بها ثم غادرها . . وقد تبخرت من ذاكرته . ولا يعرف الناس عن هذه المنطقة سوى أن جبال المرايا التي تفصل بينها وبين العالم المعروف تؤوي المطاردين والعصاة والصعاليك . لكن هؤلاء أنفسهم كانوا يخشون التوغل في مجاهل هذه الصحراء ومتاهاتها . وكان معظمهم يتناقل قصة عجيبة حدثت بعد مجزرة قامت بها قبائل بدائية موغلة في التوحش ضد آلهة الفراعنة وما بين النهرين الذين لاذوا بهذه الصحراء حين شعروا بأنهم على وشك الانقراض . وتحكي هذه القصة العجيبة عن حرب شرسة ضارية قامت بين أسماك بحار السراب المفترسة ، والطيور

الجارحة الضارية للسيطرة على صحراء السراب هذه . . والتي كان الجمل سيدها !! فتحالف الطير والأسماك . . ضد الوحش والحيوان .

قال عروة :

ـ اعلم يا آدم أن هذه الصحراء المنسية تستودع الأساطير والحكايا الخرافية . والأحلام . قد لا تصدق كل هذه الحكايا . . لكن صحراء السراب كما ترى يباب لا تنبت فيه سوى قصص الأنبياء وكرامات الأولياء . وصحراء السراب تعكس مراياها ما حدث وما يحدث وما سيحدث في بلاد الشرق . حيث تجري الإشاعات والمعجزات والنبوءات والفتن والشعوذة منذ آدم وحواء . . أكثر مما تجري فيها البحار والأنهار . أنظر إلى ذاك السراب ، تخاله حاضراً وهو غائب . تحسبه مياهاً وهو وهم يخدع الحواس التي تقوم بدورها بسحر العقل وإغوائه بإصدار أحكام كاذبة . لكن قوم الصحراء يؤمنون . . بتلك البحيرات التي تخدع الحواس وتربك العقل فتتبخر الحقائق وتمسي قابلة للطعن . ولا يجرؤ أحد على المساس بحقائق السراب وواقعيته .

صمت عروة وجال ببصره في الصحارى المترامية الفسيحة . قال :

ـ بلاد مترامية الأطراف العلم اليقيني فيها لا أمان له . فالخيال سيد الصحارى ، وإذا ما استعصت علينا مسألة حولنا رؤوسنا صوب بحيرات السراب التي يعتقد قومنا أنها السماء الأرضية . أو صورة السماء في الأرض . فحذار يا آدم . . لقد نبئت بأن رجلاً مرصوداً ذا شامة خضراء على خده ، سيظهر بغتة ليلبي نداء قدر غامض ، ويقوم بدور بطولي ولكن . . مفجع . وأنا أرى أنك أنت هذا الرجل يا آدم . . فتأهب .

خفقت الدهشة في عيني آدم . فهو يسمع ما يسمع ، ويرى ما يرى ، فيكاد يكذب أذنيه وعينيه . قال ذاهلاً :

ـ والله ما رأيت أعجب من هذا الكلام لا في الصحو ولا في المنام .

أطلق عـروة ضحكـة عـريضـة زلـزلت معـاقـل ذؤبـان العـرب وصعـاليكها وكـادت تفسد عليهـا خلوتها إذ التفت قـوم عـروة من بعيـد وظنوا أنه يستدعيهم بهذه الضحكة ليجاروه في الضحك .

التفت عروة إلى آدم ورمقه بذات النظرة الملغزة السابقـة فقرأ فيهـا آدم تفجعاً وإعجاباً . رد آدم بنظرة مستطلعة . قال عروة :

ـ إنني صاحب فراسة تتخطى العادي حتى تكاد تمـاس حدود مقـام الـوقوف عـلى أسرار الكمـال . لكنها لا تبلغ هـذه الحـدود أبـداً وتنقص دونها . لكني نبئت بـأمـرك . وهـا أنـا أقـرأ في وجهـك مصيـراً بطوليـاً مفجعاً . كـأنما انتقـاك القدر لتلعب هـذا الـدور الملحمي . وكـأنما ينتـظرك قدر أبـطال لا ينجب التـاريـخ مثلهم كل يوم . ولكن قبل أن يصطفي القـدر اليوم والسـاعة والـدقيقة التي سيـدعوك فيهـا لتلبية نـدائـه . . ستحيـا معنـا حيـاة الغـزو والنهب والخـطر . . كلنا هنـا نحمـل أسـماء حـركيـة مستعـارة ، وسيكون اسمك ذياب .

ذهـل آدم وقـال : لا أحب هـذا الاسم . قـال عـروة : لقـد نبئت به .

التفت عـروة واستدنى أحـد رجالـه بإشـارة من يـده وأمـره أن يعـد الكهف الخاص بآدم .

في عتمـة الكهف المـوحش اقتعـد آدم الأرض وأسنـد رأسـه إلى الجـدار الخشن وراح يفكـر بعـروة وحـديثـه العجيب . لقـد شعـر بقلق ورهبة في حضرة هذا الرجل الملفع بالأسرار .

رقد آدم على ظهره واجماً متوجساً . . ثم انثنت خـواطره إلى أعمـاقه وفكـر في وحدتـه . كان يعـرف جيداً أنـه لا قبل لـه بالحيـاة دون عصبيـة تعزه وتمنعه بقوتها وبـأسها من خـطوب الحياة والآخـرين . هو الـذي كان

ينتمي إلى عشيرة من أمنع عشائر العرب ، بات ينتمي الآن إلى قوم لا تجمع بينهم سوى قسوة الحياة والوحشة . كل منهم مقطوع من شجرة عشيرته . . يتجمعون ورقة من تلك القبيلة وغصناً من هذه العشيرة لينبتوا شجرة عشيرة خاصة بهم . ولكن كيف . . والدم لا يجمع بينهم ؟

في تلك الليلة لم يغمض لآدم جفن ، وظل يتقلب طوال الليل الآهل بأصوات سحرية ، كأنه يرقد على شوك .

قضى الليل مؤرقاً مسهداً يفكر في هؤلاء الصعاليك . . بعضهم هرب من التجنيد العثماني ، وآخرون عصوا الدولة العثمانية وثاروا عليها وحين هزموا لاذوا بهذه الصحراء المجهولة . . صحراء الظلمات . والجميع مطلوب للدرك العثماني . . لا أمن ولا ضمانة ولا استقرار .

تفكر آدم ملياً في رابطة تجمع بين هؤلاء الصعاليك من ذؤبان الصحراء . رابطة تستند إلى عصبية .

توالت الأيام . . وسرعان ما تكيف آدم مع محيطه الجديد ، ولاءم بين نفسه وبين رفاقه الجدد . وتمكنت عرى الصداقة والأخوة بينه وبين عروة .

كان الصعاليك يحترفون الغزو والإغارة على القرى والواحات والقبائل . فشاركهم آدم غزواتهم . وما هي إلا غارة أو ثلاث حتى باتت له مكانة مرموقة بين رفاقه من الصعاليك ، لما أظهر من قوة خارقة وشجاعة أسطورية .

لكن آدم كان بعيد الأمل ، عظيم الأطماع . يدرك أن هذه الصحراء أشبه بمسرح تاريخي يبحث عن بطل ، ويعتقد أنه صاحب هذا الدور بلا منازع . أما عروة فهو صاحب حلم ورؤيا ، وشتان بين صاحب الحلم ، وبين منفذ الحلم ومنجزه . صاحب الحلم أقرب إلى فيلسوف لا يملك قدرة على التعامل مع الواقع . لعل مثاليته تفسد عليه

واقعيته . أما منجز الحلم فهو رجل التاريخ وصانعه .

وكانت عين آدم تمتد دائماً نحو الأفق البعيد فتصطدم بتلك القلعة العثمانية اللعينة ، فيشعر بأن الأرض ضاقت عليه بما رحبت . فينهض ليمشي مشية فيها اضطراب وفيها توتر . ويمشي موزع الفكر زائغ البصر يقلب الرأي دون أن يطلع أحداً على ما يقلقه .

ذات يوم ربيعي اقترح آدم على عروة أن يهبطا إلى بحيرات السراب فيلمان بها ثم يعودان . أثار هذا الاقتراح الروع في نفس عروة ، وهم بأن يتأباه ويدفعه دفعاً . لكن قوة خفية طاغية مبهمة استولت على نفس عروة ، فدفعته إلى الإذعان لها والانصياع لأمرها . وحين فتح فمه ليقول لا ، وجد نفسه يقول نعم . حدق إلى عيني ذياب الآدم فهاله ما يرى من نظرة نارية متأججة تنم عن ضحكة جهنمية شيطانية ونوايا مريبة .

وأدرك عروة أن هاتين العينين الخارقتين هما مصدر القوة التي تسيطر عليه ، ولا يستطيع لها دفعاً .

هبط الفارسان إلى السهل المنبسط ، وطاردا نحو بحيرات السراب كأنهما ومض خاطف ، وسر هارب . فلم يلحظ درك القلعة ولا سكان القرى المجاورة سوى غبار يتطاير وترتفع قامته في الفضاء وكأنه زوبعة أثارتها الجن . لفت عباءة الغبار الفارسين لكن بحيرات السراب لم تتركهما يضلان دربهما ، فنادتهما أصوات أشبه بهدير أمواج عاتية .

بغتة سطع أمامهما بحر شاسع يتوهج تحت سيدة الصحراء ذات اللظى . انقشع الغبار وانتشر في الفضاء البعيد كأنما مسه طائف من الجنون والرعب فولى هارباً .

لكز ذياب جواده وطارد نحو البحر ، فإذا بالبحر يهرول كوعل مطارد وذياب الآدم يلاحقه ، وصيحات عروة تركض خلفه وتنذره .

لكن ذياب الآدم فني عن نفسه وعما حوله ، وما عاد يشعر إلا برغبة طاغية في اقتناص هذا البحر ـ الغزال العجيب . يلح . . والبحر يهرول ، أمواجه عجلات لكن قوائم جواد آدم لا تجارى .

استسلم البحر لاهثاً منهكاً وصدر سطحه الأزرق يعلو ويهبط موجة إثر أخرى . وتوقف عن التدحرج على عجلات أمواجه المنهكة .

ترجل ذياب الآدم عن جواده ، ومد يده إلى الماء فتلمسه . كان الظمأ قد نال منه حتى يبست شفتاه وتشققتا وذبل لسانه .

انحنى على البحر وراح يعب بكفيه ويشرب ، لكن ظمأه لا يرتوي . لم يكن الماء مالحاً . ماء عذب رقراق في كفيه . يلمسه ، يحتسيه ، لكن شيطان الظمأ لا يرتوي ولا يحس بالماء . والماء ينسكب على جذوة العطش ، لكنها لا تخمد ، إذ لا ماء ولا بحر ولا بحيرة ولا أمواج . وإنما وهم عجيب وأسطوري ، يداعب الحواس بخبث ويقنعها بحضوره وهو غائب . والعقل لا يدري أيكذب الحواس أم يصدقها ، والحواس تصدق السراب ، والسراب وهم كبير كبير .

صاح ذياب الآدم :

ـ لكني لمسته . . أحسست مياهه .

وأدرك آدم أن هذا السراب ليس كالسراب . نهض بتثاقل . امتلأ فمه بالظمأ وباله بالصدمة . التفت نحو عروة البعيد ، فرآه يبتسم ابتسامة مرة حزينة ساخرة في آن ، سرعان ما تحولت إلى ضحكة تملأ فمه .

امتطى ذياب جواده وطار صوبه ، وإذا ببصره يباغت بصوت أشبه بانفجار الصمت ثم يرى فم عروة الذي كان ممتلئاً بالضحك ، قد امتلأ بالدماء . مد بصره وصوبه ثم صعده ، فإذا بمجموعة من الرجال الملثمين قد أطلقوا رصاص بنادقهم من بعيد على عروة . . وانهزموا .

انثنى عـروة وانحنى ـ هـو الـذي لم ينحن لأحـد في حيـاتـه ـ انحنى أمام الموت ثم سقط ينزف دماءه .

لـوهلة خاطفـة ظن ذيـاب أنـه إنمـا يـرى سـراب دمـاء ، وسـراب رجـال . لكن حـواسـه كـانت أحـدَّ من أن تخـدع . تـرجـل عن جـواده واقترب من عروة . هتف عروة بصوت خافت متحشرج :

ــ احملني إلى معاقلنا .

تـردد ذياب ، اشتعلت في عينيـه تلك الجذوة المقلقـة . رمق جـرح عـروة بنظرة نـارية ، ثم حـدق إلى هـذا الـوجـه الـذي تنبأ بـظهـور آدم الحسنين فارساً مباركاً مختاراً ، وهـاتين العينـين الحالمتـين ، وهاتـين اليدين اللتين منعتا آدم أو ذياب من إنجاز هذا الحلم . وحالتـا بينه وبـين الهجوم على القلعة العثمانية ، وتحويل العصبة إلى عصبية . غمغم ذياب :

ــ كـأنك تـرغب في إبقـاء رؤيـاك ونبـوءتـك في بـالـك ، صـافيـة بلا كدر ، بريئة بلا إنجاز . كأنك تخشى عليها الواقع .

همس عروة :

ــ أتتركني أنزف يا ذياب ؟ أتتركني أتألم وأتلوى ؟

قال ذياب باقتضاب :

ــ لا .

ثم انـه رفع بنـدقيته ، وصـوب فوهتهـا نحو رأس عـروة . إلا أن إصبعه ارتعش ، وجعل العرق يرفضُّ من جبينه ، ثم اجتاحتـه قشعريـرة اهتز لها جسده كله .

نحى فوهة بندقيته جانباً ، ثم ألقى نـظرة ذات مغزى عـلى عروة . انحنى فـانتزع قميصـه المضرج بـالدم . تـراجع ببطء ، ثم امتـطى صهوة جواده وانطلق كالومض تاركاً عروة ينزف في ذلك العراء المهيب .

لكن نبأ مقتل عـروة سبق ذياب إلى الصعـاليك . فـزاغت الأبصار وانخلعت القلوب ، وأقبـل ذيـاب الآدم حـامـلاً قميص عــروة المضـرج بدمه ، وقد اتخذ وجهـه هيئة الحـزن والفجيعة . فسمـع صياح الـرجال ، وعـويل النسـاء ، ورغاء البعـير ونهاق الحمـير ، وبكـاء الصغـير ، ويُعـار الشاء .

ونظر فإذا بشفاه القوم ذابلة ، وصـدورهم حاميـة ، وقلوبهم متلظية متفجعـة ، وخدودهم ملطومـة بالأكف ، ووجـوههم مخموشـة بالأظـافر ، وأحشائهم ملتهبة بالزفرات .

وجـد ذيـاب نفسـه معقـول اللسـان ، لا يملك أن ينبس . وراجت بين الناس حكاية مقتل عروة عـلى أيدي الـدرك العثماني ، تلك الحكـاية التي أذاعها ذياب ورواها ألف مرة ومرة واحدة .

فزعت عيون الصعاليك من ذؤبان الأعراب وشـذاذهم إلى آدم تحثه على اتخاذ قرار حاسم يشفي غليلهم ، ويطفىء وقدة لوعتهم .

لمعت في عيني آدم وقـدة دمويـة . وأمر الـرجـال أن يعلوا صهـوات جيادهم . وانحدروا كسيل عارم مجنون إلى السهل ، ثم اندفعوا كـطوفان كاسح نحو قلعة الحامية العثمانية . دخلوا في الهاجرة كالومض . . كـريح قارصة ، ومروا بالقرى كزلـزال خفق خفقة واحـدة ثم اختفى . . وطاروا بجيـادهم صـوب القلعــة الكبـرى . فـإذا الغبـار يعلو حتى يبلغ عنــان السماء ، وينعقد حتى يحجب الضياء ، ويتكاثف حتى يملأ الأرض حُلوكةً وظـلاماً . ثم ينقشع الغبـار ويفتضـح عن ذؤبـان الأعـراب الضـاريــة الكاسرة . .

لكن مـدافـع القلعـة الحصينـة كـانت لهم بـالمرصـاد . فحصـدت العشـرات منهم قبـل أن يبلغــوا الأسـوار . بــاغتت القنـابــل حمـاستهم الطاغية . فلوى بعضهم أعنة جيادهم وفـروا من هول انفجـارات مدويـة جحيمية لا عهد لهم بها .

لكن ذياب ونفراً من رجاله صالوا وجالوا ، وطافوا بجدران القلعة ، وأطلقوا نيران بنادقهم على الأبراج . واندفع آدم على نحومفاجىء اندفاع ثور هائج نحو باب القلعة الضخم يوشك أن ينطحه برأسه الهائل ، فإذا برأسه يضرب الهواء ، وإذا بالجدران وهم سرابي لا وجود له .

وإذا بالمفاجأة تفقده توازنه ، فيهوي عن صهوة جواده .

وحين تلفت حوله لم يبصر أحداً من رجاله ، وإنما مجموعة من الدرك العثمانيين يهرولون نحوه . فز على قدميه ووثب على جواده ، وطار كأنما سابق الضوء نحو معاقل الصعاليك ، ووراء فلول رفاقه .

عاد ذياب سالماً فذهل الصعاليك ، فكانوا كالخرس . كذبت النسوة عيونهن . وخلط الجميع فلاثوا الكلام بغير بيان . واعتقدوا أن ذياب رجل مبروك مختار ، قد خصه القدر بالولاية والإمامة والعلامة .

تلك الليلة أدرك ذياب الآدم أن على الصعاليك أن يتحولوا إلى عصبية منظمة .

اقتعد الأرض قرب النار . فأخذ الصعاليك يكتنفونه من يمين ومن شمال . نساء يتلون التعاويذ والأدعية ، ورجال يحدقون إليه في صمت وإجلال .

بادر ذياب إلى الحديث ، فأكد لهم ضرورة التحول إلى عصبية ، وشرح لهم أهمية التنظيم والشوكة ، فاشتجرت آراء الصعاليك . قال قائل منهم إن ذؤبان العرب غادروا قبائلهم مغاضبين لها ، متمردين على الروابط العصبوية . . فكيف يستبدلون عصبية بأخرى . . وتعاليم عروة لا تزال تضج في رؤوسهم ، تدعوهم إلى رفض العصبيات الضيقة ، ونبذ القيود ، والتمسك بالحرية .

أطرق ذياب طويلاً ، ثم رفع رأسه .

جادلهم وناضلهم فسحرهم ببيانه ، وهيمن على القلوب سلطانه فأقنعهم بأن يصبحوا قبيلة تربط بين أفرادها الرضاعة . ثم التفت إلى امرأة بدينه عملاقة راضِع . . فاسترضعها . وحذا حذوه بقية الرجال . منهم المتحمس ، ومنهم المتردد . وقيل انهم رضعوا جميعاً من ثديها وما زالوا كذلك إلى أن رضع الجميع ، ثم فاض الحليب من ثديها فأرضع الأرض .

وقيل :

ـ ما إن امتص ذياب ثدي المرأة حتى طرحت البركة فيه وفي حليبه .

وهكذا تحول الصعاليك من رجال متمردين لا يربطهم رابط ، ولا يقيدهم قيد ، إلى عصبية من الاخوة في الرضاعة . وهكذا شعر ذياب وهو يمد بصره نحو الآفاق البعيدة فيرتطم بالقلعة العثمانية بأنه بات زعيم الصعاليك بلا منازع .

لكنه ظل يتوق إلى عصبية تخصه هو شخصياً . إلى أبناء يعزونه ويقفون معه في السراء والضراء ويضمنون له الخلود . وقر قراره على الزواج .

وفي تلك السنة أيضاً ، واصل ذياب غاراته على القلعة العثمانية ، لكن هذه الغارات لم تتجاوز حدود المناوشات ، وكان ذياب يتطلع إلى القيام بدور عظيم لا تطمع فيه إلا النفوس الكبيرة .

أبناء ذياب الآدم

كانت ليلة لا تضاهى . كأنما احتفلت الطبيعة كلها بالميلاد الرباعي فطاش قلبها فرحاً وسخطاً . واحتست خمرة خرافية فعبث السكر بعقلها وتمردت على قوانينها الصارمة . فثارت الزوابع ورقصت رقصة وثنية وحشية . وقهقه الرعد وقصف وعربد منتشياً فاهتزت الجبال الشواهق كأنما تتراجع أمام غزو الصخب . وهبت أعاصير أقامت الدنيا ولم تقعدها إلا بعد حين . ووثب القمر يعتلي السماء يطارد على صهوة سحابة جامحة صهباء ، فينثني عنها تارة نحو اليمين ويميل عنها تارة أخرى نحو اليسار . ووفدت ريح تغني وتصفر وتزغرد . وتقافزت الحجارة كبهلوان .

كل العناصر أقبلت تحمل ومض النذير المشؤوم . . وتحمل برق البشير المتفائل . وتناهى إلى آذان الصعاليك الذاهلين الفرحين الخائفين أصوات مختلطة وإذا السراب قد أقبل في موكب مهيب يتقمص طقوس الجن وينشر المرايا . . مرايا فضية تعكس عوالم غافية في لحظة الخلق الأولى . . عوالم توشك أن تصحو . .

وأقبلت دماء قتلى الصحراء متخذة شكل نهر خمري يُرافقها الجدب والظمأ والقحط والواحات .

وأتت الفصول تحتفل بطقوس خرافية.فالشتاء يجلله الجفاف ، والصيف القائظ أتى مورقاً مخضراً تكلله نداوة ، والخريف يورق شعاعاً بهياً دافئاً ، والربيع مجدب العينين عاقر . والرياح تهب أينما تشاء ، تسمع صوتها ولكنك لا تعرف من أين تجيء وإلى أين تذهب .

وبزغت نجوم الليل في موكب من التمتمة تتلألأ عتمة شهية تبعث الرعب والأنس في آن . ووصل سفير النهار الغائب ناعساً يحمل جسده

الـذاوي ، تتأجج فيـه روح طـاغيـة متـوثبـة جمـوح . تنتـظر فجـر الثـأر والانتقام .

حتى الشمس ألمت بمضارب الصعاليك بلا عبـاءة . أتت عاريـة من الخجل والشعشعة فإذا بجسدها أسود زنجي .

وتقـاطر الضـد والضد . ونفي النفي . ونقيض النقيض . والـريب مع اليقين . والغيب الأسـطوري متزوجـاً الواقـع يجران بـأيديهـا أولادهما من الأحاجي والألغاز .

هـذا الكـل المضـطرب المنتشي الهمجي السـامي الجليـل راح يـدور حول الأطفال الأربعة الذكور . . والعناصر المتنـافرة المبهمـة تحمل قنـاديل الوضوح .

وبدت الألغاز وكـأنها قد خلعت قنـاع الحيرة وتقمصت قنـاع حقيقة ثابتة بسيطة . . وكان القناع سرابياً . . لكنه قناع البداهة .

وانـدفع النـوم ليشارك في الحفـل الخـرافي حـامـلاً في عينيـه اليقـظة هـدية لأبنـاء آدم . وتسلل الصحو وبـين يـديـه الأحـلام والكـوابيس . . قدمها ضحية لأبناء آدم . ثم انبثق الجن والسحرة والمشعوذون والشيـاطين فتمتمـوا فوق رؤوس أبنـاء آدم ومسحوا عـلى جباههم ثم اختفـوا . وبزغ أولياء وأصحاب كرامات وأسياد مباركـون فغمغموا ومسحـوا بأيـديهم على رؤوس أبناء الحسنين ثم اختطفهم الليل واختـطفوه . وهبط المـطر غزيـراً مهنئاً وطلع القحط يبارك الأطفال .

في تلك الليلة الليـلاء شاهـد الصعـاليـك العجب وسمعـوا لغـات الدهشة ، فبهرهم ما شـاهدوه وسحـرهم ما سمعـوه . لكن أحداً منهم لم يعـرف أن مخلوقاً غـريباً ضخـماً مخيفاً أقبـل كالشبـح واختلى بـآدم وقال لـه كلمة واحدة :

ــ أنا الديناصور .

وأدرك آدم حين تلفت حوله فلم ير رعباً في عيون المحتفلين ، انه الوحيد القادر على رؤية هذا الكائن الأسطوري المنقرض . وكأن آذانهم قد صُمَّت فلا يستطيعون سماع صوت هذا الكائن المخيف ، وكأنما عميت أبصارهم فلا يستطيعون له رؤية .

قال آدم وهو يغالب رعدة الخوف :

ـ ماذا تريد ؟

لكن الديناصور الهائل ظل في مكانه صامتاً لا ينطق بكلمة ولا يأتي بحركة وإنما يسلط نظرة عجيبة على عيني آدم . نظرة فيها فضول ودهش وفيها إنكار وإكبار في آن . واقشعر بدن آدم حين أحس لوهلة خاطفة أن هذا الكائن الخرافي ينظر إليه كأنما يتأمل نفسه وأنه هو آدم يحدق إليه كما لو أنه يحدق في مرآة .

لم يخفض آدم بصره بل واصل تسليطه على عيني الديناصور الخفي الذي لا يراه أحد سواه . وحار آدم : كيف يشعر المرء إذا ما نظر إلى مرآة فرأى صورة غيره . . بل صورة وحش انقرض .

ظلا يتناظران لحظات ولحظات في صمت متصل لا يفوهان بحرف واحد . يتبادلان نظرات بات لها مغزى ، وحين اكتسبت هذه النظرات الغادية الرائحة بين عيونهما فصاحة البيان وتخطته رجع الديناصور أدراجه خطوات ثم اختفى تماماً .

وظل آدم في مكانه مأخوذاً ذاهلاً لا يميل ولا يزول . تتزاحم الهواجس والخواطر في نفسه وعقله .

لكن هذا اللقاء الخرافي بين الكائنين لم يكن أغرب ما حدث في ليلة العجائب تلك . إذ ما ان كاد آدم ينفض عن رأسه الذهول وينتزع بصره المحلق في ليل شرود ويلتفت إلى يمينه حتى رأى امرأة ولا كل

النساء . استدنته بإشارة من إصبعها وكـانت تقف في خلوة سريـة نائيـة . تقدم منها بخطوات متضعضعة كأنما يقتلع خطواته من الأرض اقتلاعاً .

تأمل حلاوتها المـدمرة ومـلاحتها المفتـرسة . بـدت له عـروساً مجلوة لا تقع عليها نظرة رجل إلا وأخـذت بنفسه وبسـطت عليه سلطان فتنتهـا اللحميـة . أخـذت عينـه بسحـرهـا المـروع . تفحص بنـظرات سكـرى وجههـا فرأى أنها أضـوأ نساء الأرض جميعـاً . . لكنه تنشق من وضـاءتهـا رائحة المأساة .

كاد يفقد صـوابه ويضـل عقله لولا أنها ابتسمت لـه ابتسامـة فتاكـة وقالت بصوت فاتن فاجع :

ــ أنا الفاجعة .

جئت أجللك ببركتي الجهنمية .

رأى آدم الجحيم في عينيهـا . لكنـه جحيم فـاتن سـاحـر الجمـال يدعو الناظر إليه ويغويه إغواء تشق عليه مقاومته .

هذه المرة لم يسلط آدم نظرة ثابتة نحوها كما فعـل مع الـديناصـور . كان منهكاً قـد تولاه خـوف من نفسه . راح يـرمقها ببصـره ثم يرده عنهـا مسرعاً . . كأنما يستريب فيما يراه .

أطلقت ضحكـة لا تخلو من شقـاء ووجـع وعبث ثم فهمت أن آدم قد فهم فحلقت في الفضاء المعتم .

دفن آدم سر اللقـائين في بئـر أعماقـه السحيقة . وتـرك الصعاليـك وعنـاصر الطبيعـة يحتسون الخمـرة بشراهـة ويقرعـون كؤوسهم التي بدت كالأرحام حبلى دائماً بخمرة الري . . ومساكن للذة وحشية .

بات آدم ليلة عسراء ينبو به مضجعـه . والهواجس تـزرع الأرق في عينيه . ما سر هاتين الزيارتين الغامضتين ؟ هل كان ما رأيت ومـا سمعت

حقيقة واقعية أم هلوسة سرابية لا معنى لها ؟ وحاول أن يصرف المشهدين عن عينيه فتأبيا . وظن بعقله الظنون . وكاد أن ينكر ما رأى ـ ولعله رغب في ذلك دون أن يدري ـ ويظن بنفسه العلة .

حين أشرق الصباح نهض آدم متثاقلاً فاجتمع الصعاليك حوله وسألوه عن الأسماء التي اختارها لأولاده . فقال شارد الذهن أنه لم يبت بهذا الأمر بعد . اقتعد أصحابه وأخوته في الرضاعة والدم المختلط الأرض وراحوا يتشاورون في الأسماء المقترحة . اختلفوا وتنازعوا ، صمتوا وتفكروا وآدم ينكث التراب بعود يابس . التفتوا إليه فإذا هو مطرق ذاهل كأنما لبسه الجان . وفجأة نهض منتصباً وقال بنبرة من هبط عليه الهام لا يستطاع تبين مصدره : مبارك ومختار ومصطفى ومهدي .

حكاية عام الهول الأول

في ذلك العام جرت حوادث عجيبة ووقائع غريبة : ومنها أن آدم القحطاني قرر ذات يوم أن يبسط سلطانه على الصحراء السرابية الرهيبة المجهولة كلها .

ووراء هذا القرار الخطير الذي عزم آدم القحطاني على إنفاذه حكاية غريبة .

كانت صحراء السراب منطقة مجهولة لا يعرف عنها سوى أنها تؤوي في جبال المرايا التي تفصل بينها وبين العالم المعروف المطاردين والعصاة والصعاليك . . ولكن هؤلاء أنفسهم كانوا يخشون التوغل في مجاهل هذه الصحراء ومتاهاتها . إذ كان معظمهم يتناقل قصة عجيبة حدثت بعد المجزرة التي قامت بها قبائل بدائية موغلة في التوحش ضد آلهة الفراعنة وما بين النهرين الذين لاذوا بهذه الصحراء حين شعروا بأنهم على وشك الانقراض . وتحكي هذه القصة العجيبة عن حرب

شرسة ضارية قامت بين أسماك البحار المفترسة والطيور الجارحة الكاسرة للسيطرة على صحراء السراب هذه . . والتي كان الجمل سيدها .

لكن قبل أن نتحدث عن هذه الحرب الفتاكة سوف أصور المشهد الذي دفع آدم إلى بسط سيطرته على الصحراء السرابية .

بلغني أن آدم كان شديد الطموح . ومن هنا ظل هاجس اكتشاف الصحراء السرابية كلها وما يحيط بها يلح عليه . وما كان يترك مجهولاً إلا وجهد في سبيل كشفه ، ولا لغزاً إلا وحاول الوقوف على حقيقة سره . وكان آدم القحطاني يخفي في أعماقه شعوراً غامضاً مبهماً بأن القدر قد اصطفاه واعده للقيام بدور سوف يسجله التاريخ في صفحاته الخالدة . قلت ظل هاجس اكتشاف الصحراء السرابية يلح عليه لكن تردد عشيرته الجديدة التي لا يربط الدم بين أفرادها . . بل حليب الرضاعة ظل يحول بينه وبين إنفاذ عزمه .

ومضى آدم في حياته المألوفة يغير هو وقومه على القوافل كلما ضاقت بهم سبل العيش ، فيصيبون معاشاً وينهبون ويتخطفون . ثم يعودون لرعاية الإبل والماشية .

لكن حدثاً غريباً لم يكن في الحسبان وقع ذات ليلة من ليالي صيف حم فيه القحط ، وشمل الجدب والغلاء وضاقت سبل العيش . . وضاق آدم نفسه بحياته الرتيبة . . كان آدم قد أوى إلى مضجعه في أحد الكهوف وأسلم نفسه لسلطان النوم مسنداً رأسه على ذراع حالمة . فإذا بطيف غريب يقف بباب الكهف . جمد آدم في مضجعه فلم يتحرك ولم ينتفض . قال الطيف بصوت فيه انس وفيه وحشة :

ــ القدر يناديك فلب النداء . امض إلى بحار السراب ، وخض فيها . اضطرب آدم في مضجعه ، وتصبب عرق غزير من

أقطار جسده كلها .

همس آدم في صوت أبح مختنق :

ـ أي نداء ؟

دنا الطيف منه خفيف الخطو كأنما يمشي في الهواء . قال :

ـ هيأك القدر منذ طفولتك لتبسط سلطتك على هذه الصحراء . تحولها إلى فردوس بعد أن كانت يباباً لا تنبت فيه سوى الأساطير المرعبة . وتنشر فيها ظلال الرحمة ، وتنتزع منها الوحش في أعماق رجالها والضواري في نفوس نسائها .

واختفى الطيف فجأة كما انبثق فجأة . . واختفى صوته . فاستفاق آدم واجماً مأخوذاً . وتلفت حوله وقد مشت رعدة حادة في جسده . لكز حالة في خاصرتها وهو يغمغم بصوت بدا له غريباً عنه :

ـ حالة . . حالة . . لقد اختارني القدر لألعب دور بطل حياة فاجعة . تقلبت حالة في فراشها ثم استقرت على ظهرها وقالت بصوت يحطه النوم وترفعه يقظة واهنة :

ـ إنما هو كابوس من هذه الكوابيس التي تلم بك بين الحين والآخر . نم . . نم . . لكن آدم القحطاني وثب منتصباً وغادر الكهف ثم مشى خطوات نحو اليمين ، ثم توقف . عاد أدراجه إلى باب كهفه . ومد بصره إلى ليل شرود . ثم حسم أمره وسعى إلى كهف ابنه حجاج . كان حجاج مستلقياً على فراشه يحدق بعينين حالمتين قاسيتين بسقف الكهف . أقبل آدم وفي نفسه أن يقص على حجاج رؤياه التي روعته وأضرمت فيه نار حماسة غامضة . . كأنما كانت تنمو وتتفشى في أعماقه السحيقة حتى انفجرت انفجاراً بركانياً طاغياً حين فتحت كلمات الطيف فوهات الانفجار وهدمت السدود التي كانت تحول دون انبثاق المارد الجبار في هذا الجسد البشري العادي .

أقبل آدم وفي نفسه أن يقص على حجاج رؤياه التي روعته وبعثت في أعماقه حماسة ضارية لا عهد له بها . فلما رأى حجاج يراقب ثعباناً مديداً يتلوى في ركن سقف الكهف بعينين باردتين ونظرات جليدية ، أمسك لسانه في فمه ، وخرج صامتاً لا يقول شيئاً .

انفتل بخطوات متسارعة مضطربة نحو كهف سفيان فإذا بسفيان يتهالك على الخمرة والخمرة تتلعب بنظراته وهو يكش الذباب بيده بين الحين والآخر . دنا آدم منه بخطى ثابتة ثم توقف . قال الشاب مدارياً ارتباكه ببسمة عصبية :

ــ اقتل الوقت .

ثم خفض عينيه في حياء واضطراب .

لم يطق آدم صبراً على كتمان سره . فقص على ولده رؤياه غير محتفل بتهالك هذا على الخمرة .

غالب سفيان ضحكة ماجنة كادت تندفع من بين شفتيه فإذا بها تشع ساطعة صامتة من عينيه .

هاج ساكن آدم وصرخ بصوت ارتجت له جدران الكهف ولكن دون أن يخبو التوقد في عينيه :

ــ إنهض يا راعي الإبل وطف بكهوف أبناء العشيرة . أيقظ النيام وناد الذين نبا النوم عنهم ولنجتمع في الكهف الكبير .

تناهض سفيان متثاقلاً وسعى يلبي أمر والده بخطوات مضطربة عبثت بها الخمرة فانتزعت منها ثقتها بالاتجاه .

تنادى القوم وتوافدوا وفي عيونهم نظرات ناعسة مستطلعة وفي قلوبهم توجس مبهم . تثاءب البعض وفرك آخرون أعينهم .

وقف آدم وسطهم ناهضاً في الفضاء عريضاً في الأفق . وأطلت النساء برؤوسهن من الكهوف كالأفاعي والسلاحف ولعقت نظراتهم المشهد بفضول متوهج . حدثهم آدم بعد أن همدت ضوضاء الهمس عن رؤياه .

وذكر غفاري وقد التفت إليه يخصه بالكلام بالقلق الذي كان يستبد به ، وبالتذمر من حياة الدعة هذه التي حولت الصعاليك إلى رعاة إبل يخرجون بين الحين والآخر ليغزوا ويصيبوا معاشاً . ثم أشار إلى الحملات التي يجردها الوالي العثماني ضدهم بين الحين والآخر .

وها هو القدر . . قال آدم . يختاره ليضطلع برسالة بطولية تليق بالقادة والمباركين ، وأكد أن مكانه ومكان قومه الذي يطلبونه ليس وراء الإبل أو بين قطعان الغنم ، ولكن في الطليعة المتقدمة بين القادة والابطال .

انقسم القوم ، وتنازعوا وتجادلوا . وقف أحد الصعاليك واتهم آدم بأنه قد خولط في عقله وضاع صوابه وقال آخر بصوت بليد وهو يطرد الذباب عن عينيه :

ــ والله ما أظن إلا أن أحداً سلط عليك شيطانه ، أو أعمل فيك سحره .

وقف غفاري إلى جانب والده وكان عملاق الجسد رقيق النفس وقال بصوت هادىء :

ــ العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر . وأنا والله بت أخجل من الوقوف وسط قطعان الغنم حاملاً في يدي عصا طويلة كأنني طائر مائي طويل المنقار ، قد وقف في مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة .

وأبي خليق بإخراجنا من هذه الحياة البليدة التي يحيط بها خوف يدفع إلى الغزو والبطش الطائش وكأننا فعلاً أقرب إلى الذئاب منا إلى الإنسان الكامل .

هز القوم رؤوسهم . البعض معترضاً معرضاً وآخرون تأييداً واستحساناً .

ووقف صعلوك ذو عين حولاء وقال :

ـ ما معنى الإنسان الكامل . . تحدث بالعربية يا رجل . ما بالك تحقر ذؤبان الصحراء . أنا نشأت بينها .

تدخل حجاج وقال بصوته المهيب الذي يدخل الهلع والجزع من أذن المرء إلى قلبه :

ـ ما دام القدر قد اختار أبي . . وأمره فصدع بالأمر ، وادرع بما يدرع به صاحب كل دعوة . . فعلينا أن نلتف جميعاً حول قراره . خطأ كان أم صواباً . وهو رجل خليق بتلبية ما سأله القدر منه ، فهو يمتلك عزماً يقلقل الأجبال ، وحلماً يهزم الجهال . وهو شيخ عصبة النهاودة الذين يربط بينهم الحليب . . لا الدماء . وهنا هز سفيان رأسه وقال بصوت عبثت فيه الخمرة :

ـ ولكن ما هي هذه الدعوة . . أنا لا أفهم شيئاً . ربما كان لها علاقة بمشاركة التجار في تجارتهم مقابل الامتناع عن غزو قوافلهم . ماذا تقولون ؟

وتأمل آدم أولاده باعتزاز . ها هم يقاسمونه حمل العبء الثقيل ولا يتركونه يحمله وحيداً . أولاده سنده . أما صاحب العين الحولاء . . فعلى الرغم من أنه ينتمي إلى العشيرة . . لكن الحليب غير الدماء . . وهو من عصب عروة ولعله يحمل في نفسه ضغينة .

وتدخل حكيم وكان ذا كبر شديد فقال بامتعاض مستنكراً قول أخيه :

ـ لا . . لا تجارة ولا من يحزنون . . النداء واضح لا يحتاج إلى تأويل أو تفسير . القدر اصطفى والدنا ليمنع كيد العثمانيين وعسكرهم . وليرد ظلمهم عن قومنا . القدر اختاره بطلاً عملاقاً يهدي العقول الضالة ويقوم النفوس المعوجة . . ويحرر البلاد والعباد من العثمانيين .

هز آدم رأسه يتكلف الموافقة . . لكنها كانت موافقة على مضض . إذ كان آدم يرى أن الرسالة أقرب إلى الخلود والسمو من هذا التفسير المادي الحرفي للنداء .

في تلك اللحظة علا الصخب والهرج والمرج والنزاع حول التفسير والاختلاف في الرأي . عند ذاك وقف حجاج وصوب بندقيته نحو القوم وقال بصوته المروع :

ـ إذا صمت الآذان عن سماع قولنا ، وغلقت القلوب دون دعواتنا ، وعميت الأبصار فأنكرت الرؤيا . . فإن رصاصة هذه البندقية سوف تعيد الضال فيكم إلى درب الحق .

داري آدم امتعاضه من أسلوب حجاج بابتسامة مشرقة وقول منصف :

ـ لن أدفعكم إلى طريق البطولة والآلام دفعاً . فمن أراد أن يلحق بي فليبق معنا هنا إلى حين . . ومن رغب عنا فليرحل عن منازلنا وليضرب بعيداً في اليباب فينقلب إلى ضحية يسيرة لبطش الطبيعة وهمجية المجهول .

اشتجرت الآراء بين « النواهدة » بين قائل يقول :

ـ قد دنت الساعة فلنلب النداء . وإن آدم ينادي بما ينادي به ليعظم شأنهم ، ويعلو في الأرض سلطانهم . ومن قائل يقول :

ـ ما هذا الذي رآه آدم في منامه سوى كابوس رغب هو منذ زمن طويل أن يأتيه فأتاه . فإذا ما نزلنا إلى تلك الصحراء السرابية التي لم يجتزها أحد منذ ألف وألف أهلكتنا الشمس ، وفتك بنا الظمأ ، وصهر الحر أبداننا وعقولنا فإذا بنا جثث يبوس مزروعة في هذا اليباب الجهنمي .

وتصاعد اللغط حتى بات بعضهم لا يسمع بعضاً .

ولكن ما إن دنت ساعة الرحيل حتى هب الجميع . . لا يتخلف أحد . وانحدر الرجال إلى الصحراء الجهنمية في موكب مهيب هادر يرحل عن جبال المرايا المنيعة ويتقدم نحو الصحراء المجهولة المرعبة .

بلغت القافلة رمال الصحراء عندما مات المساء . لم يكن أحد من الرجال أو النساء يعرف ما الذي يدور بخلد آدم . والقافلة تتقدم تحت جنح ليل يرد عنهم أذى الشمس ويدلهم بنجومه المتلألئة على الاتجاهات .

تقدمت القافلة في صمت مهيب . وأوغلت في أحشاء الصحراء والقمر بدر . ولكن لا عين تستأنس بمشهد ولا تنفر من آخر .

ويقسم بعض الذين شاركوا في ذلك الموكب المهيب أن عيني آدم اتقدتا ما إن حل الليل ولم يخب التوقد الناري الساطع فيهما حتى لاح الفجر . وكان كل من هم بالضياع يتلفت فيهديه التوقد في عيني آدم إلى الطريق الصحيح .

وثار الفضول في نفس سفيان وهم غير مرة أن يسأل والده عن هدفهم الأول ولكنه كان يرد عنه رداً . وكثيراً ما سأل نفسه تلك الليلة : ما الذي يصرفني عنه حين أقبل إليه حاملاً سؤالي .

لكن نار الشك التي استبدت بسفيان ثارت وفارت فأجمع أمره أن يطفىء هذه الجذوة قبل أن ينتشر لهبها فلا يبقي ولا يذر .

طارد صوب والده الذي كان يتقدم القافلة . فتنحنح حين حاذاه وسأله .

أربد وجه الأب غيظاً وقال كاتماً غيظه :

ــ أيتولاك شيطان الشك ؟

غالب سفيان ثورة قلقه وقال معانداً :

ــ إنما أرغب في معرفة مبتغاك .

قال الأب دون أن يلتفت :

ــ طالما أيقظك الدهر يا سفيان فتناعست . . وها هو يوقظك مرة أخرى فتستريب لتعاود النوم . .

صمت الأب قليلاً ثم قال :

ــ سنحاصر قلعة الحامية العثمانية . فلا وسيلة لنا للتجوال في قفار هذه الصحراء واجتيازها دون أن نقضي على هذا الحصن . سمع سفيان من والده ، ولم يفهم عنه . . ولم يحاول لحديثه فهماً . ولماذا محاصرة الحامية ؟ لماذا نثير سخط الوالي والسلطان فيجرد ضدنا حملة لا تقوى أشد قبائل العرب امتناعاً عن ردها ؟ لماذا لا ندور حولها ونتجنبها ونعقد اتفاقاً مع تجار العرب على أننا سنحمي قوافلهم التجارية إن هم قاسمونا ربحهم ؟ لكن سفيان كتم أسئلته وترك والده يتقدمه .

أظلت الشمس فراعها أن ترى الصعاليك قد ترحلوا عن بعض منازلهم . وسرعان ما بدأت سيدة الصحراء لعبتها : ترسل شعرها

الذهبي الناري وتتحرش بالوجوه . تـوردت وجنتا غفـاري خجلاً واحتقن وجـه حجاج غضبـاً . غير أن سيـدة الصحراء المتـرفقة المتعـاليـة لم تعـدم وسيلة لغواية شباب العشيرة وخاصة غفاري الذي كـان أكثرهم وسـامة . ألقت عليه نظرة عـالية متـرفعة فـرأته رجـلاً أسمر طـوالاً ترتفـع قامتـه في السماء .

وكـان سفيان أشـد الأبناء تبـرماً . أمـا حكيم فكان أشبـه بـأبيـه : مـاضي العـزم صـارم الإرادة ، معتـداً بنفســه ، بعيـد الأمــل ، عـظيم الأطمـاع . وكان فـرحاً لأنـه وقومـه هجروا تلك الجبـال الجرداء الصقيلة المملة وهبـطوا ليكتشفـوا عـالم الصحـراء الـداخـلي . هـذا العـالم المــليء بالأسرار الدفينة ، الطافح بالأساطير الفاتنة .

وأصل آدم القحطاني تقدمه . كانت الرؤيـا لا تـزال تسكنه وتضـرم نيران طموح مضـرج بشهوة أقـرب إلى الشبق تتحرق لـلإقبال عـلى الحياة بنهم ، وغزو القدر الذي يرسم لـه حياتـه ، لينهبه ويتلعب بـه كأنـه سبية من سبـاياه . . الحـرية هـا هي في الهواء المنعش تتسـرب إلى أنفـه . وهـو يكاد يتنشقها . ولعن في سره هذا القدر الآمر الناهي الذي يـأبى عليه هـو آدم القحطاني إلا الرضوخ لنهيه . لكنه لن يستسلم .

آدم القحـطاني يعرف القـدر جيداً كـأنما عـاركه وغـالبه في حيـوات أخـرى سابقـة أو لاحقه ! القـدر يحضك عـلى النهـوض بـرسـالـة مـا . . يغويك . . فإذا لبيت النداء . . راح يتخطفك ويتلعب بك كصعلوك مع سبيـة . لكن آدم كان يـدرك جيداً أن القـدر لا ينادي أيـاً كان ويحثـه على تلبية النداء . وإنمـا يختار أولئـك القادرين عـلى قبول التحـدي في البدايـة ثم منـازعتـه . القـدر طـريف خبيث يحب أن يلعب مـع أنـداد صــارمي الإرادة . تمـاماً مثـل الفارس الـذي يـأنف النـزول في سبـاق مشتـرك مـع فارس لا يضاهيه أو يجاريه فروسية .

خلع القـوم يومـاً قائظاً ، وقبل أن يـدخلوا في عبـاءة الليـل تمـامـاً

· شاهد آدم بحيرة ساطعة هائلة تترامى أمامه كبحر ليس له شاطىء . أورق الأمل في عينيه وطارد نحو الماء هاتفاً :

ــ ماء . . ماء . . بل بحيرة حلوة عذبة . .

وإذ نزل القوم حول البحيرة . اكتشفوا أمراً غريباً لا يكاد العقل يصدقه : المياه موجودة . أكفهم تطفح بها تلمسها . . أفواههم تحتسيها . . ألسنتهم تحس طعم الماء ونكهته . لكن الظمأ لا يرتوي .

كانت تلك الواقعة العجيبة نقطة تحول في حياة آدم وأولاده : لقد اكتشفوا أن سراب هذه الصحراء يختلف تماماً عن أي سراب آخر عهدوه . هذا سراب لا يخدع حاسة البصر وحسب . . بل انه يخدع جميع الحواس . ومنذ تلك اللحظة بات آدم يشك في وجود العالم فالحواس لا تمنحك اليقين . . والعقل ساذج يقع في شباك الحواس الخبيثة فيصدر أحكاماً جوهرها الشك .

ولم يصدق سفيان ما أنبأته به حواسه . وكاد يفقد عقله وكان الظمأ قد أخذ منه كل مأخذ . تلفت حوله فإذا شفاه ذابلة ، وصدور حامية ورؤوس متلظية .

أخذت شفتاه ترتجفان ، واحتقن وجهه . ثم ثار من مكانه هائجاً مضطرباً وجرد سيفه من غمده وطارد نحو البحيرة كأنما خالط عقله خبل . تابعه القوم بعيونهم يطارد وتخوض قوائم جواده في الماء السرابي فيضرب بسيفه ضربات شديدة عنيفة ثم يلوي عنان فرسه وينقلب مبتعداً بسرعة الومض ليعاود كره الجنوني من جديد . تابعه آدم بعينين فيهما حسرة وفيهما غضب . التفت إلى حكيم وقال :

ــ أنظر إلى هذا المعتوه . . إن ورد ورد لاهفاً وإن صدر صدر لاهثاً . سيعود منهكاً والظمأ أشد فتكاً من السابق .

تفكر حكيم ثم قال بهدوء :

ـ لماذا لا نواصل مسيرتنا . . لعلنا قريبون من الحامية .

رفع آدم رأسه نحو السماء القاتمة وراح يحدق في وجهها لا تطرف له عين وهو يكلمها بكلمات صامتة . فإذا بالسحب تتجمع وإذا بها تلقح بعضها بعضاً وإذا بالمطر غزيراً يهطل . . ويجود . وآدم يحدق لا تطرف له عين ويتمتم ، ويرتل ويبسمل .

حاول حكيم أن يصغي إليه . . دنا منه وراح يتفرس في وجهه فهاله ما رأى من نور يشع إشعاعاً باهراً من عيني أبيه . سأله . قال الأب دون أن يرفع رأسه :

ـ لا أرى إلا نوراً يأخذني من كل وجه . في النهار المتوهج وفي الليل المدلهم .

تساءل الابن في نفسه والذهول يستولي على نفسه وقلبه وعقله :

ـ أفي الوجه هذا النور الخرافي أم في مرايا السراب ؟

والتفت الشاب إلى ابنة عمه بالرضاعة ، فإذا بدفق الصبا يصخب في عينيها وينساب رقيقاً في شفتيها .

داخله شعور غريب . كلمه . فلم يفهم غرضه . أحس كأنه اكتشف « بادية » في لحظة مباغتة . . هي التي نشأت معه كظله . ها هو يكتشفها فجأة في هذه اللحظات السرية من ليل يغسله المطر .

بعد ليل رحيم ونهار جحيمي ، بات بوسع آدم أن يمد بصره إلى البعيد فيرى القلعة . صاح وقد اعترته رعشة نشوة حادة :

ـ القلعة . . القلعة . .

ودبت الحياة في الأجساد التي صهرتها الشمس وهدها تعب

السفر . واندفع القوم كطوفان لا راد له صوب القلعة . . وثار غبار وتصاعد كأنه مارد عملاق يخرج من قمقم خفي ويعلو فارداً جناحيه الجارحين . واقتعدت النساء الرمال وقد داخلهن قلق وساورهن خوف .

فوجىء حرس القلعة بالهجوم الصاعق . لكنهم سارعوا إلى إغلاق بواباتها وتمترسوا وراء جدرانها العالية وراحوا يطلقون نيران بنادقهم ضد هذا السيل العارم الذي يندفع نحو القلعة اندفاع طاعون جارف . وعلا الغبار حتى بلغ عنان السماء . وانعقد حتى حجب الضياء . والفرسان يحيدون عن مجرى الرصاص ويضربون بوابات القلعة بسنابك خيولهم . . ولكن بلا جدوى . وفجر الغضب مستودع الرعد في نفس آدم القحطاني فخرج عن طوره يائساً واندفع بجواده نحو القلعة حتى التصق عنان جواده بأحد جدرانها فضربه ، وقد استبد به غضب أعمى ، برأسه . كان يكسر ويضرب الجدار برأسه فينفر الدم من جبهته العريضة . . ثم يفر بين أدغال الطرقات يميل على جواده ، ثم ما يلبث أن يلوي عنان جواده ويندفع مرة أخرى نحو الجدار الناهض في الفضاء لا يزول ولا يومىء . . ويضربه كثور هائج بجبهته . . ولم يرده عن هذا الكر والفر الجنوني سوى صوت ولده غفاري الذي صرخ :

ــ لنرتد إلى مضاربنا .

كان دم آدم القحطاني القاني السخين يتدفق من جبينه وأنفه فيخضب لحيته وشاربيه .

استقبلت النسوة الرجال وقد استطارت قلوبهن . واحتفت بادية بغفاري وحمدت الله على سلامته . . اختلس منها نظرة فذكرته عيناها بالبرق كلما ائتلق .

عاد آدم لكنه لم يترجل عن جواده . كان يدور قلقاً في حلقات كأنه ريح جامحة أثارت غيظها الأرض فهبت لتنهب وتستاف كل ما تلقاه في طريقها .

خيل إلى الوالي العثماني أن شراذم الصعاليك في أفول . وأنه إنما يرى بقايا فلولهم . وكانت شمس الظهيرة تتفرج على المعركة وتحتقن حماسة وتتقد إثارة .

أمر الوالي عسكره بملاحقة فلول الصعاليك . . وهذا بالتحديد ما كان ينشده آدم القحطاني . اندفع الصعاليك إلى متاهات الصحراء . . وإذا بالجنود العثمانيين يلاحقونهم . موجة عارمة تنهض وتندفع كالطوفان إلى البعيد تلاحقها موجة أخرى عاتية تريد أن تمسك بها .

وفجأة تدخلت الشمس حين كاد الصعاليك يفقدون الرجاء ويشككون في عقل شيخهم آدم . أطلت من بين سحابتين داكنتين وصوبت نارها الجهنمية على رؤوس الرجال . وبينما سارعت السحب بتشكيل مظلة فوق رؤوس قوم آدم ترد عنهم هذا اللظى المحرق ، ظل الجنود بلا حماية . . عراة في العراء . تسحقهم طاحونة الشمس ، وترميهم الحرور بالسعير ، ويثقل عليهم الحر ، فإذا بجماعة منهم تسقط عن خيولها بعد أن صهرت الشمس أبدانها . وزأرت الريح فولى الطير والحجارة والضباع هاربة لتفسح المجال لتدفق الدماء على أرض ظمأى .

في تلك اللحظة لوى آدم عنان جواده وانفتل ليندفع نحو الجنود الذين باتت أجسادهم نهباً للسعير ، وعقولهم سكرى بلهب القيظ .

اندفع آدم شاهراً حسام سيف بن ذي يزن المطلسم وانطلق قومه في أثره والسحب تغطيهم بظلالها وتسبح فوق رؤوسهم . وانحدروا كالسيل ، وانعطفوا متسابقين ، ورمحوا متلاحقين ، وتناوبوا في النزال ، واندفعوا كالجبال ، وساقوا في الفجاج ، وأثاروا العجاج . وعلا غبار أسود تكاثف حتى ملأ الأرض ظلاماً وحلكة ، وأحاط آدم وعشيرته بجحفل العثمانيين اللجب وبجيشهم العرمرم الذي كان يتلظى في أتون

هذه النار المحرقة . وطاش عقل العسكر حين أبصروا سناً وهاجاً يومض في عيني آدم فيذهب بأبصارهم . وأحاط قوم آدم بالعسكر قتلاً وذبحاً . . ثم انطلق آدم نحو قائدهم وأهوى عليه فاحتز رأسه . وراح قومه يضربون العساكر الذاهلين الذين دب جنون الشمس الشلل في أعضائهم ، برصاص بنادقهم ويضربون منهم الأعناق ويقطفون منهم كل بنان . ثم ينقشع الغبار وينبثق من قلبه آدم وهو يطارد كومض في لمعة السراب ومتاهة الوهم ليقتحم وقومه القلعة العظيمة الهائلة . . فلم يصادف القوم منزلاً إلا قوضوه ، ولا صرحاً إلا هدموه ولا طريقاً إلا أخفوا رسومه ولا قصراً إلا محوا اعلامه .

هكذا انقضوا على المدينة التي تحيط بها القلعة . . انقضوا كوحش كاسر واحد مخرب هدام جريء . . وأسروا وسبوا ثم فرقوا الجند في الأرض بددا وتركوا ديارهم خراباً يباباً . ونظرت نساء قوم آدم فإذا بالوالي تغل يداه وتصفد رجلاه ثم تقيد بحبل مقيد بعنق جواد ووخز أحدهم الجواد فإذا به ينطلق وجسد الوالي في أثره يمسح عن الأرض اليبوس الحجارة ويكنس الحصى والأشواك .

وسكرت رمال الصحراء أيضاً فراحت أمواجها تفيض وتغمر كأنها بحر أخذته عاصفة . والبسيطة تعلو وتهبط تحت سنابك الخيول كأنها صدر كائن حي خارق يلهث .

واحتفلت قبيلة النهاودة بالانتصار الكاسح . فراح الرجال يقتحمون الدور ويغصبون السبايا ويتهالكون على الخمرة . غير أن غفاري ابتعد عن هذه الولائم البغيضة إلى نفسه . يشرف على بلاد لا يكاد يعرف عنها الكثير . . ولا تعرف هي عنه أي شيء .

أحس بالوحشة ولكنه استأنس بها . ودهمته الوحدة لكنه اطمأن إليها . وفجأة دفن غفاري رأسه بين يديه وراح ينشج من الداخل . . . نشيجاً اهتزت له جذور الجبل الضاربة في أغوار الأرض .

لم يرده إلى رشده سوى صوت بادية العذب . سألته واقفة :

ـ تبكي المذبحة ؟

هز رأسه بالإيجاب . ثم سارع إلى إخفاء ملامح الضعف الإنساني المنبثة في وجهه فوضع قناع الرجل الصلد الصلب . ابتسمت بادية بعينيها وشفتيها وقالت :

ـ انت مثل والدك . . كان غالياً في الشدة ، غالياً في الرقة أيضاً . . وسيظل هكذا . . وستظل هكذا . وهؤلاء الأعراب إذا لمسوا الضعف الإنساني في بطل من أبطالهم طمع فيه سفهاؤهم وهزىء منه حلماؤهم .

أشاح غفاري بوجهه ومد بصره نحو تلك البلاد المجهولة المحرمة . فأوغلت بادية في البكاء وأغرق هو في الضحك . وعادا وقد امتزجت خيبة غفاري من مغالاة قومه في القتل والتنكيل بفرحة لحظة لمس اهتمام بادية به . فأضاءت هذه اللحظة فؤاده ، ونهل من شراب واحد اختلطت في كفيه المرارة والعذوبة .

دخل غفاري على أبيه فوجده مقتعداً إحدى الكنبات المتبقية من أثاث قصر الوالي الخرب المهدم . كان مطرقاً والوحدة الخرساء تطوقه وتعتصره . اقتعد غفاري إلى جانبه . جلسا ساعة لا يومئان ولا ينبسان ، يتبادلان بين الحين والآخر نظرات تحكي ثم يطرقان .

قالت نظراتها :

ـ ما إلى هذا كنا نبتغي .

ومات المساء والقوم في الخارج يصخبون ويعربدون يسكرهم النصر ، وتسكرهم السبايا والخمرة وبقايا قيظ .

رفع غفاري بصره ورمق والده الذي كان منكمشاً صامتاً مطرقاً ،

فراعه أن يرى هذا الفارس المغوار الذي لم ينكس رأسه مرة واحدة في حياته أقرب إلى تلك الأطلال المهدمة والأسوار المحطمة والسقوف المحدودبة .

وأقبل الليل فأجفل مباغتاً وقد رأى الجثث ، فاقشعر بدنه بمرأى الدم ينتفض في الغبار . جال بعينيه المظلمتين فرأى آدم وقد أنهكه التعب وأوهن عزمه الدم المتدفق من جراحه الخفية . . جراح الخيبة . فرمى الليل رداءه الأسود الجليل على الجثث وجلل به الموتى .

اندفق النهار فسال على مباسط الجبال ثم مسح الرمال ومد بساط الظل في أذى الهواجر . ثم مالت الشمس عن الهاجرة والقوم نيام وبقايا الخمرة في رؤوسهم تنهب منها اليقظة .

أما آدم فقد وضع رأسه على خد حجر وتقلب في مضجعه حتى ضاق بالنوم واليقظة . وغفاري إلى جانبه يجفوه سلطان النوم . وحين مالت الشمس عن الهاجرة تسلل النوم إلى رأسيهما فسرق منهما القلق ونهب الأرق فاستسلما له .

في تلك الليلة الطويلة الثقيلة ألم به الطائف من جديد ، قال معاتباً :

ـ ما لتكريس الوحش في الإنسان اخترناك يا آدم . . بل لتسمو به وليحلق بعيداً عن وحشيته . فإذا بك تفتتح وليمة تتزاوج فيها الخمور والدماء . وإذا شهية رجالك توقد نارها الشهوات .

يا آدم القحطاني . أخرج برجالك من هذه البلدة الخربة . واسرج الرياح جامحة وانطلق نحو أعماق الصحراء . ولتلج متاهاتها التي ترقبك وتنتظرك . . لتكوي رجالك بنار الألم وتصهرهم بأتون اللهب ، حيث لا مأوى ولا ظل ولا سحابة . . واسع صوب التقاء النهر الهادر بالبحر الثائر . عندها سيتحول قومك من سلالة الوحش إلى سلالة الإنسان

المتسامي العالم السيد . ويصبحون أقرب إلى الملائكة الصغار منهم إلى الضواري . عليك وعلى قومك أن تتشردوا في أصقاع الرمال ومجاهل السراب وتعبروا هجير البوادي حتى تبلغوا الفردوس المنشود على الأرض ، وتنمو أدغال خضراء في نفوسكم اليبوس . وتورق الأحلام وتجتث الكوابيس .

اقشعر بدن آدم . . لكنه تمالك نفسه وغمغم :

ـ لكنهم لن يسمعوا لي . سيعرضون عني ويهزأون مني .

قال الطيف الذي كلما أمعن آدم النظر في وجهه ضاعت ملامحه وتوارت قسماته :

ـ سيطلبون منك كرامة أشبه بالمعجزة ليصدقوا رؤياك . قل لهم إنك سيد الماء . وسيد الماء في صحراء السراب هذه . . سيد الأرض كلها .

اختفى الطيف . فانتفض آدم مأخوذاً طائش اللب . تماسك ثم أيقظ ولده غفاري وتقدم كلاهما نحو خاصرة البلدة . ثم اعتلى آدم أحد أبراج القلعة وصاح في القوم . تناهضوا متثاقلين ، وتجمعوا ممتعضين . هتف آدم بهم وراح يدعوهم إلى ما أملاه عليه الطيف . تثاءبوا ، وأشاحوا وأعرضوا . . لكن آدم القحطاني لم يدع لليأس سبيلاً . وكان يتمتع بصبر عجيب على الجدل وقدرة بارعة على تصريف الحجج . فناضلهم وجادلهم ، ثم صابرهم وطاولهم ومد لهم حبل أناته . وذكرهم بحماية السحاب لهم وهم يستدرجون العسكر العثمانيين إلى متاهات الصحراء . وذكرهم بالمطر الذي انهمر عليهم يوم كادوا يموتون ظمأ ويأساً .

لكن القوم ظلوا في أماكنهم لا يتزحزحون ولا يميلون . يشيح

البعض ، ينكش آخرون مناخيرهم وآذانهم كأنهم ينظفونها وهم يسدونها .

حل صمت ثقيل قطعه رجل من رجال النواهدة قائلاً وهو يعبث بأصابع قدمه :

ـ الحياة هنا وادعة ، آمنة . كنا نتوق إلى العيش في مدينة فتحقق حلمنا ، وكنا نرغب في قلاع تحمينا فباتت بين أيدينا . فلم البحث عن الشقاء والسعادة تحيط بنا . ولم السعي إلى المجهول المرعب ، بينما حاضرنا واضح مستقر .

وهز معظم القوم رؤوسهم استحساناً . وطاول أحدهم بعنقه وقال لآدم :

ـ تتحدث وكأنك ولي من أولياء الله ، أو عالم من أولئك العلماء الذين يزعمون أنهم من مصابيح الغيوب ومفاتيح إقفال القلوب ، بهم يهتدي كل حيران ، ويرتوي كل ظمآن . . فإذا كنت عالماً من هؤلاء نجنا بكرامة منك من هذا اليباب الذي يحيط بنا .

تحيرت في عين آدم دمعة سرعان ما اختفت .

ووقف آخر فزفع وجهاً مغبراً وقال :

ـ عهدناك يا آدم ثاقب الفكر ، مصيب الرأي ، كنا ندخرك لملمات الدهر تضيء ظلماتها بنور عقلك . . ولكنك الآن تنطق عجباً وتأتي منكراً إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . فنحن لا نطمئن إلى قولك ولا نتحمس إلى دعوتك . فمالنا وما للصحراء واجتياز متاهاتها بعد أن نزلنا في هذا المكان الآمن الأمين .

وعلت أصوات القوم مستحسنة مستصوبة .

بدا آدم كالشيخ الفاني يقف مثقلاً بأيـامه . وسـرت نسمة في الليـل حيرى . . قال وهو يهم بمغادرة مكانه وقومه يلجون في الجدل ويمعنون في المراوغة :

ــ السكوت عن الخوض في الغيب ليكـاد يكون أفضـل من البحث فيه .

نهض الذي طالبه بإظهار كرامة وقال يلح ويلح :

ــ سـألنك أن تفجـر لنا في هـذا اليباب عيـون ماء عـذب ، وأنهاراً تجري فيها مياه الحياة . عنـد ذاك سوف نتبعـك إلى آخر الأرض لنكتشف مجاهل هذه الصحراء الداخلية . . لنكتشف أنفسنـا كما تـزعم . بغتـة اتقـد في عيني آدم ومض خـرافي يكـاد سنـا بـرقـه يـذهب بالأبصـار . فإذا بـأبواب السـماء تتفتح بـالمـاء ، وعيـون الأرض تتفجـر ، وتنبثق الأنهار وتدفق حتى بلغ سيلهـا الـزبى ثم جـاوز القيعـان والـربى . انخلعت قلوب القـوم وانخـطفت . وزاغت الأبصار وانطلقت أصوات الدهشة .

أطفأت هذه المياه وقدة غيظ آدم وقنوطه . وصاح :

ــ أرأيتم بأم أعينكم ؟؟

ورأى القوم . واستعجبوا ، ثم فـرحوا ، ثم سـاورهم شعور خفي بأنهم لن يرحلوا عن هـذا المكان بعـد أن توفـر لهم الماء والخضـرة والوجـه الحسن .

صاح آدم :

ــ هيا . . لا أرغب في تبديد الوقت .

أمـرهـم أن يركبـوا في الميدان وأن يعلوا ظهـور جيادهم ويسيـروا بها

ليجتازوا الصحراء ويكتشفوا دواخلها . ثم يصلوا إلى حيث يلتقي النهر بالبحر .

لكن القوم أعرضوا . فقد ران الجهل على قلوبهم فلم تتبصر ، وغشي على بصائرهم فلم تتدبر . ولم يطق آدم صبراً وقطع الرجاء فيهم وصرخ :

ـ ألم تطالبوني بكرامة فلبيت ؟

التفت إليهم داهية من أخبث الأعراب وقال وهو يهز منكبيه يتكلف الاستخفاف ويداري فرحه بالماء :

ـ ما هذا إلا سراب في سراب . قد يخدعك . . لكنه لا يخدعنا . أتأتينا بسراب ثم تقول إنك فجرت عيون الماء والأنهار . انحط آدم محدودب الظهر في مكانه . كان منهوك الجسم ، معوج القناة . دفن رأسه بين يديه وقد أشجاه الهم وغلبه الوجد .

تحلق أولاده حوله بينما انفض القوم لا يلوون على شيء .

وعادوا إلى صخبهم وعربدتهم وبلادتهم .

تنهد سفيان بارتياح وقال وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن واراها بالمبالغة في إظهار استيائه . وأكد سفيان لأبيه أن قومه لا يستحقون هذا العناء . وإن آدم وأولاده ينبغي عليهم أن ينزلوا عند رأي الأكثرية حتى لو كانت على ضلال .

رمقه آدم بنظرة متعبة مستريبة ولم ينبس . وحث حجاج نفسه على السؤال عن ذاك الذي سيخلف الوالي . وتردد ، جعلت يسراه تعبث بشاربه بسرعة وعصبية . وشتم نفسه لحظة ثم غلبه طموحه وفضوله فقال بصوت يشي بالاعتذار عن طرح هذا الموضوع في مثل هذه اللحظة المتوترة . سأل عن خليفة الوالي .

تجهم وجه آدم ، واتسعت عيناه دهشة وإنكاراً فخرج عن طوره وقال باشمئزاز :

ــ خذ هذا الكرسي يا ابن الكلب .

إمتقع وجه الحكيم . وبيت في نفسه أمراً خطيراً : عزم على أن يدفع بكل المقربين إليه نحو الإلتحاق بالجيش للسيطرة على الدولة الجديدة . وعزم على أن يتزوج وينجب عدداً كبيراً من الأبناء ليلتحقوا بالجيش .

أما سفيان الذي أظلمت الدنيا في عينيه وأدرك أن والده لن يصبر على مجادلته في الأمر فقد قال بصوت يداري غيظه :

ــ أما أنا فإني لا أرى في هذه الصحراء متسعاً لطموحي . لا أكتمكم انني أرغب في الرحيل عن الصحراء وأهيم على وجهي في أصقاع الأرض . لعلي أصيب تجارة أنتفع بها . فالثروة عندي أعظم من الثورة والسلطة .

كان سفيان ممسكاً في كلماته وإشاراته . فانبثقت بذرة الريب في نفس حجاج . بانت البغتة في محيا غفاري . لكنه لم ينبس . كان ينتظر إشارة والده . ظل صامتاً يجول بعينين تحاولان الغوص في أعماق القائل وتقليب كلماته على وجوهها .

التفت إليه والده فبدا كروح جبارة في هيكل سقيم . سأله بعينيه .

قال غفاري بصوت ثابت :

ــ حجاج عاش مع وحش الصحراء وضواريها أكثر مما عاش بين قومنا . وهو أقرب إلى طبيعتها منه إلى طبيعتنا . أنا لا أبغي سلطاناً غير أنني أريد أن يكتب تعهداً على نفسه يقول فيه ان

حكمه سيكون مشاعياً . . الناس فيه سواسية . لا عبيداً ولا سبايا ولا جواري .

اضطرب حجاج والتفت إلى والده محتجاً ، لكن الأب قال بصوت قوي :

ــ اكتب هذا التعهد يا ولد .

امتعض حجاج لهذه الكلمة وغص بها . قال :

ــ لا أعرف الكتابة .

رد الأب بصوت بعثت فيه الحياة .

ــ اقسم إذن .

اقسم حجاج وأعماقه تصطلي بلظى الحقد . وقال في نفسه :

ــ كيف نجري نحن الأسياد في عنان العبيد ، أو نسير على أسلوبهم ، أو نقرن بهم . كيف أرتضي نظاماً يستوي فيه الشريف والمشروف . السلطان والسوقة ؟

توجهت جميع الأنظار نحو العجوز الجبار فقال وهو يتناهض بتثاقل :

ــ اما أنا فسأمضي إلى أعماق الصحراء ومجاهلها حيث يلتقي البحر بالنهر . علينا إدراك الداخل قبل الإحاطة بالخارج والوقوف عليه . وفي الخارج نحن خوارج ودمنا مهدور .

وبدا وكأنه يفحص سفيان بكلمته الأخيرة هذه . حاول الأبناء أن يثنوه عن عزمه . . بلا جدوى . قال :

ــ هذه الدنيا لم تواتني لأكون من الخائضين فيها ، والآخرة لم تغلب علي فأكون من العاملين لها . إلى متى نستظل بشجرة

وقد تقلص عنها ظلها ؟ سأضرب في الأرض السرابية مرة أخرى مقطوعاً من شجرة عليّ أقف على غريبة العجائب وعجيبة الغرائب ، لعلها تنشر علي حقيقة سري .

* * *

تنهدت بأسى ووضعت النص غير المكتمل جانباً . كان تمرد ذياب . . آدم . . حسنين . . « زفت » واضحاً بين السطور . تذمر عدة مرات من « قدره » . . أي من الدور الذي وافق على القيام به منذ البداية . (ألم أخيره ؟ ألم يقبل ؟ ألم أخيره بين البقاء بين قطعان الإبل والماشية وبين القيام بدور بطولي ولكنه مفجع ؟ ثم . . ثم . . لماذا يغضب ؟ هل يتصور بطولة بلا فجيعة ؟ البطولة بلا فجيعة ليست بطولة . بل البطل الذي لا يعرف مقدماً أنه سينتهي نهاية مفجعة ليس بطلاً . فالبطولة في ملتي واعتقادي تكمن في معرفة البطل منذ البداية بأنه سينتهي نهاية مفجعة . وعلى الرغم من هذا الوعي الحاد بالمصير . . فإنه يقوم بالدور غير هياب ولا وجل) .

رميت بصري من النافذة الشرقية . القبور صامتة موحشة ، وريح ساخنة متعبة تتسكع بينها . تنحني فتنثر الغبار هنا وهناك . وتقذف أوراق صحف قديمة في الفضاء . ثم تنتصب وتلتفت بضجر وتختفي .

ورميت ببصري من النافذة الغربية فرأيت الصحراء تهرول بصمت كئيب نحو الأفق البعيد . لا أثر لقافلة ، ولا شبح ، ولا ظل ، ولا سحابة ولا نذير ولا بشير . الصمت الموحش يملأ الكون بحضوره المبهم .

يحدق إلي بعيون واسعة سحيقة خالدة لا دهشة فيها ولا غضب . عيون محايدة رمادية تنتظر موتي .

* * *

لم أكن مرتاحاً أبداً . إذ شنقت نفسي من قدمي . رأسي يتدلى مثل جرس ضخم . كنت أعرف أنني شخص متردد ، قد يغير رأيه في أية لحظة . فحملت بيدي المتدلية مقصاً . ودفعت بيدي الأخرى المقعد الخشبي الذي أسندت عليه رأسي . حين بدأ دمي يتصفى ، تذكرت أنني لم أحرق « النص » ، وأنني لم أطفىء أنبوبة الغاز في المطبخ . وأعترف أيضاً أن رغبة عارمة في الحياة اجتاحتني . حاولت أن أرفع جذعي وأقص الحبل ، إنثنيت ، رفعت يدي . فتحت المقص . لكن جذعي لم ينحن . حاولت مرة أخرى . . بلا جدوى . شعرت بالعجز الكامل . حاولت مرة ثالثة ، لكن جذعي لا ينحني ، وأصابعي تعجز عن فتح المقص ، والمقص لا يصل الحبل المعقود حول قدمي ، والحبل بعيد ، وقدماي تطلان من عقدة الحبل وتحدقان إلى رأسي المتدلي . وأنا معلق في فضاء الغرفة مثل مصباح شاحب يتدلى من سلك كهربائي . . وبدأت أخبو . عينان تجحظان تبصران الأرض سقفاً . والغرفة عارية بيضاء . قلت بلا صوت :

ــ لم أر في حياتي امرأة عارية بيضاء .

أطلقت صرخة مراهق تاه بعد طفولة محددة ، وغاب قبل كهولة لم تأت في وقتها . وجهي شاحب كمصباح بلوري بلا تجاعيد . وجه مراهق حقيقي بوغت في لحظة ذهول الحلم . وذهبت صرختي تتخبط في الغرفة ، فتلقفها الصمت وابتلعها كما يبتلع العنكبوت حشرة . لم تكن صرخة كانت حشرجة . عنكبوت الصمت يلفني ويبتلع حشرجاتي ، وأنا أخبو . . أخبو . . أخبو .

لأنني مثل مصباح يتدلى من السقف وينوس . وذباب يتحلق حول المصباح الكابي .

انطفأ الضوء . . خمد . أظلم وجهي . . والغرفة باتت عارية سوداء . ولم أقل :

ـــ لم أر في حياتي امرأة سوداء عارية .

* * *

في تلك اللحظة دلف رجل أشبه بساعي بريد إلى الغرفة . لم يقرع الباب ، ولم تنم ملامحه عن دهشة . قال بصوت محايد :

ـــ ماذا تفعل ؟ لماذا تعلق نفسك بحبل غسيل ؟

تنفست الصعداء ، وارتعشت جذوة حياة في عيني . غمغمت :

ـــ فكني . أنزلني .

دنا مني . فتش جيوبي فلم يعثر على شيء . رفع كم ذراعي اليسرى كأنما يبحث عن ساعة يد ، فلم يجد شيئاً . عبث بأصابعي بحثاً عن خواتم ، فخيبت أصابعي العارية أمله . مسح عرقه عن جبينه بظاهر يده ، ثم مسح ظاهر يده بقميصه الخاكي وبصق على أرض الغرفة ثم قال :

ـــ مفلس يا ابن الذين . . تفو . . أي حظ عاثر . . تعال . . تعال .

وتناول المقص ، فقص الحبل . هويت على رأسي . ثم انتفضت واقفاً وصحت مغضباً :

ـ كان بوسعك أن تضع ذلك الفراش تحتي .

وتحسست عنقي ورأسي ، فعثرت عليهما سليمين . فتح الرجل اضبارة كان يحملها تحت إبطه . قرأها وهو يحرك شفتيه دون أن ينطق . ثم قال وهو ينفخ ضجراً :

ـــ أريد أن أشرب . عندك ماء ؟

قلت دون أن أتحرك :

ـ في تلك الجرة .

قال :

ـ أنت آدم الحسنين ؟

تداعيت على كنبة متداعية . قلت وأنا أتحسس رأسي :

ـ لا أنا حسنين الحسنين .

دار في الغرفة . وهو يرمقني بنظرات مستريبة . ثم سعى نحو زير الماء . تحسسه وبصق . قال :

ـ اللعنة . ساخن . لكنك صاحب الصورة . وصاحب الصورة اسمه حسنين آدم .

نفخت بامتعاض وقلت :

ـ حسنين ذياب ، حسنين آدم ، حسنين حسنين ، كله واحد ، من تقاليدنا تقديم اسم العشيرة .

سعى نحو الباب وقال :

ـ القيظ في الخارج جهنمي . عندك بوظة .

ـ بوظة ؟ لا ، عندي اكتئاب وتجارب مرة . تحب أن تتذوق واحدة ؟

قال كأنه لم يسمع :

ـ اتبعني . . السيارة بانتظارنا في الخارج . المؤسسة العربية الواحدة لمكافحة الأوبئة في انتظارك .

سألته بدهشة :

ـ المؤسسة ؟

قال :

ـــ العربية الواحدة .

ثم خرج . . فتبعته . توقف فجأة ثم التفت إلي وقال :

ـــ أين المرحاض ؟

حين اختفى داخل المرحاض هرعت إلى سيارة اللاندروفر وهربت .

إنطلقت بالسيارة خارجاً من المنطقة ، بل هارباً من القطر كله . اندفعت السيارة بسرعة مجنونة في طرق خارجية لا عهد لي بها من قبل . أحسست أن السيارة هي التي تقودني . دهمني شعور مرعب بأن بقعة ما ، نائية غامضة ، تشد السيارة إليها بقوة مغناطيسية جبارة لا قدرة لي على دفعها . قوة متغطرسة جاذبة تتجاوب مع قوة أخرى مبهمة تنبض وتغور في أعماقي السحيقة وتلبي نداء القوة الأولى .

مررت بقرى لم يقع بصري عليها من قبل ، وبشوارع لا أدري إلى أين تطارد . كنت ضحية حالة أشبه بالحمى ، أقود السيارة كالمنوم مغناطيسياً ، ولا أتساءل عن وجهتها . ولا أعي أي أمكنة تمر ببصري كالومض .

السيارة تلج أمكنة مجهولة ، وأنا ألج حالة بين اليقظة والغيبوبة .

فجأة لمحت زوبعة من الغبار تطارد نحوي . لم أضغط على الكابح . رغبت في أن أحول مسار السيارة لأتفادى الزوبعة . لكن تلك القوة الخفية التي تلبستني جعلتني أتقدم باتجاه الزوبعة كأنما أرغب في الارتطام بها .

والتحمنا .

أحاطت الزوبعة بي من كل الجهات . واكتنفتني من يمين ومن شمال ، وانتفضت بين يدي ، وولولت فوق رأسي . لفتني بخيوطها الغبراء ، وشدتني إلى حيث لا أدري .

غزت حواسي كلها ، ونهبت ما تبقى من يقظتي ، ثم استاقتني إلى متاهات خرافية . ورافقتني كأنها دليلي إلى الملاذ الذي أنشد . والسيارة تلج أحشاء الغبار ، وأنفاق الريح المتربة اللانهائية .

وما زالت زوبعة الغبار العملاقة تدور بي وبالسيارة ، وتشدنا وتحملنا وتهبط بنا ثم ترتفع ، إلى أن انقشعت فجأة بلا مقدمات .

فتحت عيني ومسحت عنهما طبقات الغبار ، فإذا أنا والسيارة نقف أمام بناية فخمة ضخمة شبيهة بفندق « الهوليدي إن » .

وتلفت فإذا المبنى قائم في صحراء قاحلة جرداء لا يجودها الغيث ولا تؤاتيها العيون .

هبطت من سيارة اللاندروفر المجللة بالرمال والتراب . مسحت عرقي المختلط بالغبار بظاهر يدي ووقفت أستعيد أنفاسي . .

كنت بحاجة ماسة إلى حمام بارد وكأس من البيرة . سعيت نحو « الفندق » فإذا به ينأى . حسبت أنني أهذيْ ، أنكرت ما تلتقطه حواسي . تحاملت على نفسي وركضت صوبه . فإذا به ينأى مرة أخرى . كأنه حلم مستحيل ، وفردوس عصي . ركضت وركضت وركضت ، اللظى يصهرني والظل يهجرني إلى أن بلغت عتبته فدست عليها بقدمي كأنما لأثبته في مكانه .

سعيت إلى بابه الدائري ، فاستقبلني رجل يرتدي عباءة بيضاء وابتسامة سوداء . قال :

ـ يا هلا . . يا هلا . . معك حقائب ؟

سألته بصوت مخنوق عن البار . فأشار لي بيده إلى الداخل . دلفت فاستقبلني هواء مبرد بعث الحياة في وجهي المتداعي . واستقبلت أذناي موسيقى غربية هادئة لان لها وجيب قلبي . صالات أنيقة فخمة ، وأجانب وعرب يروحون ويجيئون كأنهم أطياف تمشي في الهواء .

دلفت إلى البار . مناضد تنتثر هنا وهناك . ورجال ونساء يهربون من جحيم الخارج ويلوذون بالبيرة المثلجة . تداعيت على مقعد قرب خشبة البار . أطلت امرأة ترتدي رداء أبيض وابتسامة سوداء ، وسألت :

ــ ماذا يأمر سيدي ؟

قلت محشرجاً :

ــ كأس بيرة ـ باردة مثل الثلج .

رددت :

ــ مثل الثلج ؟

قلت مؤكداً :

ــ مثل الثلج .

التفتت إلى نادل فلبيني وقالت :

ــ بيرة مثل الثلج .

ففتح باباً يطل على مخزن أو مطبخ وهتف بالانكليزية :

ــ بيرة مثل الثلج .

في تلك اللحظة أقبل رجل مديد القامة يرتدي ثياباً خاكية وجلس إلى المقعد المجاور . طرق بأصابعه على الطاولة وقال للمرأة :

ـ بيرة مثل الثلج من فضلك .

سألته :

ـ مثل الثلج ؟

قال :

ـ مثل الثلج .

وهتف الفلبيني :

ـ مثل الثلج .

وحانت مني التفاتة نحوه فشد وجهه عيني . وجه أليف يذكرني بشخص ما ، رأيته في زمان خارج ذاكرتي ، ومكان غير هذه الأرض . التفت إليّ فجأة وأطلق ضحكة مجلجلة وقال بصوت مرح :

ـ لعلك حلمت بي .

راعني أنه يقرأ أفكاري ، فاضطربت . قال :

ـ ولعلي حلمت بك .

ناولتنا المرأة كأسينا . أتيت على كأسي بجرعة واحدة وطلبت آخر . ضيفني الرجل الغريب سيجارة ثم أشعلها وأشعل سيجارة أخرى له . قال :

ـ لقد جئت من مكان بعيد بعيد . لماذا حاولت الهرب ؟

ثم رفع كأسه إلى شفتيه وأتى عليه بجرعة واحدة .

انقبض قلبي ، وسرت قشعريرة في بدني فاهتز جسدي كله . قلت بلهجة تنم عن عداء :

ـ من أنت ؟

ابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ــ أنا مساعد الحكيم . دكتور في الأنثروبولوجيا . أرسلنا موظفاً في طلبك ، فجئتنا وتركته . أين هو ؟

أحسست بأن الدم جمد في عروقي ، وأن النبض توقف في قلبي . قلت بصوت مبحوح :

ــ في المرحاض . هناك أعني . في . . ما اسم هذا المكان ؟

نقر على خشبة البار بأصابعه الغليظة ثم طلب كأسين آخرين من البيرة . قال :

ــ هذه منطقة محايدة . أشبه بلا مكان يتوسط كل الأمكنة . وهذا فندق أمريكي تحتل مؤسستنا العربية الواحدة لمكافحة الأوبئة الجزء الأكبر منه .

أقبلت المرأة ذات الثوب الأبيض والابتسامة السوداء حاملة كأسين من البيرة .

قالت كأنما تضيف معلومة جديدة :

ــ تحتل المؤسسة الطوابق العليا منه .

دار رأسي وقلت بنبرة عصبية :

ــ ماذا تريدون مني ؟ لست بحاجة إلى الحكيم ، ولا إلى المؤسسة . أطلق الدكتور الانثروبولوجي ضحكة شيطانية وقال :

ــ نحن بحاجة إليك . نريد أن ندرسك ، وندرس أبطال عالمك الذين فروا من بين أصابعك ، وتمردوا عليك .

وأطلقت المرأة ذات الثوب الأبيض والابتسامة السوداء ضحكة

مماثلة . قالت بلهجة ذات مغزى :

ــ نحن بحاجة إليك .

خفق قلبي خفقاً متداركاً ، ولم أفهم . قلت في محاولة يائسة للخلاص :

ــ ولكني شبح . شبح ميت .

انحرفت زاوية فم الدكتور الأنثروبولوجي بسخرية وقال :

ــ اطمئن . نحن ندرس الأموات أيضاً . الأحياء بحاجة إلى موتك كي يقولوك ويقولوا والدك ما لم تنطقا به . كي يفصّلوكما حسبما يشاؤون . . ولهذا السبب أزعجهم ظهورك . أما نحن فنريدك حياً أو ميتاً .

إرتعش الكأس في يدي . فرفعتها إلى شفتي وأتيت عليها بجرعة واحدة طويلة . قالت المرأة التي ترتدي الثوب الأبيض وتلبس الابتسامة السوداء :

ــ سيقولون الآن ـ بعد أن مت ـ انك حي . سيجعلون من اسمك ووجهك قضية حية . سيكتبون كتباً ومناشير ويدعون أن الرمز كتبها . سيزورون ويزيفون . . فإذا عدت سارعوا إلى قتلك ودفنك في الخفاء . أما نحن فنريدك كما أنت .

قلت باكتئاب :

ــ حياً أو ميتاً ؟

قال الرجل :

ــ نريدك حياً إن كنت ميتاً . وميتاً إن كنت حياً .

ولم أفهم .

احتسى كأس البيرة . مسح على شفتيه بكم قميصه وقال وهو

يترجل عن مقعده المرتفع :

ـــ يبدو لي أنك لم تقرأ الصحف منذ زمن .

حاولت أن أجمع شتات ذهني . قلت :

ـــ ولكن لماذا تريدون أن تسألوني عن « عملي » وعن صحراء السراب . . هل أنت ناقد أدبي ؟

أخذني من ذراعي فودعت المرأة التي ترتدي ثوباً أبيض وابتسامة سوداء بابتسامة رمادية . فابتسمت بعينيها وشفتيها .

قال الرجل ونحن نغادر الحانة :

ـــ لقد كتب شعلان عنك أو عن أبيك أو جدك ، مؤخراً ، مقالاً ما زلت أحتفظ به .

قلت بدهشة :

ـــ شعلان ؟

قال الرجل :

ـــ لا ، لست ناقداً أدبياً . قلت لك انني عالم أنثروبولوجيا .

قلت بفضول :

ـــ وماذا كتب شعلان ؟

قال الرجل :

ـــ نعم ، نحن مهتمون بظاهرة حسنين آدم وصحراء السراب .

اجتزنا الردهة ووقفنا أمام المصعد . ضغط الرجل على أحد الأزرار ثم استخرج سيجاراً . لم يشعله ولم يضيفني . راح يدندن نغماً ثم صمت وقال :

ـ سيستقبلك الحكيم نفسه بعد قليل .

قلت :

ـ ولكن لماذا هذا الاهتمام بعمل لم ينضج . عمل أشبه بمسودة لم تتخذ شكلاً . عمل لم يكتمل لأن أبطاله فروا بمصائرهم من أصابعي . ثم ما علاقة عالم انثروبولوجي بعمل مكتوب من المخيلة . ثم . . ثم . . أين نحن ؟ ثم ما هذا الاختلاط في الأسماء والأدوار ؟ ثم . . قال الرجل دون أن يلتفت إلي :

ـ لقد كتب شعلان بمناسبة مرور أعوام على وفاتك واختفاء أبيك مقالة بعنوان : « لا . . لم يموتا ، بل أحياء في قلوب الجماهير » .

قلت مستنكراً :

ـ كأنه يريدنا ميتين ليعاملنا كأحياء .

قال الرجل وهو يمسد لحيته :

ـ العنوان طويل . . لم يعجبني . لا يصلح لمقالة . ثم هل يجوز أن يقول « أحياء » عن مثنى ؟

وكدت أحتج على هذه الملاحظة الثانوية ، لكن المصعد أرسل رنيناً قصيراً ، ثم فُتح بابه . دلف الرجل فتبعته . كان المصعد خالياً . قال الرجل :

ـ سنصعد إلى الطابق الثاني لأريك مشاهد ستعجبك ، ثم نطلق إلى جناح المؤسسة .

انفتح باب المصعد . خرجنا فاستقبلنا دهليز ، حملنا إلى رواق ، أفضى بنا إلى ممر طويل تصطف على جانبيه صالات واسعة ومكاتب .

الجدران مزينة بصور لشخصيات أمريكية مختلفة ، بينها صورة لجون كينيدي ، وأخرى للممثل الأمريكي الشهير روبرت ردفورد ، وثالثة لمارلين مونرو ، ورابعة لميكي ماوس ، وخامسة لسوبرمان .

وفي إحدى الصالات تحلق عدد من البدو حول شاشة تلفزيونية عريضة ، يشاهدون مسلسل دالاس . واتضح لي من الوهلة الأولى أن المتفرجين الذين يقتعدون القسم الأيمن من الصالة يؤيدون « بوبي » بحماسة ، ويشتمون « جي . آر » بحقد . أما رعاة الإبل ، الذين يقتعدون القسم الأيسر من الصالة ، فقد تشيعوا لـ « جي . آر » واعتبروا أنفسهم عزوته وأنظاره ومريديه .

قلت لمرافقي :

ـ ألا تخشى إدارة الفندق اقتتالاً بين الأعراب ؟

ابتسم وقال باطمئنان :

ـ لا . المسؤولون عن الفندق يجردونهم من أسلحتهم قبل أن يدخلوا البوابة الرئيسية .

ثم مررنا بصالة أخرى ، فإذا هي مليئة بأجهزة كمبيوتر متطورة . وغمرني فرح نابع من أحاسيسي الوطنية القديمة . قلت :

ـ هل تعلمون الأعراب استخدام الكمبيوتر ؟

أطلق الرجل ضحكة مجلجلة وقال :

ـ بل نجري التجارب عليهم . نحن نؤمن بأن العلم بحر . والأعراب لا يجيدون السباحة . نحن ندربهم الآن على استخدام المذياع . أي كيف يشغلونه ويديرون إبرته إلخ . . أما الكمبيوتر ففي مرحلة مقبلة . التعليم ينبغي أن يتخذ شكل درجات المئذنة . . درجة درجة .

نظر الرجل إلى ساعته وقال :

ـ تأخرنا . هيا .

دخلنا إلى المصعد . فانطلق ، لا أدري إلى فوق أم إلى تحت . توقف فجأة وانفتح الباب ، فإذا بي أبصر صالة باهرة أشبه بصالات القصور العثمانية القديمة . ثم أغلق الباب وشعرت أننا هبطنا طابقاً آخر . قال مرافقي :

ـ بتنا الآن تحت الأرض . يبدو أن خللاً ما أصاب المصعد . ينبغي أن ننطلق إلى فوق .

توقف المصعد . وإذا ببابه ينفتح عن صالة باهرة أشبه ما تكون بتلك الصالات التي تصفها حكايات ألف ليلة وليلة .

فغرت فاهي دهشة وقلت :

ـ كأنه بناء على الطراز العباسي .

امتلأ فم مرافقي بالضحك وقال :

ـ بل هو بناء عباسي .

وحجب الباب هذا المشهد الباهر حين هبطنا طابقاً آخر . ثم عاد وانفتح عن صالة ضخمة على الطراز الأموي . ثم هبط المصعد مباشرة إلى عمق سحيق . فعلق المرافق :

ـ لقد مررنا في لحظة بطوابق تمثل عصوراً ساميَّة مختلفة . لكنها جميعاً محرمة على الغرباء . . وأنت غريب .

ضغط مرافقي على أزرار أخرى .

فتحت فمي لأتكلم ، لكني لم أجد ما أقوله فصمت . فتح باب المصعد وخرج مرافقي فتبعته . ومشى فمشيت في أثره . كنا نجتاز

دهاليز لولبية ، وأنفاقاً دائرية ، وأروقة تنحدر لترتفع ، وترتفع لتنحدر .

كانت المصابيح في هذه الممرات كابية ، تكاد أضـواؤها الشـاحبة أن تخمد . لم أستطع أن أميـز طريقي ، ولـولا يد مـرافقي الدكتـور القابضـة على رسغي لضللت .

بغتـة ترامت إلى مسـامعي أصوات مبهمـة . بـدأت هـامسـة ، ثم سـرعـان مـا تحـولت إلى عـويـل وصـراخ مـرعب . وتنـاهت إلى مسمعي هتافات مثل :

ـــ الله أكبر . الله أكبر .

اتقدت عينا مرافقي في ظلمة الممر . قال :

ـــ لا تلتفت ، ولا تسأل .

أحسست أنني أخـرج من حلم بـاهـر عجيب لأدخـل في حلم آخـر أكثر عجباً .

وتحـول جسدي إلى رادار حسـاس ، فكأن كـل شعيرة عصبيـة فيـه أنشـأت تلتقـط الأصـوات الدقيقـة ، وتبصر جوف الـظلام وما يكمن في أحشائه وتحس حضوراً غريبـاً لكائنـات دقيقة . وبـدا لي أنني أرى في هذه الدهاليـز السحيقة عـالماً آخـر ، عالمـاً ذا قوانـين تختلف عن القوانـين التي تتحكم بعالم الطابق الأول : عالم الواقـع كما نعـرفه . فـأحساسي بـالوقت هنا تختلف تماماً . وإحساسي بالمكان إحساس غريب فريد . كـأنما المكـان هنا بلا حدود ولا حواجز . وكأن الـزمان أبـدي خالـد عار من الأجـزاء ، فلا ثواني ولا دقائق ولا ساعات ولا أشهر ولا سنين . وكأنمـا العقل المقطِّع المجـزىء المقسم لا سلطة لـه عـلى هـذه المنـاطق السحيقـة . وأحسست بحضور غريب . حضـور أشباح يـراقبوننـا ويتأملوننـا بفضول . وسمعت أصـواتاً نـائية كـأنها تصدر من أمـاكن نائيـة بعيدة ، لكنهـا تصل مسمعي

بوضوح . أسئلة ، أسئلة ، أسئلة . أسئلة بلغة فصيحة مقعرة عسيرة . أسئلة تدور حول ما يجري في هذا العالم وهذا العصر . كأنها أسئلة قوم يعيشون في أزل سرمدي لا يطرأ فيه حادث ، ولا تقع فيه واقعة . أسئلة متعطشة تبحث عن أجوبة . لم أفهم الأسئلة بوضوح . أدركت أنني أسمع لغة قريبة من لغة شعراء الجاهلية لكنها أكثر تعقيداً وأبعد زمناً . وحاولت أن أجيب .

حدثتهم عن أخبار عصرنا . حدثتهم بعربية فصحى ممزوجة بالعامية عن مرحلة عبد الناصر ، ثم حقبة النفط . ما كنت أتقن الحديث بالفصحى . اعتذرت لهم . أعتقد أنهم لم يفهموا. قلت ان لا قلم وورقة معي . ولو كنت أحمل قلماً وورقة لكتبت بفصحى مقعرة قريبة من لغتهم . لكني لا أستطيع أن أرتجل بالفصحى المقعرة . ولعلهم دهشوا من هذا الفصام . لكنني حاولت ، أكدت لهم أننا أطلقنا قمراً صناعياً عربياً ، فانبعثت همهمات سرعان ما خفتت . ثم تلاشت الأصوات تماماً ، واختفت الأشباح ـ كأنني رأيت زنوبياء بينهم ـ .

ــ لم يفهموا . بيننا وبينهم جدار اللاوعي .

صاح مرافقي ، فانتفضت وتذكرت أنه أمامي . ومشينا فلفحتنا هبة هواء بارد ، عبثت بشعري وأرسلت القشعريرة في أعضائي . وما كادت هذه القشعريرة تغادرني ، حتى تجددت ثانية على شكل رعدة اهتز لها جسدي كله ، إذ عدت لأسمع صياحاً وضوضاء ووقع حوافر وصهيل خيل . جمدت في مكاني لا أقوى على الحركة . انطلقت ضحكة مرافقي الانثروبولوجي مجلجلة وقال وهو يشدني من يدي :

ــ إنما هي قبائل تقتتل خارج الفندق . . هيا . . هيا .

انتزعت قدمي من الأرض انتزاعاً وواصلت مشواري العجيب . وأخيراً هتف مرافقي :

ـ وصلنا .

انفتح باب ودلفنا . فإذا نحن في صالة أشبه ما تكون بقاعة من قاعات شركة أو مؤسسة عادية : موظفات يضربن على آلات كاتبة . موظفون يفتحون أضابير وملفات ويطوونها . آخرون وراء مكاتبهم يستخدمون هواتف وأجهزة كومبيوتر .

مررنا بهم وعلق مرافقي :

ـ مفخرة التكنولوجيا . لقد دخل الأعراب أخيراً عصر العلم يا سيدي .

انعطفنا إلى دهليز أفضى بنا إلى ممر ، ثم سعى مرافقي إلى أحد الأبواب وقرعه . فتحه وأطل برأسه . ثم التفت إلي وقال :

ـ تفضل .

فتفضلت .

غرفة فخمة فيها مكتب أنيق يجلس إليه رجل نحيل الظل رفيع العماد متقادم الميلاد ـ لا توحي ملامح وجهه بسن معينة ـ لفت وجهه انتباهي .

كان أقرب إلى جمجمة منه إلى وجه : منخسف الخدين ، بارز الوجنتين ، غائر الفم والعينين معروق العظام . لكن عينيه كانتا تلتهمان مساحة هذا الوجه التهاماً . عينان واسعتان هائلتان تبرقان وتومضان وتشتعلان بذكاء لا يخلو من خبث . وقف الرجل ومد يده مصافحاً . قال :

ـ تفضل يا أستاذ حسنين إجلس .

التفت فإذا مجموعة من الكنبات الجلدية الباذخة تشكل حلقة أمام مكتبه . جلست على إحداها ورحت أعبث بأصابعي بعصبية ، بينما

وقف العالم الأنثروبولوجي وراء ظهري ولم يجلس .

تشاغل الرجل النحيل الظل بأوراق أمامه ، فطواها وفردها ثم طواها . وشملنا صمت ثقيل محرج ، فتشاغلت بمراقبة أكوام من أضابير غبراء تكتنف مكتب الرجل من يمين ومن شمال ، وترتفع بين يديه .

قلت في نفسي :

ــ هذا رجل لا غبار عليه . . على الرغم من أنه محاط بالغبار .

ولاحظت أن سترته أنيقة نظيفة لا غبار عليها . وتناهت إلى مسمعي دقات الساعة ، وكان إيقاعها ينسجم مع إيقاع نبض قلبي .

شعرت أن الرجل يتجاهلني عن قصد . فأخذ غيظي يفور حتى أجهدني أن أكتمه . شبكت ساقي اليمنى على اليسرى ، ثم اليسرى على اليمنى ، والرجل يتفحص أوراقه وكأن الغرفة خالية ، وكأنني غير موجود . ومرافقي الأنثروبولوجي يقف ورائي صامتاً . أحس أنفاسه المنتظمة تتردد على عنقي ، مما زاد في حنقي وجعل دمي يغلي غليان الماء في مرجله . غالبت غيظي فغلبني . هتفت بغضب :

ــ ممكن يا أخ أن تفسر لي ما الذي يجري حولي هنا ؟

رفع رأسه عن أوراقه ، واستوى في مجلسه . اتقدت عيناه بومض خلاب عجائبي وقال :

ــ آسف . . من حقك أن تعرف لماذا استدعيناك . أنا عالم مختص في الظواهر الخارقة . وأنت كتبت حسب علمي عن صحراء سرابية مجهولة . وأنا رجل منطقي علماني . ونحن مؤسسة . . في أية حال ، أنت حسنين الحسنين . . . ونحن نعرف أنك كنت رمزاً لحركات سادت الشارع وشغلت الناس في زمن بعيد . .

قاطعته بحدة :

ــ أنت تتحدث عن أبي . أقصد جدي .

رمقني بنظرة مستريبة وقال :

ــ لا فرق . لا فرق . المهم أنك كنت مصدر قلق لكل استقرار حاول عصر النهضة أن ينجزه . فالاستقرار تراكم . .

أضاف عالم الأنثروبولوجيا فجأة :

ــ تراكم وتراكم . .

قال عالم الظواهر الخارقة :

ــ بدون الاستقرار لا يمكن للمجتمع أن يتطور .

جاء صوت عالم الأنثروبولوجيا من ورائي :

ــ أن يتطور أو ينمو .

قال رجل الظواهر الخارقة :

ــ وأنت كتبت عن صحراء السراب . . وذياب . ونريد أن تتعاون معنا . فالعلم هدف مشترك يجمع بيننا . . تدخن سيجارة ؟

جاء صوت الأنثروبولوجي من خلفي :

ــ سيجارة أو كأس براندي أو قهوة مرة ؟

نفخت مغيظاً وقلت بامتعاض وقد كاد صبري أن ينفد :

ــ لا أريد شيئاً . أريد تفسيراً منطقياً . كلامك غير مترابط . لا أفهمه .

في تلك اللحظة حانت مني التفاتة نحو قدمي المتدلية على ساقي الأخرى ، لاحظت أن حذائي مغبر ، فشعرت بالحرج . نهض خبير الظواهر الخارقة من وراء مكتبه وقال :

ــ أنا جائع .

وراح يقضم أظافر أصابعه . دار حول مكتبه ، ثم وقف أمامي وقال بصوت صارم :

ــ كيف عرفت بوجود صحراء السراب ؟

وقبل أن أفتح فمي لأجيب . قال خبير الأنثروبولوجيا :

ــ وكيف عرفت بوجود السراب ؟

قال الآخر وهو يميل برأسه نحوي :

ــ وكيف عرفت بأن ذياب صعلوك يجوب المدن الكبرى وينشر وباء القلق والأرق ؟ ما علاقتك به ؟

وقال الأنثروبولوجي وأنفاسه تتلاحق وهي تمس عنقي من الخلف :

ــ بل وما علاقتك به ؟

تولاني الارتباك ، وذهلت عما حولي . شعرت بثقل في رأسي . وبينما أنا كذلك إذا بخبير الظواهر الخارقة يضرب بقبضته على طاولته ويصيح :

ــ صحراء مجهولة . كيف اكتشفتها ؟ هل ترغب في سيجارة ؟ أنا أرغب في سيجارة . معك سيجارة ؟ أين كنت تتجول حين تركت جسدك مسجى ؟

قال خبير الأنثروبولوجيا :

ــ معك سيجارة أو سيجار أو عود ثقاب ؟ أنا معي علبة ثقاب بلا عيدان . نعم أين كنت ؟ حين تركت جسدك وغبت ؟ في صحراء السراب ؟ أين تقع هذه الصحراء اللعينة يا أستاذ حسنين ؟

انتفضت منتصباً وهتفت بعصبية :

ــ اسمعوا . هذا كثير . كل ما فعلته هو أنني حاولت أن أعد مسرحاً . كان ينبغي أن أقص حكاية كي لا أنتحر . أن أخترع بطلاً . اخترعت بطلاً ، وحسبت أنني هيأته للقيام بدور بطولي مفجع ، فوافق . لكنه عجز عن مواصلة القيام بهذا الدور المستحيل ، فتمرد علي . وخرج على النص . وانفلتت الأمور من بين أصابعي ، وانصرفت عن عملي . هذا كل ما في الأمر .

ضرب خبير الظواهر الخارقة قدمه في الأرض وقال :

ــ أخي الكريم . هذا ليس كل ما في الأمر . فقد تسلل ذياب بعد أن انقسم إلى ألف ذيب وذيب إلى معظم مدن العرب . وانتشر فيها كالوباء . أنا لست غبياً . . أنا خريج « هارفرد » . نريد أن نعلم موقع الصحراء .

وقال الآخر :

ــ وأنا خريج أكسفورد . وهو خريج هارفرد . وذياب خريج الشوارع .

راح خبير الظواهر الخارقة يذرع الغرفة بخطى متلاحقة عصبية . ثم توقف والتفت إلي . قال مدارياً غيظه :

ــ هل تعرف شخصاً اسمه فزاع المزاع .

هززت رأسي بالإيجاب . فقال :

ــ كـان ينصحك بـأن تستغل غيبـوبتك السـابقة ، وتـوظف ضمور لا شعورك وتتحول إلى عقل خالص ، أليس كذلك ؟

قال خبير الأنثروبولوجيا وهو يتكىء بظهره إلى الجدار :

ــ نعم . . وهو كذلك .

قال الآخر :

ــ لكنك لا تزال أسير لا شعورك الجمعي . . ألبس كذلك ؟

قال الخبير الأنثروبولوجي :

ــ وهو كذلك .

قلت محتجاً مستنكراً :

ــ انه يسألني أنا . وهو كذلك قال . ما دخلك أنت ؟

امتقع وجه الأنثـروبولـوجي ، فدنـا مني وحدق إلي بعينـين ناريـتين وصاح :

ــ كنت معهم . . قل انك كنت معهم .

تداعيت على المقعد . قلت :

ــ مع من ؟ أنا لا أفهم شيئاً .

قال الآخر وهو يقضم أصابعه :

ــ معهم .

ــ مع من ؟

: ــ مـع ذيـاب الآدم . أو آدم الحسنـين . أو حسنـين الحسنـين

لا فرق . مع الصعاليك . حين غبت وتركت جسداً مزوراً يشبه جسدك . وقناعاً يشبه وجهك .

الحر خانق . عرقي يتصبب من جبيني وعنقي . خبير الظواهر الخارقة فك ربطة عنقه . واستخرج من جيبه منديلاً من الورق ومسح عرقه . قال :

ـ نحن لا نستنطقك ، نحن علماء ، منا علماء نفس وعلماء اجتماع وعلماء جيولوجيا . . نريد أن نعرف أين كنت أثناء الغيبوبة . بعد أن هجرت جسدك . نريد معلومات عن صحراء السراب المجهولة .

قال الآخر :

ـ أنت نتاج سلالة من الصعاليك . إنها تكمن في أعماقك السحيقة . هل لذت بصحراء السراب معها ؟

قال خبير الظواهر الخارقة بلهجة تنم عن اعتذار :

ـ أنت ظاهرة غريبة . ونحن ندرسك . لا تجزع . آسف إن صرخنا في وجهك .

قال الآخر :

ـ ندرسك . أنت مثقف ينبغي أن تفهم .

قلت محتجاً :

ـ لست فأراً من فئران المختبرات .

التفت خبير الظواهر الخارقة إلى الآخر وقال :

ـ يقول انه ليس فأراً من . . .

قاطعه الآخر :

ـ سمعته . قال انه ليس فأراً من . . . من أنت إذن ؟ اسمع أنا عالم أنثروبولوجي أريد أن أعرف كيف تعيش قبائل صحراء السراب . كيف اكتشفت تلك الصحراء الملعونة المجهولة ؟

قلت كاليائس :

ـ بالحلم .

انتفض خبير الظواهر وقال لرفيقه :

ـ سجل . . دوِّن . . قال بالحلم .

سارع الآخر واستخرج دفتر ملاحظاته وسجل . ثم دنا من خبير الظواهر وهمس شيئاً في أذنه . فقطب هذا ، ثم مال بدوره على اذن صاحبه وأسر فيها بضع كلمات .

قال الأول وقد انقلبت سحنته :

ـ أتعتقد أننا مضطران إلى الاعتراف له بذلك ؟

قال الثاني :

ـ أعتقد ما تعتقده أنت .

كظم الأول غيظه وبدا الحنق متوهجاً في عينيه . قال للثاني :

ـ تعتقد ما أعتقد !

هز الثاني رأسه بالإيجاب .

أحسست بحاجة ملحة للذهاب إلى المرحاض . لكني كتمتها . وشبكت ساقاً على ساق لأقمعها . بدا أن الرجل يفكر ملياً . قال بعد صمت طال :

ــ إسمع يا أخي الكريم . ينبغي أن نعترف لـك بـأنـك شخص خطير ، يحمل في جنباته وباء معدياً .

قال الثاني :

ــ ونعترف بأن الصحراء المجهولة التي كتبت عنها موجودة . إذ اكتشفتها الأقمار الصناعية الأمريكية .

ــ هذا ما يرجحه بعض العلماء .

ــ والأمريكان يريدون أن يبقى أمر هذه الصحراء طي الكتمان . فرحم الله من سكت فسلم . لكنك طويل اللسان قصير الرأي .

ــ نحن أنفسنا لا نعرف موقع هذه الصحراء المجهولة . لكننا نعرف أنها موجودة .

ــ وأن صعاليكها يتسللون إلى المدن والقرى وينشرون وباء القلق والأرق في بيوت الشعر .

ــ في الكهوف .

ــ في الفنادق وعيون الماء .

ــ في غبار المصانع .

ــ في محطات البنزين ، في الخضروات ، في أشجار الفاكهة ، في الهواء .

ــ في المراحيض العامة ، والمتنزهات ، في الوسائد ، في أحشاء الليل ، في القبعات ، في الجيوب ، في الملابس الداخلية .

ــ الناس يهجمون على الصيدليات . يشترون أقراص المنوم بكميات كبيرة . . بلا جدوى .

ـ آلاف لم يناموا منذ أشهر . الصعاليك يغزون أحلام اليقظة ينهبون السكينة ، يسلبون الطمأنينة .

ـ يغيرون على المنامات ، فيذهبون بالنوم ويسوقون الراحة .

ـ يزرعون القلق في الوسائد .

ـ والأسئلة في العيون والشفاه .

ـ الشوارع تغص بالعصابيين .

ـ أجهزتنا الإلكترونية الدقيقة تتنبأ بوجود نوبات هستيرية كامنة في كل صدر . . وقد تنفجر في أي لحظة .

ـ تحت كل سترة .

ـ وراء كل قناع .

صمت كلاهما فجأة ، وهما يلهثان . هرع الأول إلى مكتبه . فتح أحد الأدراج وتناول زجاجة من الويسكي بيد مرتعشة . وضع فوهتها بين شفتيه واحتسى . ثم ناولها لرفيقه . احتسى رفيقه ، ثم التفت إلي ، وهو يلتقط أنفاسه ، وقال :

ـ هل ترغب في جرعة ؟

قال الآخر :

ـ هل ترغب في التعاون معنا ؟

ـ في سبيل الذين حرموا من النوم .

ـ في سبيل المعذبين الذين فقدوا السكينة .

ـ في سبيل العلم .

دار رأسي . شعرت أنني أرى كابوساً غير معقول . ولكن ما هو

المعقول في حياتنا ؟ عجز الظافر والقاهر لا معقـول ، لكنه واقـع حدث . هـزيمتنا في حـزيران غـير معقـول واقعي . ضـرب المفـاعـل النـووي غـير معقـول معقول . السـادات بعد عبـد الناصر ، وقـائع الحـرب الأهلية في لبنان وبشاعتها ، ما جرى في اليمن السعيد ، كواتم الصوت ، ما تشهده المصحات والفنادق والزنازن . . . إلخ إلخ . . إلخ . .

رفعت رأسي وتقلقلت في مجلسي ثـم فتـحت فـمي لأتـكلم ، فـلم أجد ما أقوله .

قال الأول وقد نفد صبره :

ــ ستعود الآن إلى غرفتك وتفكر في الأمر .

قال الثاني :

ــ تفكر في الأمر ، وتفكر في الأمر .

قال الأول كأنما يضيف جديداً :

ــ تفكر في هذا الأمر المهم .

أضـاف الثاني كـأنما يضيف أمـراً خـطيـراً لم ينتبـه لـه الأول وغفـل عنه :

ــ المهم والخطير .

* * *

قادني عالم الانثروبولوجيا إلى المصعد . وحين دلفنا إليه ضغط عـلى زر معين فهبطنـا نحو الطابق الرابـع ـ فوق الأرض ـ دون أن يتـوقف عند أي طابق آخر . خرجنا ، فقادني إلى غرفتي . قال وهو يفتح بابها :

ــ غرفة أنيقة تطل على الصحراء الجميلة .

وقفت في منتصف الغرفة . التفت إلى عالم الأنثروبولوجيا وقلت :

ـ لكن صحراء السراب لا وجود لها في الواقع .

أظلم وجهه ./وسعى نحو الباب ، خرج وصفقه وراءه بقوة .

صرخت :

ـ إنكما تسألانني عن عمل خرافي . عن حلم ورؤيا . عن مسرح وعالم انفلت أبطاله من بين أصابعي ، تمردوا على مشيئتي .

وحانت مني التفاتة إلى النافذة فإذا النهار قد انطوى ، والليل قد أقبل . ليل مظلم الوجه يطل من نافذتي . سعيت إلى جهاز التلفزيون . أدرته فإذا بالقط « تومي » يطارد الفأر « جيمي » . انقبض قلبي ، أظلم وجهي والغرفة ، ولم أشعل النور . جلست على مقعد جلدي ورحت أدخن وأدخن يلفني ظلام أبكم .

فجأة صفعت أذني صيحات وأصوات لم أتبين مفرداتها . ثم تناهى إلى مسمعي وقع حوافر ، وصهيل خيل ، ورغاء إبل .

هرعت إلى النافذة ورميت بصري . فإذا أشباح خيل تضرب الأرض بقوائمها فتنفجر عيون غبار . غبار يرتفع كنوافير المياه ويتصاعد في الفضاء . فجأة حجب الغبار الكثيف كل شيء ، وخفتت الأصوات حتى تلاشت .

سعيت إلى السرير ذاهلاً واجماً . تداعيت عليه . عندما رقد رأسي على الوسادة أحسست بوجود جسم صلب تحتها . رفعتها فإذا بمسدس محشو بالرصاص . دار رأسي ولم أفهم . قلت في نفسي :

ـ لم يتركوا لي ملابس ولا أحذية ولا مناشف ولا أوراق . . فلماذا المسدس ؟

وحدثتني نفسي بأنهم يرغبون في دفعي إلى الجنون والانتحار . حملت المسدس ورحت أقلبه بين يدي . فإذا بهاجس وضع حد لحياتي

يستولي على كياني فعلاً . ما مبرر مواصلة الحياة بعد أن بت بلا عصبة ، ولا امرأة ، ولا هدف ، ولا معنى ؟ وما معنى الحياة بعد أن تمرد عليَّ أبطال عالمي البديل ، وانفلتوا من بين أصابعي ، ورفضوا حياة البطولة المفجعة . هل أستمر فأعيش فائض عمر ؟ أجتر فيه ما سبق وأن قلت ورأيت وفعلت . هل أعيش كشاب داهمه التقاعد وهو في فوران شبابه ؟

هل أعيش متقاعداً من الحياة نفسها ؟ ماذا تبقى لي بعد أن تلاشى الحلم الأول ، وهرب الحلم الثاني ، وأحرقت بلقيس نفسها ، ونبذتني العصبة ، ولفظتني زوجتي و . . .

وضعت إصبعي على الزناد ووجهت فوهة المسدس نحو رأسي .

بغتة ، هبت ريح عاتية دفعت مصراعي النافذة ففتحتهما . وتطايرت الستائر ، واندفعت الريح إلى الغرفة كأنها امرأة من غبار فضي . وجعل غبار أبيض باهر يتراكم في الغرفة كأنه عمود من الضياء .

انزلقت من السرير بسرعة . واندفعت نحو النافذة فأغلقتها . ثم تلمست الجدار بحثاً عن زر الكهرباء . وضغطت عليه .

ما إن اشتعلت الغرفة بالضياء حتى فوجئت بتحول عمود الغبار إلى امرأة باهرة زهراء الجبين ظاهرة الوضاءة . تتلألأ في عينيها أنوار ساحرة ، ويومض ألف برق .

جمدت في مكاني على السرير لا أقول ولا أزول . اقتعدت الأرض قرب السرير وقالت بصوت أشبه بصوت ناي يعزفه بدائي في متاهة صحراوية نائية في الزمان والمكان :

ــ إعلم يا عزيزي أنني شهرزاد حفيدة حسنين ذياب الأدم . جئتك كي أحررك من الرغبة في الموت بالحكاية . وأعلم أنك

مبتئس مكتئب تفكر في الانصراف عن هـذا العالم . وتعتقـد بأن قصتـك قد بلغت نهايتهـا . لكن قصتـك لم تبلغ نهايتهـا . فقـد عـرفت المبتدأ ولم تـطلع على الخبـر . وها أنـا قـد جئتـك لأقص عليك ماذا جرى لنا في صحـراء السراب ، بعـد أن انفلت ذلك العالم من بين يديك ، وغاب عن بالك .

فـارفع لي حجـاب سمعك ، لأقـول لـك قـولاً كلما بـان غمض ، ولأصف لـك عـرقـاً كلما سـكن نـبض ، ولأريـك نـاراً كلما أُطـفئت اشتعلت ، ولأسمعك بياناً كلما وضح أشكل .

قلت بلا صوت وقد أخذتني الدهشة :

ـــ والله مـا سمعت أعجب من هـذا الكـلام ، لا في المنـام ولا في الأحلام .

وأنصت لصـوتها الـذي لا يشبه الصـوت ، وقد تغلغلت عينـاي في وجهها الأليف الخرافي وجسدها الباهر المجلل بثوب بدوي . قالت :

ـــ إعلم يـا عـزيـزي حسنـين أن مـا كتبتـه لم يعكس مـا جـرى في صحـراء السراب بـدقة . فحـين ألم الطيف بـذياب الآدم خيَّره بـين أن يبقى وراء الإبل وقـطعان الغنم وبـين بطولـة مفجعـة ، ذات نهاية مأساوية . وأوحى إليه بأن نهايته المفجعة ستكون على أيدي أولاده ، أو عصبته ، أو حلمه . إذ قال :

ـــ سيدمر حلمك من قام معك لإنفاذه .

وسيخمد جذوة الحياة في عينيك مَنْ منحته أنت الحياة .

ثم إن أولاده مـا كـانـوا أربعـة كـما ذكـرت . بـل واحـد اسمـه « حسنين » وقـد تشظى إلى اثنين ، حـين انفصم ذيـاب نفسـه إلى ألف ذيب وذيب .

أقـرأ في صمتـك ذهـولاً ، وفي ذهـولـك خيبـة يـا حسنـين . إعلم يا عزيـزي أن حلمك حـين ترجـل من البال إلى الـواقع اتخذ قميصاً غـير الـذي فصلته ، ومسـالك غـير التي رسمت ، ووقائـع غـير التي ذكـرت . فقد التبس الوجـه بالـوجه ، والاسم بالاسم ، ونأى الـدور الذي رغبتـه دانياً ، ودنا الدور الذي رغبته نائيـاً . فانـظر كيف أخفاك الحلم فيـك ثم أظهرك لك ، وانظر كيف طواك الـواحد عنـك ثم نشرك عليـك . كأنـك أصبحت راسياً وأمسيت طافياً .

هتفت كالبائس :

ــ ولكن لماذا تمردوا ؟ لماذا خرجوا عن النص ؟ لماذا . .

قاطعتني بنبرة لا تخلو من حدة :

ــ أنت المسؤول . لم تكتب عمـلاً . كتبت مسـودات لم تبيضهـا . حتى انـك نسيت أسـماء أولاد حسنـين ذيـاب الآدم . فـأنت تسميهم بأسماء معينـة تارة . . ثم تنسى وتسميهم بـأسماء أخـرى في فصل آخر . والطيف ! الطيف ، في مسودتك وفصـولك غـير المترابطة غـير المتناسقـة ، لم يخير ذيـاب بين رعـاية الإبـل والحياة السـاكنـة وبـين حيـاة البـطولـة المفجعـة ، حتى تكتمـل عنـاصر المأساة . لقـدْ فـرضت من خـلال الـطيف مصيـراً واحـداً عـلى ذيـاب . لم تـدعـه يختـار . كنت تنـوي ذلـك . أو ربمـا فكـرت بإعادة صياغة هذا المشهد ، لكنك لم تفعل .

لقـد ارتكبت جريمـة يا سيـدي . لقد جعلت من البـروفـة والمسودة غير الكاملة ، و« الاسكتش » العام . . حيـاة لذيـاب . لم تمنحـه نصـاً نـاضجـاً كـامـلاً . لم تعـطه فـرصـة للتـدريب . التـدريب نفسه كـان حياتـه . فارتبـك ، أحس بأنـه يقوم بـدور لا يتقنـه . دور غامض . ونص غـير مكتمل . مجـرد مسودات .

فثار على النص ، وثار على الدور ، ووجد فيه عبئاً حتمياً ، وقدراً غاشماً ، فخرج عليه وصاغ نصه الإنساني الخاص . وهنا تكمن بطولته المفجعة الحقة .

والآن دعني أروي لك حقيقة ما جرى بعد انفلات الحلم أو العالم البديل من بين أصابعك . إعلم يا عزيزي أن ذياب ظل ينظر بعين الشك والريبة إلى ابنه وحوارييه ومريديه . يأرق الليالي وهو يفكر بذلك الذي سيستل منه الحياة ، هو الذي منحه إياها . ينظر إلى حسنين نظرات مستريبة ، وينظر إلى حوارييه نظرات شك ، وينظر إلى أبناء عصبة النهاودة نظرات حذر . حتى استولى عليه ندم أججته بذرة الشك هذه . ندم دفعه إلى النكوص عن تلبية نداء القدر . كان يصرخ في نومه صراخاً أشبه بالعواء :

ــ لماذا يكون ثمن البطولة باهظاً ؟ ألا توجد بطولة بلا فجيعة ؟ ولماذا لم أتدرب مسبقاً على هذا الدور ؟ لماذا لم تكن ثمة حياة سابقة تعينني بدروسها وعبرها وترشدني ؟

وحدثته نفسه أكثر من مرة أن يبسط يديه إلى حسنين وحوارييه (الذين تقول النبوءة ان قاتله سيكون واحداً منهم كما أولها كل عراف ومنجم لجأ إليه ذياب) فترده قوة خفية لا سيطرة له عليها . وظلت تصطرع في نفسه خصال البطل المأساوي الذي وافق على أن يجفو السهل وينتحي المسلك الوعر ذا النهاية المفجعة ، ورغباته في أن يحرر بطولته من ثمنها ، ويزوغ بها عن فجيعتها .

ولعل هذا الصراع المحتدم المتصل الذي نهب النوم من عينيه والسكينة من قلبه ، هو الذي أدى إلى انفصامه إلى ألف ذيب وذيب ظلوا يقتتلون ويشتجرون . فما عرف الراحة أبداً .

إعلم يـا عـزيـزي أن ذيـاب الأدم ـ أو حسنــين آدم ـ لم يكن مجـرد وهم في خيـالـك ، وأن صحـراء السـراب لم تكن مجـرد صـورة تلح عـلى بالك . وأن الصعاليك ما كانـوا مجرد حلم جميـل يراود أحـلامك . فكـل هؤلاء تمتعوا بوجود حي مستقل قبل أن ترى عينـاك النور ، وقبـل أن تقرأ في الكتب عن الصعـاليـك فيلهبـون خيـالـك . ومن أدراك ؟ لعلك كنت واحداً منهم في حياة سـابقة ؟ بـل لعلك كنت ذياب نفسـه ؟ ولعلك كنت ذيباً من الذؤبان التي انفصم إليها .

أغمضت عيني ، وملت إلى الـوراء لأستريـح قليلاً ، هـززت رأسي كي أطـرد هذا الـذهول الـذي سـطا عـلى عقـلي . تلفت لأتحقق من أنني يقظ غـير نائم . أرى وقـائـع ، وأسمـع كلمـات تنتمي إلى عـالم الـواقـع الحقيقي .

رنوت إلى شهرزاد مضيقـاً ما بـين عيني فإذا بي أبصر صبيـة كالـدرة السنية ، تنفي عن القلب كل هم وغم وبليـة . قرصت وجهي لأتـأكد من صحـوي . فأرسلت صيحـة ألم انتفضت منهـا . قلت بلهفـة من يتحـرق شوقاً لسماع أخبار حبيب اختفى :

ــ والله مـا سمعت مثـل هــذا الكـلام حتى في الأحــلام . ولكن نعم . أعتـرف بأنني المسؤول . لقـد صغت العـالم البـديـل عـلى عجل . صغت مسودة لم أبيضها أبداً . مسودة بحاجـة إلى إعادة صياغة . إلى تدقيق . إلى تفاصيل .

ولكن ماذا جرى لذياب بعد غزو القلعة العثمانية ، والسيطرة عـلى ذلك الجزء من الصحراء ؟

اتقدت عيناهـا ، فتراءت في أعمـاق حدقتيهـا أعماق سحيقـة كأنها مهد سحر خفي ، ومثوى كرامات ومعجزات .

قالت بصوتها النائي الداني :

ـ لهذا الأمر حكاية لـو كتبت بالابـر على آمـاق البصر لكانت عبـرة لمن اعتبـر . إعلم يا عـزيزي أن الحس ، في صحـراء السراب ، حـاكم مـرتشٍ ، خابط خبط عشـواء في ليـل مـدلهم . فنحن هنـاك نعيش في مبهمــات ، تلفنـا الأحـاجـي ، وتحيط بـنـا الأسرار .

تفاقم هذا الاشتجـار واحتدم الصـراع في نفس ذياب . وتضخمت بذرة الشك في نفسـه . فبسط يديـه إلى ابنه حسنـين وقتله . ثم أعلن أنه اغتيـل غيلة . كـأن درب هــذا المبـارك إلى البــطولـة لا تنبسط إلا وهي معمدة بدماء ضحايـاه . كأنـه ذلك النهـر الذي لا يكف عن أهـل القرى الـذين يهبهم الحياة إلا بعـد منحه القـرابين : أجمـل وأنبل صبـايا القـرى على ضفتيه . ثم ادعى أنـه سيشيد دولـة علمانيـة ديموقـراطية ذات جيش عقائدي مهيب ، ومجلس شورى أو برلمـان ذي صلاحيـات واسعة . وأنـه سيؤسس المؤسسات ، ويبني الهياكـل والبنى . وأنه لن يكـون سوى بيـرقٍ بـين بيارق أبنـاء العصبة ، ورمـحٍ بين رمـاحهم . يـأكـل مما يـأكلون ، ويشاورهم فيما يعملون .

ولكن ما ان أقبل عام الهول الثاني ، وأقبل معـه الأجانب حتى ثبت لنـا أن الجيش ديكور ، والـدولة من ورق ، والمؤسســات وهم ، والعصبة سراب . في ذلك العام انفصم ذياب نهائياً إلى ألف ذيب وذيب .

وهنا أشرق الصباح فسكتت شهرزاد عن الكلام المباح .

ووجدتني أصيح وأنشج بصمت . أغمغم :

ـ مـاذا فعلت يـداي هـاتـان ؟ . مـاذا فعلتـا ؟ مـاذا أنجبتـا ؟ أي وحش أنجبت ؟ أي كابوس صغت ؟

لكن ، يبدو أن الكابوس الذي صغته ، والوحش الـذي صورتـه ، كانا يحملان في أحشائهما بذرة النقيض . هذا ما اكتشفته فيما بعد .

نهـــار

فتحت عيني ، فـإذا المرأة التي تـرتـدي الـرداء الأبيض والابتسـامـة السوداء تمسد شعري . همست بصوت كالفحيح :

ـــ صباح الخير .

جحظت عيناي . انتفضت في مكاني متلفتاً . هتفت :

ـــ أين شهرزاد ؟

ابتسمت المرأة ، وأخذت يدي بين يديها وقالت :

ـــ شهـــرزاد من ؟ يبـدو أنــك كنت تحلم . قـل لي يـا عفـريت ، مـا علاقتـك بالصعـاليـك الـذين يبثـون القلق والأرق في عيـون الناس ؟

رمقتهـا بنظرة مستـريبة . ودار بخلدي أنها مجنـدة للعمل مـع علماء المؤسسة . عنَّ لي أن أشرح لهـا حكايتي ، لعلهـا تنقلها إلى العلماء فيـطلقوا سراحي . قلت :

ـــ اسمعيني جيـداً . الفكر العـربي المعـاصر في الأغلب الأعم بعيـد كـل البعـد عن اعتمـاد المعـرفـة العقليـة التي تعتمـد البـرهـــان التجريبي والاستدلال المنطقي .

قالت :

ـــ ليش مـرة بتحكي بـالفصحى ومـرة بتحكي بـالعـاميـة . شـو ؟ معك فصام ؟ أنـا مثلاً بحكي في أحـلامي باللغـة الانكليزيـة ، وفي صحـوي بالعربية . ومـالت علـيَّ . ثم احتـوتني بـذراعيهـا . فقلت بصعوبة وارتباك .

ـ ولذلك نجد أن معظم مفكرينا من الرواد ينتسبون إلى روحانية الغزالي عندما يتعلق الأمر بطلب سند من التراث ، وإلى روحانية بيرغسون عندما يتعلق الأمر بطلب سند من الفكر الأوروبي المعاصر .. فهذه التيارات تنتمي إلى اللاعقل ، في التراث وفي الفكر الأوروبي .. ومن هنا ..

وجذبت رأسي إلى صدرها بحركة مباغتة وهمست بصوت كالفحيح :

ـ شو ؟ الظاهر إنك بتقرأ من كتاب . ليش ما تقرأ شو بتقول عيوني .

حررت رأسي ، ومسدت شعري بأطراف أصابعي ، وبلعت ريقي وقلت ان ما أحاول قوله ـ وصحيح أنني كمن يقرأ من كتاب .. ملاحظة دقيقة ـ هو أن الفكر العربي المعاصر يتجاهل القطاع الفلسفي العقلاني في تراثنا ، ويتجاهل القطاع العقلاني في الفكر الأوروبي . وهو بذلك إنما يقع في التناقض بين أهدافه العقلانية النهضوية ، وبين ميوله اللاعقلانية . نحن نعيش يا سيدتي في العصر التكنو إلكتروني .. كما يقول المفكر العربي ...

وضعت يدها الناعمة على شفتي فغطت كلماتي وتعلقت بعنقي ، فأحسست بجسدها البلوري الباذخ يعتصر جسدي المتوتر . تنهدت من الأعماق وقالت :

ـ ليش بتنقل كلمات غيرك . ليش ما بتحكي لي عن حالك ؟

تابعت بإصرار عنيد وبصوت أشبه بالحشرجة :

ـ ان مفاهيم الفكر العربي الحديث لا تعكس الواقع العربي الراهن ، ومن هنا يستوي الممكن والواقعي ، فيقع التعامل مع

الممكنات الذهنية وكأنها معطيات واقعية ، وتعتبر المعطيات الواقعية في مرتبة واحدة مع الممكنات الذهنية . ثمة نموذجان يتجاذبان الذات العربية منذ بدء يقظتها الحديثة : النموذج العربي الإسلامي القديم ، والنموذج الأوروبي الحديث .

فما من أحد يستطيع أن يجادل في أن الماضي يشكل في الوعي العربي ، الحديث والمعاصر عنصراً محورياً في إشكاليته . ولا أحد يستطيع أن يجادل في قوة تأثير الغرب على هذا الوعي في ذات الوقت . وهنا نجد هذه النظريات التوفيقية التي تحاول إيجاد صيغة توفيقية بين الماضي والمفاهيم الغربية ، متجاوزة الحاضر . . .

نفخت المرأة وقاطعتني متسائلة :

ــ شو ؟ انت ببغاء ؟ نازل تحكي كأنك تقرأ بياناً ؟ ليش عم تتصرف بهذه الطريقة الغريبة ؟

أخذت يدي ووضعتها على صدرها ، فشعرت أنني ألمس الجمر . وتصبب عرقي ولكني تماسكت وقلت بصوت متهدج :

ــ لا . أنا لست ببغاء ، أنا حسنين . هل نسيتِ ؟ فنحن حصيلة سيرورة تاريخية ظلت سارية حتى اللحظة الراهنة ، سيرورة تركت فينا آثاراً لا حصر لها . . ولكن هذا لا يعني . . . فالقطاع اللاواعي ، أو اللاشعور الجمعي في الذات العربية مستودع حاملات الحظ والبركة وجالبات النحس وشافيات المرض وواقيات الحسد والأرواح . وصندوق عجائب تمر فيه الكرامات الخارقة و . . . ينبغي أن تفهميني . . ما في حدا فاهمني . . فأنا . . .

تراخت قبضتها حول جسدي . وتراجعت كاليائسة وقالت :

ــ انت مش معقول .

مسحت حبات العرق المتصببة من وجهي بطرف منامتي وقلت :

ــ كيف يعني مش معقول ؟

قالت بصوت ينم عن خيبة :

ــ انت بتشبه هاي العمارة . اللي ظاهر منك معاصر . لكن تحت السطح في طوابق اندلسية وعباسية ، وتحتها طوابق أموية ، وتحتها طوابق مش عارفة شو . . وهيك حتى نوصل طوابق أهل الكهف والإنسان الأول البدائي . إنت مزور . . إنت قناع . على كل حال . بدي اسمعك تسجيل أذاعته إذاعة عربية تبث من دولة غربية . حديث إذاعي عنك . . يمكن . . عن حسنين . . مش عارفة مين المقصود بالضبط . لكنهم أصحابك اللي حكوا . لكن قبل ما أسمعك التسجيل ، بدي أسألك عن بطلك ذياب أو آدم أو حسنين . . الحاصل . . شو صار فيه ؟

أطرقت طويلاً ، ثم رفعت رأسي وقلت لها انني على الأغلب ، قد عشت حياة سابقة مع ذياب . . في صحراء السراب . وإلا فكيف أكتب عملاً خيالياً ، فتشاء الصدف أن يكون واقعياً ؟ وقلت :

ــ أعتقد أن (الأبطال) ما كانوا يرغبون في نص مكتمل . فالنص المكتمل يبعث الضجر في نفوسهم . كانوا يبحثون عن نص خاص بهم . ولكنهم ـ في الوقت نفسه ـ احتجوا على عدم تماسك النص الذي كتبته . قالوا انهم لم يعرفوا أبداً ماذا يرغبون ، وإلى ماذا يتطلعون . وقالوا انني جعلتهم يعيشون حياة واحدة فقط . وقالوا محتجين : إننا لا نستطيع أن نقارن حياتنا الحالية بحيوات أخرى سابقة ، ولا نستطيع أيضاً أن نصحح مساراتها في حيوات مقبلة وماذا تكون قيمة الحياة ، إذا كانت « بروفة » الحياة . . هي الحياة نفسها ! .

لا أدري . ربما كانوا على حق . فما كتبت لم يتعد المسودات . حتى أنني خلطت الأسماء خلطاً عجيباً . فغفاري في أحد الفصول ، يصبح اسمه مصطفى في فصل آخر . . وهكذا . باختصار . . فقدت السيطرة على عملي . .

ابتسمت المرأة إبتسامتها السوداء وقالت كاليائسة :

ــ طيب . لنستمع إلى التسجيل الآن . . فأنت تكرر ما سبق وأن قلت . إسمع . .

وسمعت . صوت مذيع يقول :

« سيداتي آنساتي سادتي . . بمناسبة مرور سنوات وسنوات على اختفاء العالم العلامة المعلم الرمز الأستاذ حسنين ، قامت محطة إذاعتنا بإجراء مجموعة من المقابلات مع أقرب المقربين إليه . منهم المريد ، ومنهم الصديق الصدوق ، ومنهم الرفيق المخلص الأنيس .

ثلة من هؤلاء المقربين إلى هذا الرمز . . . معنا الآن في الاستوديو . أهلاً وسهلاً بالاخوة الأفاضل . . نرحب بكم أجمل ترحيب و . . .

(أصوات تقاطعه : أهلاً بيك . . يا هلا . . يا هلا . . يا هلا) .

صوت المذيع : معنا الآن السيد شعلان . . . الذي كان من أقرب المقربين إلى الرمز . . في حياته . . . ومماته ! أستاذ شعلان . . نرجو أن تحدثنا بكلمات موجزة عن هذا الرمز الكبير ، البطل الأسطوري ، البطل التراجيدي و . . . (صوت نحنحة) يسعل شعلان لينظف حنجرته ثم يقول بصوت رصين رخيم حزين :

ــ سأتحدث باختصار عن ذكرياتي مع المناضل الكبير صاحب الأنوار والخلوة والأسرار . لما توفي المناضل الكبير حسنين ـ رحمه الله ـ

حملته إلى المقبرة ، فإذا بمؤذن يؤذن لوقت من أوقات الصلاة ، وإذا بالمناضل الكبير قد ثقل عليَّ بغتة ثقلاً خارجاً عن الحد . . حتى عجزت عن القيام به . فهبطت بجثمانه على الأرض حتى فرغ المؤذن . حركته فوجدته خفيفاً كما كان ، عدت فحملته وسرت به إلى القبر وأنا متعجب من ذلك ، فقال لي بعض الرفاق :

ــ كان حسنين ، متى سمع المؤذن ، قام على قدميه وجعل يجاوبه حتى يفرغ . ومن الذكريات أيضاً . أذكر أنه أرسل شابين من شبابنا إلى الجزائر للاجتماع بأحمد بن بللا . . والمهدي بن بركة ـ أيام النضال في سبيل الاستقلال ـ فقالا له : « سمعنا أن أحمد بن بللا والمهدي بن بركة مريضان بداء خطير » . فأشرق وجهه المنير وقال لهما :

ــ تصلان وقد عوفي الأول ، وقام الثاني كأنما لم يمسسه مرض . ويكون دخولكما مقرهما في الجبال آخر الليل ، فإذا دخلتما عليهما تجدانهما يتوضآن لصلاة الصبح . وقد غسل الأول قدمه اليمين ولم يغسل الشمال . والثاني قد غسل الشمال ولم يغسل اليمين . حار الشابان ، ثم ودعا حسنين ورحلا . فكان دخولهما على أحمد بن بللا والمهدي بن بركة في الوقت الذي عين الحكيم وعلى الصفة . . .

صوت المذيع مقاطعاً : لكن المهدي لم يكن مع أحمد في . . .

لكن شعلان تجاهل تعليق المذيع وتابع قائلاً :

وعلى الصفة التي ذكر . فحدثا الناس بما سمعا منه ، فاشتهر أمره .

وجاءه مرة رجل غريب . فقال له :

ــ يا حكيم أذكر لنا درساً أو حكمة أو نبوءة .

فقال :

ـ إذا اختفيت ، أو مضيت ، فولوا على العصبة من بعدي من كانت الشين أول حروف اسمه ، والنون آخرها .

وسأله المذيع :

ـ وأين دفن الحكيم . . أستاذ شعلان ؟

جواب :

ـ في أرضي . وهي أرض صخرية صالحة للبناء . وحسب مخططات المحافظة سيمر من أمامها شارع تجاري عرضه عشرة أمتار . أما سعرها فهو قابل للأخذ والرد . والمقابلة مباشرة دون وسطاء ولا سماسرة .

وشكراً للإذاعة التي أتاحت لي هذه الفرصة الثمينة و . . .

قاطعه المذيع قائلاً :

ـ شكراً أستاذ شعلان . سيداتي ، آنساتي ، سادتي . . الآن . . نلتقي بالأستاذ اسكندر اسكندر ، وهو جار حسنين . . منذ نعومة أظفاره . ها أنا أسأله حول ذكرياته عن الحكيم . . فتشرق عيناه بدموع خفية غير مرئية . تفضل أستاذ اسكندر .

اسكندر :

ـ أعرفه كما أعرف نفسي . أنا ربيت ابنه حسنين الذي كان رحمه الله يجمع بين العلم والإيمان . فهذا الشبل من ذاك النمر . والحقيقة أن الحكيم لم يختف كما يشاع ، ولم يختطف ـ فالذي اختطف هو بن مبارك المغربي في باريس أيام الجنرال أوفقير أما الحكيم فقد سئم هذه الدنيا وزهرتها ، واستأنس بالبادية ووحشتها ، فرحل عنا ، ليعكف على العبادة والدروشة . . وقد استن خلفه الصالح حسنين بمنهجه ، ففعل مثله . وهناك قيل انه سمى نفسه آدم . . أو ذياب . . أعني شيئاً من هذا

القبيل . وشكراً للإذاعة التي أتاحت لي . . .

(ثم سمعت صوت رجل لم أره في حياتي) ـ ادعى أن اسمه فلاح ـ يقول :

ــ ولد حسنين رحمه الله في رمضان . ولم يكن يرضع ثدي أمه إبان الصيام . وكانت أمه قد انضمت إلى قافلة تجتاز الصحراء . وما كانت القافلة تعرف أن الشهر الفضيل قد حل . فقالت أمه : لم يقضم ولدي اليوم ثديي .

فعرفنا ، أن الشهر الفضيل قد حل علينا . لأنه طفل ذو مدد . ولقد قال لي قبل أن يموت بيوم واحد :

ــ اسمع يا فلاح . خذ كل أموالي وممتلكاتي ووزعها على المحتاجين .

ثم قام وصلى ويكى وما زال كذلك حتى اختطفته يد المنون، فإذا به قد كفن نفسه تحت العباءة . كأنما كان ينتظر يد المنون انتظاراً .

* * *

أرسل ما سمعته من المذياع القشعريرة في بدني . كدت أتقيأ . شبكت يديَّ على بطني وهتفت : انهم يزورونني . يزيفون حياتي وحياة آبائي وأجدادي . يزورون مماتي وممات سلالتي !

حدقت المرأة إلي بعينين محايدتين . أظلم وجهي واكتسحني شعور حاد بالاكتئاب :

قلت بصوت مختنق شاحب :

ــ أرجوكِ . أريد أن أنام .

نهضت قائمة وقالت :

ـ وماذا عن العلماء ؟

قلت :

ـ انني متعب .

قالت :

ـ ولكنك استيقظت قبل قليل .

قلت :

ـ أريد أن أنام . لم أنم البارحة .

قالت :

ـ أعرف .

سألتها بدهشة :

ـ كيف تعرفين ؟

قالت :

ـ لدينا أجهزة تصوير خفية إلكترونية في كل غرفة .

ثم مضت نحو الباب . خرجت ، فدخلت تحت الغـطاء . . وأقبل الليل فسمعت وقع أقدامه الثقيلة .

* * *

ليلة أخرى

قالت شهرزاد :

إعلم يا عزيزي أن فرقة أجنبية بقيادة « البريجادير » فرانسوا لورنس ضلت طريقها في الحرب العالمية ، فإذا بها تدور من حيث لا تدري في متاهات صحراء السراب . كانت الفرقة تحط الرحال فوق مجموعة من الكثبان الرملية . فيسارع التعب إلى الأجساد ويغزو النوم العيون والرصاد . وما أن يخيم الغسق ، ويتصرم الشفق حتى تنفر الكثبان كما تنفر الناقة ، وتضرب في المغاور والقفار كما قوافل التجار . ثم إنها تسابق الرياح ، وتخترق الهضاب والبطاح . فإذا استفاق الجند والضباط وجعلوا يحاولون أن يستوقفوها اشتدت في الركض .

وما زالت الكثبان تركض ، والجند يظنون بأن لظى الشمس قد عبث بعقولهم ، حتى بلغوا مشارف دولة السراب . فتوقفت الكثبان كأنما وجمت . ووقف الجند. الحيرة فوق رؤوسهم مع اللظى ، والحيرة تحتهم مع الظلال .

قال قائل منهم وهو يرمي بصره عبر منظاره :

ــ أرى بحيرات سراب . لا بد أننا في صحراء سيناء .

وقال آخر :

ــ أو الربع الخالي .

وقال ثالث :

ــ أو الصحراء الكبرى .

وقال رابع :

ـ أو بادية الشام .

وتسامع أهل صحراء السراب بالنبأ . واستنفرت غرائزهم الإحساس بالخطر . فتنادوا ليديروا الأمر فيما بينهم . وتراكض أعضاء مجلس الشورى إلى مبنى البرلمان . فلم يجدوا للبواب أثراً . وبحثوا عن مفتاح قاعة الاجتماعات بلا جدوى . فعجزوا عن اتخاذ التواصي . فالتواصي تقتضي اجتماعاً . والاجتماع يقتضي قاعة اجتماعات . وقاعة الاجتماعات المغلقة لا تفتح إلا بمفتاح ، والمفتاح في جيب البواب . والبواب نائم في أحد الكهوف ، أو ثمل في إحدى الواحات ، أو نائم عند إحدى زوجاته الأربع . وبعث القوم في طلبه ووقفوا ينتظرون المفتاح والفرج .

أما ذياب فقد كان مبادراً حازماً حاسماً . إذ اجتمع بنفسه ، وأدار الرأي وقلبه بينه وبينه . فاشتجرت الآراء وتنازعت . في تلك اللحظة الخطيرة ، انفصم كلياً إلى ألف ذيب وذيب . ونشب قتال ضار بين ذؤبان ذياب حتى أنكر الذيب منهم خلطاءه . فكلهم وحيد وهم جميع .

وانسل ذيب السابع مثخناً بجراحه ، وكان رجلاً لا ينام على عزمه ، فاندفع إلى الخارج واعتلى صهوة جواده وصاح .

ـ الله أكبر .

فسأله قوم عما يجري . فقال :

ـ كنت جميعاً فتشتت . وكنا واحداً فافترقنا .

ثم انه طارد على جواده صوب الأغراب ، فلحق به نفر من الأعراب وقد حملوا العصي والحجارة . أما الجيش فقد وقف على كامل الأهبة والاستعداد بانتظار الأوامر التي لم تأت .

وأشرف البريجادير شخصياً على ذبح ثلة المقاومين . ثم دخل

المدينة بفرقته ليعثر على ألف ذيب يقتتلون . فقام من فوره بفك الاشتباك . بينما سقطت ذقون الأعراب على صدورهم . ووجمت الوجوه والنفوس ، وعقد الدهش ألسنتهم .

* * *

وقيل فيما بعد ان معظم من تبقى من الذؤبان ارتحل عن المدينة . فاستقل كل ذيب في إقليم منفصل أو متاهة منعزلة . بينما ظل ذيب الأول في المدينة .

* * *

سألتها بلهفة :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

قالت :

ـ مع رحيل النهار رحل القيظ . واليد التي كانت تخنق الجو أرسلته ، فانطلق نسيم رقيق مست الوجوه منه أنفاس خفيفة .

قلت لشهرزاد وأنا أقتعد الأرض بين يديها :

ـ بالله عليك . . حدثيني حديثك العجيب عن أمر الصحراء الغريب ، لأرى ماذا حل بعالم « العمل » الذي شرعت في زراعة بذرته فإذا بها تنمو ثم تتمرد .

هزت شهرزاد وجهها الوضيء واتقدت عيناها بومض ساحر غامض . وقالت :

ـ حباً وكرامة . . . في عام الهول الأول، حدثت الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وفيه تتابعت الأحوال ، وعم الخراب ، وتواترت

الأسباب ، وتضاعفت الشرور ، وترادفت الأمور ، وانعكس المطبوع ، وانقلب الموضوع ، وتوالت المحن ، واختل الزمن .

ثم إن البريجادير فرانسوا لورانس قائد الفرقة الأنجلو - فرنسية بسط سيطرته على صحراء السراب واستقدم ذيب الأول وهو أحد تجليات ذياب الأصلي وقال له :

- احك لي يا ذياب حكاية هذه الصحراء العجيبة وقصة بحيراتها السرابية الغريبة .

فحكى له ذيب الأول الحكاية من مبتدأها إلى منتهاها . فدهش البريجادير فرانسوا لورنس وقال بالفصحى :

ـــ والله ما سمعت أعجب من هذا الكلام ، لا في المنام ، ولا في الأحلام .

وكان البريجادير قد سئم هذه الحرب العالمية وويلاتها ولا نهايتها . فقر قراره على أن يكتم وفرقته سر هذه الصحراء المجهولة . فيلوذ هو وجنوده بها نسياً منسياً إلى أن تضع الحرب اللعينة أوزارها .

وبشر البريجادير ذيب الأول بأنه سيساعده في صراعه مع الذؤبان الآخرين . ثم سأله :

ـــ هل تعرفون يا ذيب الكهرباء ؟

فغر ذيب فاه ببلاهة وحملق . قال :

ـــ وما الكهرباء ؟

صفق البريجادير بيديه فرحاً وقهقه عالياً فتألقت النجوم على كتفيه واهتزت . ثم سأل :

ـــ وهل تعرفون يا ذيب مكبرات الصوت ؟

غزت ملامح الدهشة وجه ذيب فنهبت رصانته . سأله :

ــ وما مكبرات الصوت ؟

في منتصف تلك الليلة كان ذيب الأول يقف على سطح « القلعة » وأنوار باهرة سنية تشع منه وتجلل قامته كهالة مباركة . وصوته الجهوري ينطلق من جهات الأرض الأربع سائلاً الناس أن يتجمعوا حول القلعة .

ما كاد حسن الثاني يظهر على سطح القلعة وهذا النور الباهر يشع حوله ومنه ، حتى توافد الناس مندفعين . وتقاطروا من متاهات صحارى السراب وأصقاعها ذاهلين .

فكان الرجال يقبلون أفواجاً ، والنساء يتوافدن أزواجاً ، والقبائل تنطلق نحوه أمواجاً . وهتف اعرابي وقد أخذ سنا حسن الثاني بصره وعقله :

ــ انه المبارك .

بغتة فوجىء الملأ من الأعراب بصوت ذيب الأول ينطلق مرة أخرى من جهات الأرض الأربع .

قال بصوت أخذ بمجامع القلوب :

ـ « اليوم أرفع عمامتي لتعرفوني. واليوم أفض أمامكم سر كينونتي. أنا آدم الأول الذي لم يسبقه مناضل ضد العثمانيين. أنا بدء الخليقة والنضال . قبلي كان ظلام شامل ، وصمت مطبق ، وفراغ موحش .

أنا الإمام الكبير ، العالم العلامة ، غياث النفوس ، ومبدأ المعارف وختمها . ألقت الكرامات والعلوم زمامها بيدي ، وملكتني ما أضاهي به

كثيراً من قبلي . وقل أن تكون لأحد من بعدي ، فهي جارية وفق مرادي ، سائغة لي حالتي إصدارها وإيرادها » .

لم تشبع العيون الجاحظة الشاخصة من النظر إلى ذيب الأول - آدم - . ولم تكف الأفواه عن إطلاق أصوات العجب والثناء والدهش والرجاء .

ولبس الناس ذهول كاد أن يدفعهم إلى إنكار ما تسمعه آذانهم من صوت يتردد في جنبات الصحراء كلها فيغزو الأسماع وينهب القلوب . وما تبصره عيونهم من نور باهر أضاء العتمة فانجاب الليل وانقلب نهاراً .

وسرعان ما شاع في متاهات الصحراء وبين مضارب القبائل ومضافات القرى ودواوينها أن ذيب الأول يجترح العجائب والكرامات .

لكن أعرابياً ضئيلاً يشي الغبار المنتشر على جديلته بأنه خرج من زمن غابر علق قائلاً :

- لعلنا لا نبصر إلا سراباً يخدع حواسنا . ولا نسمع إلا صدى وهم يتلعب بعقولنا . وإلا كيف انفصم ذياب الواحد إلى ألف ذيب وذيب ؟

وكيف يستنهض بعضهم الأعراب لمواجهة الأغراب . بينما يزعم « ذياب » آخرون أن الأغراب خلاص الأعراب . هؤلاء يقولون لنرجع إلى الجذور والأصول والمنابع . وأولئك يقولون لنأخذ عنهم وعن عجائبهم لنواجههم .

لكن أحداً لم يلتفت إلى هذا الأعرابي الملثم الخارج من زمن غابر مغبراً .

الجموع العطشى ، الجائعة ، التي أنهكها الاقتتال والسل والغزوات والإغارة بدأت تتململ .

صاح أعرابي اعتلى كتفي أعرابي آخر ليتضح له مشهد المبارك وقال :

ـ إنها إمارات الولاية العليا . . التي حظر على العقل تفتيشها وعلى اللسان تكشيفها .

وهب إعصار الحماسة مثل قبائل اندفعت لغزو قافلة من الياقوت والذهب والمرجان . فاندفع القوم نحو ذيب الأول يلتمسون البركة والدعاء . هذا يريد أن يسمع صوته ، وهذا يريد أن يمسه ، وهذا يريد أن يلثمه ، وهذا يريد أن يملأ عينيه من منظره الجميل الباهر . وهذا يريد أن يعرف أي عجائب وأمور خارقة قد تجري على يديه . وفي تلك اللحظة هبت عاصفة رملية هوجاء أخذت تسفع الجموع بريحها المحرقة . وما عادت الجموع تسمع إلا ضوضاء تختلط بصفير الريح الصرصر العاتية وهي تصك الآذان .

ومزقت امرأة ثوبها ، وهرعت ترتقي جدران القلعة لتجثو عند قدمي ذيب الأول ، الذي لمح ساقيها البضين فاتقدت شهوة جامحة في غرائزه . لكنه تماسك ومسح على شعرها . قالت باكية مستجدية وهي تقبل قدميه دون أن ينتبه أنفها إلى رائحتهما :

ـ أنت الغائب المنتظر . زوجي مقعد ، إبعث الحياة فيه .

وهتف به الرجال والنساء وعلا اللغط :

ـ أطلق سراح المطر من قمقم السحاب .

وصاحت امرأة أشبه بجنية خرجت لتوها من ألف ليلة وليلة :

ـ عنزتي تحتضر . . أنقذها .

وأصوات تقاطع صفير الريح :

ـ زوجتي خانتني . . اكشف لي ببصيرتك عن اسم عشيقها .

ـ اعتصر لنا السحاب .

ـ أغار قطاع طرق على إبلي . . فهلا أعدتها لي بكرامة ؟

ـ وأدوا ابنتي . . فهلا كشفت لي أي جوف يباب يشتملها ؟

وتدافع الناس نحوه ، وقد استولت عليهم حمى هستيرية . . كانت الشفاه ذابلة ، والصدور حامية ، والقلوب متلظية ، والعيون غرقى بالدموع ، والخدود ملطومة بالأكف ، والوجوه مخموشة بالأظافر ، والأحشاء ملتهبة بالزفرات .

داست الجموع المندفعة نحو الرجل المبارك على من عثر فسقط . وسحقت آلاف الأقدام رؤوساً فقد أصحابها توازنهم فتهاووا .

أحاط الأعراب بالمنقذ المنتظر كالسيل . فارتج عليه حين رأى هذا الكائن اليائس المضطرم بالرجاء يضيق الخناق عليه . كائن بآلاف الرؤوس المسكونة بأحلام انتظار المخلص . وآلاف العيون الآهلة بصور الماضي وحكايات المخلصين ، وأساطير المنقذين . هذا الكائن المرعب الذي التاث صوابه ، وهاج ساكنه . هذا المخلوق الخرافي البشع الذي يسمونه الجموع . . يندفع كالأمواج نحوه .

قال ذيب الأول لنفسه وقد طار صوابه ونفسه تتساقط أنفساً في قرار الرعب :

ـ ليتني احترقت بنار هذه الكهرباء الأجنبية اللعينة ، ولم أستضىء بنور العلم .

ثم إنه أطلق ساقيه للريح حين عجز جنود الفرقة الأجنبية عن حبس الجموع عنه . ركض فركضت الجموع في أثره .

فجأة خمد الضوء الساطع . وعاد الظلام لينشر ملاءة العتمة الفاحمة على الأشياء والأحياء . وسرعان ما أقام رجال الفرقة الأجنبية من أجسادهم ودباباتهم جداراً يعزل ذيب الأول عن مريديه من الجماهير المأخوذة به .

لكن خدعة المولدات الكهربائية وأنوارها التي سلطت على ذيب الأول انصلت على الناس على الرغم من فراره . ومكبرات الصوت التي زرعها رجال البريجادير في أرجاء الصحراء فعلت فعل السحر في عقول ونفوس القوم .

هذا ما كان من أمر ذيب الأول . . بعد أن انفصم في مواجهة الفرقة الأجنبية إلى ألف ذيب وذيب .

أما البريجادير فرانسوا لورنس وجنوده فقد اكتشفوا لروعهم بحيرات السراب . لكنهم حاروا بأحاجيها . صحيح أنهم شاهدوا من قبل ـ في الربع الخالي أو الصحراء الكبرى أو سيناء ـ سراباً . . لكن سراب هذه الصحراء المجهولة : « صحراء الظلمات » عجيب وخرافي . ترصده الحواس كلها . وقد خيل إلى البريجادير فرانسوا لورنس للوهلة الأولى أن اللعب في بحيرات السراب سيغدو تسليته وتسلية جنوده الوحيدة . ولم يلتفت لوهلة إلى الشائعات التي انتشرت انتشار الرمال في عواصف العجاج من أن هذه البحيرات السرابية تحتوي في سراديبها العميقة المردومة على بقايا الأجداد من زعماء طسم وجديس إلى العرب البائدة . ومن فراعنة وادي النيل إلى آلهة الرافدين . ومن أسلحة سيف بن ذي يزن المطلسمة إلى سيف خالد وعمامته .

ورأى البريجادير أن مياه هذه البحيرات المنعشة ستكون ملاذه وملاذ فرقته من قيظ الصحراء الملتهب ومن أتونها الجهنمي . وأن ضفادعه البشرية سوف تسبر أغوارها السحيقة بحثاً عن كنوز سليمان وجواهر الست زبيدة .

. . . ولكن سرعان ما خاب ظنه وظن فرقته . فها هو البريجادير ورجاله يهبطون إلى هذه البحيرات بأجسادهم الذهبية العارية ليستحموا ، ويسبحوا ، ويغطسوا في ماء البحيرات . . فإذا بأجسادهم الذهبية التي صهرتها الشمس تتحسس ملمس الماء . . لكن السعير الجهنمي الذي يصهر أجسادهم من الداخل لا يتبخر . على الرغم من الماء وبرودته المحسوسة .

وإذا داعبوا بعضهم البعض فتراشقوا بالماء وأبصروه ينتثر في الفضاء ، اكتشفوا انهم لم يتثروا سوى رمال مسنونة لاهبة تحط على جلودهم ورؤوسهم .

وإذا خرج أحدهم من البحيرة ليجفف جسده اكتشف لهوله أنه مضرج بالرمال . وان التراب قد سرح كتائبه في شعره ، وان الغبار قد حط على أهدابه ، وشقق الجفاف شفتيه .

وقف شعر البريجادير رعباً وعجباً ، وصار دمه يغلي من السخط كما الماء في قدر اضطرمت تحته النيران . وأغار عليه صعاليك الفضول فتلعبوا برصانته ، وتخطفوا توازنه ، فقر قراره على حفر بحيرات السراب ونبشها . مما أثار سخط الزوابع والزواحف والأعراب ولهب الشمس . . فأشباح الأجداد وكنوزهم وسيوفهم وقصورهم وأطلالهم وحريمهم وما وأدوا من بنات وما رفعوا من حضارات وما نقشوا على جدران التاريخ الأزلي من قصص أنبياء وكرامات أولياء يرقد تحت الطبقات السفلى التحتية . . لبحيرات السراب .

لكن العناد ركب صهوة رأس البريجادير مثل فارس أرعن ومرت الأيام والشهور وهم يحفرون ويحفرون فلا يجدون سوى مزيد من السراب . بينما جعل لظى الشمس يتلعب بعقولهم ، ويصهر أجسادهم . إلى أن جاء يوم اقتنع فيه البريجادير وجنوده أن لعنة الحرب أفضل من هذا الجحيم الصحراوي الذي لا يطيقه بشر .

وفي ليلة غـاب عنها القمـر . خـرج الجنـود عـراة ، مطأطئي الـرؤوس ، من تلك الصحـراء . . لا يحملون معهـم سـوى عقـول مشـوشة ، ونفـوس فقدت تـوازنها . وما كـادوا يغادرون حـدود المتاهـة ، عنـد جبال المـرايا ، حتى بـدأت ذاكرتهم تنـوس ، ثم تـلاشت منهـا كـل ذكـرى تتعلق بما جـرى لهم في صحراء السـراب . فكـأنهم أهـل الكهف ناموا دهراً ثم استفاقـوا فإذا الحـرب قد وضعت أوزارهـا ، وإذا هم عراة بلا ملابس ولا سلاح .

ثم أقبل عام الهول الثاني ولما ينفض قوم صحـراء السراب بعـد آثار غبار عام الهول الأول عن ذاكرتهم ونفوسهـم .

إعلم يـا عزيـزي أن الأقمار الصنـاعية الأمـريكية اكتشفت في عـام الهول الثاني هذا صحراء السراب المجهولة .

وعنـدما تفحص علماء ومسؤولـون في الإدارة هـذه الصـور عقـدت الـدهشة ألسنتهم ، وظهرت البغتة في وجـوههم . وهتفوا بصـوت واحـد ينم عن ذهول وحيرة :

ـ صحراء مجهولة ؟

وقام سيد البيت الأبيض وكبار مستشاريـه بإرسـال أوامرهم لأقـرب قاعدة عسكرية أمريكية مطالبين بالتحرك الفوري للتحقق من صحة هـذه المعلومـات المفـاجئـة المـدهشـة . فقـام سـرب من طـائـرات التجسس والاستكشـاف بالتحليق فـوق صحـراء السـراب وتصـويـرهـا من الجـو . ولكن ، عنـدما محض العلماء في واشنـطن هذه الصـور والأفـلام لم يجـدوا للصحراء أثراً .

اقشعـر بدن كبـار المسؤولين في البيت الأبيض . وتـاهت عقـولهم . فـالأقمـار الصنـاعيـة تصر عـلى أنها اكتشفت صحـراء سـراب مجهـولـة . وطيـارو طائـرات التجسس والاستكشـاف أقسمـوا أنهم أبصـروا صحـراء

لا وجود لها في الخرائط . وأنهم شاهدوا فيها بحيرات كبيرة ساطعة يمشي عليها الأعراب والإبل . يمشون على مياهها ولا يغرقون .

لكن عصر المعجزات قد ولى . إذن ؟ وماذا عن الأفلام التي لم تظهر شيئاً حين ظُهِّرت . وتنازعت فرضيات العلماء .

ذهب فريق منهم إلى أن الأقمار الصناعية بحاجة إلى فحص جديد . وحجتهم في ذلك أنها أرسلت معلومات وهمية عن منطقة خرافية لا وجود لها . فلا يعقل أن توجد في هذا العصر مناطق مجهولة في العالم . .

وذهب آخرون إلى أن الأقمار الصناعية لا يمكن أن تخطىء . وأن شهادات الطيارين تعزز هذا الرأي . وبالتالي فإن احتمال وجود قوم من الأولياء القادرين على الخوارق . . مثل السير على سطح البحار أمر محتمل . خاصة وأن الشرق كان دائماً مهد المعجزات والخوارق ، واللامعقول . . . وما زال .

وقد توسط بعض الباحثين بين الرأيين المتباينين عن الصحراء . . فقالوا ان وجود هذه الصحراء ذات البحيرات محتمل ، وان عدمها محتمل أيضاً . وخير وسيلة لقطع الشك باليقين هي إرسال بعثة مؤلفة من فريق من العلماء ، وفريق من العسكريين إلى صحراء الظلمات المزعومة هذه والتحقق على الأرض والطبيعة من وجودها .

فاز هذا الرأي باستحسان سيد البيت الأبيض . فحزمت الإدارة أمرها . وأمرت الطائرات بإنزال فريق من كبار علماء الجيولوجيا والانثروبولوجيا ووو . . بالاضافة إلى قوة عسكرية صغيرة منتخبة ، في تلك المنطقة التي حددتها الأقمار الصناعية .

في عام الهول الثاني ذاك ، رأى أعراب صحراء السراب أسراباً من طيور حديدية عجيبة تحلق فوق سمائهم ثم تفرخ كائنات صغيرة

تهبط من أرحامها كالبيض . . لكنه بيض لا يتكسر حين يرتطم بالأرض . وشاهد القوم تلك الكائنات الصغيرة وهي تهبط بالمظلات ، ثم تكبر وتكبر كلما دنت من الأرض .

أقبل قوم مدينة المرايا ليشاهدوا هذه المعجزة . توافد الرجال أفواجاً ، وجاءت النساء أزواجاً . ورفع الجميع رؤوساً حائرة تضطرم فيها الدهشة والمخاوف إلى السماء . وخيل إلى بعضهم أنهم يشاهدون علامات قيام الساعة . اما كثبان الرمل فكانت هوادج جن جنونها حين اقتربت الطائرات من الأرض ، فتناهضت تنتقل من مكان إلى آخر . هبط الرجال الذين سقطوا من أرحام طير الرخ العجيب كالبيض ولم يتكسروا حين ارتطموا في الأرض . سام كولومبوس كريستوفر - رأس الحملة - كان الوحيد الذي كسر ذراعه كسراً يسيراً بسبب عدم إتقانه للهبوط بالمظلة . لكن . . حتى هذا الكسر لم يكن خطيراً ، لا بل اختفى ألم سام كولومبوس كريستوفر تماماً ما ان وقع بصره على القوم وهم يتراكضون ويتدافعون نحوه عابرين بحيرات المياه دون أن يبتل أحدهم .

كان السيد سام كريستوفر كولومبوس يرتدي بذلة بيضاء أنيقة ، وقبعة بيضاء من القش .

وقفت جموع الأعراب تحدق إلى كولومبوس ورفاقه بعيون تنكر ما تراه ، وآذان تنكر ما تسمعه من لغة غريبة . ووقف كولومبوس ورفاقه يبحلقون بأولئك الأعراب الواقفين على سطوح بحيرات المياه بعيون تشع دهشة وذهولاً . وكان وجه اليباب ينكمش ويتجهم .

وتردد الطرفان من الاقتراب والاختلاط ، فحافظا على مسافة فاصلة مزروعة بالروع والدهش . لكن فضول المستر كولومبوس العلمي ذهب بعقله ، وبدد مخاوفه ، فإذا به يتلفت ويرى مئذنة مرتفعة .

خلع المستر كولومبوس سترته البيضاء بحركة لا تخلو من ولدنة لا وقار فيها . ثم اندفع ساعياً إلى المئذنة فلحق به رفاقه . واندفع وراءه بعض الأعراب وجعلوا يكتنفونه من يمين ومن شمال . وآخرون يمشون خلفه ، وآخرون يسعون بين يديه . وذرات الرمال اللاهبة امتطت صهوة الهواء الساخن ولحقت بالجميع .

قال أعرابي من الذين سمرتهم الدهشة فظلوا في أماكنهم لا يبرحون ولا يميلون :

ـ ما هذا سوى سراب يتلعب بحواسنا .

صاح أعرابي كاد يفقد رشده :

ـ لعلهم ملائكة أرسلتها السماء .

وعلق آخر نهش الظمأ شفتيه :

ـ لسنا بحاجة إلى رجال يهبطون من السماء . نريد من السماء مطراً .

وتلت امرأة تعويذة معينة ثم قالت :

ـ عجيب أمر السماء . . تحبس المطر وتطلق الرجال ينهمرون .

تجرأت امرأة من اللواتي لحقن بالمستر كولومبوس ورفاقه ، فدنت منه ، وتلمست سترته . فأضاء الفرح وجهها الذي كوته الشمس . وهجم أعرابي ورع ومزق ربطة عنق المستر كولومبوس كريستوفر بحركة خاطفة من يده ، فأخذ قطعة منها وفر مختفياً بين الحشود . وراح رجال وأطفال يتخطفونها منه تبركاً .

إلا أن كريستوفر لم يأبه بالقوم ومضايقاتهم . بل ظل مندفعاً صوب المئذنة المطلة على بحيرة سراب كالسائر في منامه ، لا يومىء ولا يلتفت .

ارتقى المستر كريستوفر درج المئذنة ، وما ان بلغ قمتها حتى كانت الجموع قد انتزعت منه الجزء الأكبر من ملابسه . . فبدا في عليائه شبه عار . ثم فرد ذراعيه وقفز صوب البحيرة : رأسه أولاً ثم جسده . فإذا به يرتطم بأرض جرداء ، وتتحطم أضلاعه ، ويشج رأسه .

شق رفاقه طريقهم نحوه بين جماهير الأعراب بصعوبة . وبينما فزع الطبيب المرافق نحوه . خاض عالم جيولوجي في الماء العجيب . ملأ كفيه واحتسى ، فأحس بمذاق الماء . لكن ظمأه لم يرتو . رشق نفسه بالماء فإذا برمال ملتهبة تنتثر على صدره وشعره . سرت في بدنه رعشة الذهول . ثم صرخ فجأة :

ـ هذا سراب من نوع عجيب فريد .

حمل بعض جنود المارينز المستر كريستوفر إلى أحد البيوت . بينما راح العلماء الآخرون يتفحصون هذه البحيرات العجيبة وسط طوق حماية ضربه حولهم جنود المارينز .

في تلك اللحظة . بلغ نبأ هبوط كائنات غريبة مسامع الجنرال ذيب الأول . فارتج عليه ولم يهتد إلى إجراء يقوم به . فسارع الكولونيل ذيب الثاني وابتدره قائلاً :

ـ ينبغي أن نحمل خوابي كنوزنا ونهرب . انها الجن تغزونا .

لكن الجنرال ذيب الثاني ـ الذي حل محل ذيب الأول ـ سرعان ما ملك نفسه ، وثاب إلى رشده فصاح مغضباً :

ـ كيف أكون آخر من يعلم ؟ أين الأجهزة ، والعيون المبثوثة ، والآذان المرصودة .

قبض على ذراع الكولونيل ذيب الثالث وهزه بقوة . ثم التفت إلى الكولونيل ذيب الرابع وصاح :

ــ لن يأخذوها مني إلا ركاماً . لن نكرر تجربتنا المرة هذه المرة .

واندفع نحو جواده ، فـاعتلاه . استن بقيـة الضباط والجنـود منهجه واندفعوا كـالسيل ، عـلى ظهور الخيـل ، وانعطفـوا متلاحقـين ، ورمحـوا متسابقين ، وسـاقوا في الفجـاج وأثاروا العجـاج . . إلى أن بلغوا المنـطقة التي هبط فيها الأغراب ، ورأوا حشود الأعراب .

* * *

فوجىء الجنرال ذيب الثاني برجل أزرق العينين يـرفع علماً أبيض . فالتفت إلى جماعته باعتزاز وزهو وهتف :

ــ لقد استسلموا .

دنا الرجل الغريب من ذيب الثاني وقال له بعربية سليمة :

ــ ينبغي أن نتفـاوض على انفـراد . أنـا وأنت والمسـتر كـريستـوفـر فقط .

وهنـا دب الخلاف بـين الـذؤبـان مـرة أخـرى ، واشتجـرت الآراء بينهم .

قال ذيب الثالث بلهجة تنم عن شك وريبة :

ــ نحن جميـع وواحـد في آن . إن شئت فـاجلس معنـا جميعـاً ، أو انصرفوا عن هذه الصحراء .

قال ذيب الرابع :

ــ لا كلام بيننا وبينكم ، ولا مفاوضات . اغربوا عن وجـوهنا قبـل أن يعمل الأعراب سيوفهم بكم فيقطعون منكم كل بنان .

وقال ذيب الخامس وقد عبث فضول ملح بنفسه :

ــ لنسمع ما يقولون .

وهكـذا بدأت المعـركة الثـانية الـطاحنة بـين انفصـامـات ذيـاب . وانحـاز الغربـاء إلى صف ذيب الثاني واستخـدموا أسلحتهم الـرشاشـة . فـانهزم معارضـو المباحثـات . وأصر ذيب الثـاني عـلى إبـادتهم جميعـاً ، إذ أخـذ الدروس والعبـر من تجربـة ذيب الأول . فعلق من علق على أعـواد المشـانق ، وسحل من سحـل ، ولم ينج من تلك المـذبحة سـوى مجموعـة قليلة من (الذياب) .

ولكن حين تفقد الجنـرال ذيب الثاني جثث معـارضيه لم يعـثر لذيب الثالث على أثر . فاقشعر بدنـه وهاج سـاكنه وجمـع أصحاب ذيب الثـالث من الأعراب الفقراء والمعدمين وقال لهم :

ــ أخبروني بخبر زعيمكم فما بقي من عمركم إلا ساعة .

لم ينبس أحـد منهم ، ولاذت عيـونهم ومـلامـح وجـوههم بصمت أخرس . فأمـر الجنرال ذيب الثـاني بحفر سـراديب تحت الرمـال ، ثم أمر بإلقاء أنصار ذيب الثالث بأطفالهم ونسائهم وماشيتهم فيها .

بعـد أن اختلى ذيب الثـاني بكـريستـوفـر ومستشـاره ، خـرج وعـلى وجهـه إمارات الفـرح ، وآيات النشـوة . ثم إنه أعلن عن إقـامة الأفـراح والليالي الملاح احتفـاء بالضيـوف . فأدار النـاس الكأس والـطاس ولعبت الخمرة ألعابها .

ولم يضـع الأمـريكيـون الـوقت سـدى . فمنـذ اليـوم التـالي بـدأ علماؤهم يتفحصون بحيـرات السراب بـآلات عجيبة ، وأدوات غـريبة . ثم إنهم اكتشفوا أن هذا السراب قابـل للتحول إلى ألف مـادة ومادة ، إذا أضيفت له مواد كيماوية معينة .

وهكـذا بين يـوم وليلة تحولت بحيـرات السراب إلى منـاجم غنية . وأقيمت المختبـرات الضخمة ، والمصـانع الكبيـرة ، والقصـور الفخمـة ، والشـوارع العريضـة . وكان شـرط المستر كـريستوفـر ـ الذي أقـام شركـة

كبرى أسماها « شركة كولومبوس يو - إس . آ » - أن يبقى أمر الصحراء وسرابها ، كما كان دائماً ، سراً من الأسرار .

وبدأت المصانع تنتج الكاكاو والبن والقطن والحديد والصلب والاسمنت والسيارات والمطاط والألعاب والملابس والتلفزيونات وأجهزة الكومبيوتر والفيديو والبيبسي والأحذية . . وكل ما يمكن أن تتخيله مخيلة مجنحة .

لكن ما لم يفهمه الناس هو اقتصار تصدير هذه المنتجات على أسواق البلدان النامية . وتوزيع هذه السلع على أعراب الدولة السرابية . . مجاناً .

في البداية فرح الحفاة والعراة . بل فرح جميع الناس بالأحذية الجديدة المجانية ، والثياب الأنيقة الغربية ، والقبعات المضحكة العجيبة .

لكنهم كانوا يمضون إلى تلك المناجم فيحفرون ويحفرون ويحفرون ، ولا يعودون إلى منازلهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال . فإذا عادوا أحسوا بسعير الأرض يحرق أقدامهم على الرغم من الأحذية ، ويصهر رؤوسهم على الرغم من القبعات الواقية .

وإذا دخل أحدهم بيته ، ظن أهله أن لوثة أصابت عقله ، فهو عار مثلما خلقه الباري . لا يستره لباس ولا ورقة توت . فإذا نظر إلى أهله بعينين ذاهلتين رآهم عراة أيضاً لا يجللهم غطاء ولا قماش .

وإذا جلسوا حول مائدة الطعام واجمين أكلوا من معلبات المصانع فلم يشبعوا . فيهرعون إلى علب أخرى يفتحونها ويأكلون ويأكلون ولا يشبعون . ويرتدون ملابس أخرى - من صنع المصانع الجديدة - ويخرجون ليقصوا على الجيران قصتهم العجيبة . فإذا بالجوع يعضهم ، كأنهم لم يتناولوا طعاماً ، ويقرص البرد جلودهم كأنهم لا يلبسون ثياباً .

وكـان الرجـل من الأعراب يتصـل بجهـاز الهـاتف فيسمـع صـوت صاحبه على الطرف الآخر من الخط . ويتبادلان حديثاً حول صفقات ومواعيد ، فـإذا ما تقـابلا أقسم الثـاني أنه لا يملك جهـاز هاتف أصـلاً ، ونفى الواقعة تماماً .

وكـان منهم من يستقل سيـارته إلى عمله ، فـلا يصله إلا لاهثاً قـد هده الإعياء والتعب ، كأنما جاء راكضاً لا راكباً .

انتشرت هذه الحكـايات العجيبـة والوقـائع الغـريبة بـين النـاس ، فأصبحت حديثهم الشـاغل ؛ وراحت تتنـاقل عـلى الألسنة ، فتتسـع عند سماعها حدقات العيون ، وتفغر الأفواه .

ولكن سـرعـان مـا بـرزت ظـاهـرة جـديـدة بثت القلق في قلوب الأعـراب ، حتى ظنوا الـظنون بعقـولهم . فقد بـدأ بعض عمـال منـاجم السـراب من الأعراب يتحـدثون عن غـاز عجيب ينطلق من هـذه المناجم بعد خلط السراب بالمواد الكيمـاوية ، ويتهـامسون حـول أثره عـلى قواهم الجسدية والجنسية والعصبية والعقليـة . ثم تحول الهمس مـع ارتفاع عـدد الضحايا والحالات المرضية إلى كلام مسموع .

فقد قال أعـرابي في مقهى ازدحم فيه النـاس ، ان عشرة من رفـاقه العمال أصيبوا بالعنة أو فقدوا الرغبة في ممارسة الحب كلياً .

وقـال آخر أن هـذا الغـاز المتواري عن الأبصـار مـدخله ، والخفي عن العقـول مسلكـه يجعله يشعـر بخـدر دائم . كـأنـه تعـاطى طنـاً من الأفيون .

ومنهم من قال انه مـا ان يشم تلك الرائحـة الغريبـة ، حتى ينسطل ويرغب في العزلة . فإذا انزوى واقتعد ركنـاً جانبيـاً وأغمض عينيه مـرغماً رأى أرضاً أشبه بالفردوس . فيها أشجار خرافية ، ذات ثمر من الياقـوت والـزمرد والعـاج . وحوريـات رشيقات القـدود قاعدات النهود، ذوات

حسن وجمال ، وقد واعتدال . وخدود مثل شقائق النعمان ، وأفواه كخواتم سليمان .

ومنهم من أضاف أن هذا الخدر اللطيف يحرره تماماً من الغضب . ويجعله راغباً عما حوله من أصوات وأحداث . فإذا صفعه رجل يحثه على القيام ، ابتسم ابتسامة بليدة تعكس نشوة جوانية حيوانية . وإذا ركله آخر على مؤخرته ، حسب أنه غير مقصود شخصياً . فعيونه ترى إلى الأشياء من بعيد ، وكأن كل ما يجري حوله لا يخصه . وسمى الناس هذه الظاهرة بظاهرة « يصطفلوا » . وسموا هذا الغاز الغامض بأفيون التنابل .

ذهل الأعراب لهذه الظاهرة بعد أن تسامعوا بها واستفحل أمرها ، فتفرقت أحوالهم ، واضطربت أمورهم . وكذبها بعضهم ، وصدقها آخرون . وتعالت احتجاجات ، وشكا الناس من إلحاح النعاس عليهم ليل نهار ، ومن انسراق قواهم وبلادة غرائزهم . وتعجبوا من وحدة الحلم الفردوسي الذي يراه جمعهم .

واستوفز بعضهم للقيام إلى مجلس الشورى لتقديم عريضة تطالب بالتحقيق في هذه الظاهرة الخطيرة . فسعوا إلى مجلس الشورى . لكنهم فوجئوا بأن البواب قد ضيع المفتاح . اقتحموا الباب فإذا بالمجلس يزدحم بقوم نيام . وتلفت أصحاب الشكوى فإذا قاعة المجلس فخمة ضخمة فيها مكيفات هواء ، وديكورات حديثة تبعث على الإعجاب والانبهار .

دلف أصحاب الشكوى إلى الداخل ، وحاول بعضهم إيقاظ النيام بلا جدوى . واكتشفوا أن بعض هؤلاء موتى ، وبعضهم قد نام منذ دهر ولم يصح . ولحق بهم البواب . فقال :

ـ لا ملجأ لكم ولا عاصم سوى الجنرال .

خرج أصحاب الشكوى ، بعد أن اكتشفوا أن مجلس الشورى ليس سوى مجموعة من الديكورات الباهرة ، إلى الخارج محبطين ذاهلين . ثم سعوا نحو قصر الجنرال . كان القصر يرتفع عالياً في السماء ، عريضاً في الأفق .

وكان قريباً من كل عين ، تراه حيثما يممت . مشى الرجال ومشوا . اجتازوا عشرات الشوارع . لكن القصر الجمهوري بدا وكأنه ينأى كلما اقتربوا منه . كأنه وهم لا يرى إلا في أحلام غافل . لكن القوم أصروا على المضي في مهمتهم . إذ كانوا ذوي عزائم تفل الحديد ، وتقرب البعيد . وما زالوا يتقدمون من قصر الجنرال وهو ينأى إلى أن وصلوا إلى الشارع الذي يؤدي إليه مباشرة . ساروا بخطى متلاحقة ، فإذا بالشارع يدور حول القصر ولا يؤدي إليه . اعتلى أحدهم كتف رفيقه ورمى بصره ، ففوجىء بأن القصر محاط بجدار عظيم لا بوابة فيه ولا مدخل . ومن وراء السور ظهرت رؤوس مدافع دبابات حجبتها الأسوار .

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

نهار

لسعتني الشمس بلسانها البذيء السليط ، ففتحت عيني بصعوبة . ثم انتفضت فجأة حين استعادت ذاكرتي حضور شهرزاد . ورحت أتلفت حولي فلم أجد لها أثراً . قلت لنفسي :

ــ مش معقول .

فقالت نفسي :

ــ وما هو المعقول في عالمنا اللامعقول الواقعي .

تناهت إلى مسمعي طرقات رتيبة على باب غرفتي . سعيت إلى الباب بتثاقل . أطل شاب وقال باقتضاب :

ـ صحف الصباح .

ناولني إياها واختفى . قلت لنفسي :

ـ لعلل شهرزاد لم تكن سوى وهم لا علاقة له بالواقع .

فردت إحدى الصحف . قرأت عنوان المقال الافتتاحي :

« المنطقة على كف عفريت » .

لم أقرأ المقال . تناولت صحيفة أخرى فقرأت خبراً عن اقتتال القبائل في السودان . وقالت الصحيفة ان هذا الأمر مألوف ولا يدعو إلى القلق أو الأرق . وصرح وزير داخلية « النميري » أن القتلى لم يتجاوز عددهم الثمانين . وهاجم الذين يشككون باستقرار السودان ، متذرعين بقتال بين القبائل ، علماً بأن مثل هذه الحروب والمعارك لا تتجاوز إطار المحافظة على الفولكلور العربي العريق .

وقرأت خبراً آخر عن إقامة دولة العلم والإيمان . وقد صرح ناطق مسؤول في دولة العلم والإيمان أن العذراء قد تظهر هذا العام كما ظهرت قبل أعوام . وناشد السياح الأجانب بزيارة بلده وعدم إضاعة فرصة رؤية العذراء .

ولما حضر السياح ، أصيبت قوات الأمن بنوبة مباغتة من القلق فهاجمت المحلات التجارية ، وأحرقت الملاهي . . وقامت حرب أهلية قصيرة المدى .

وضعت الصحف جانباً ، وخرجت إلى الممر دون أن أغلق باب الغرفة . كان نزلاء الفندق يتحلقون في حلقات هنا وهناك ويهمسون في غضب . لاحظت أن عيونهم حمر ، وأجفانهم منتفخة فقدرت إنهم لم

ينعموا بنوم هادىء . لكنني شخص يفتقر إلى الفضول ، فلم التفت إليهم . سعيت إلى المصعد واكتشفت أنه معطل . هبطت إلى الطابق الثاني عبر الدرج ، وترامت إلى مسامعي أصوات أبطال مسلسل « دالاس » . ثم هبطت إلى الطابق الأرضي . كان بهو الفندق يغص بأشخاص يتبادلون أحاديث ، لم أتبين مفرداتها ، بلهجات لا تخلو من عصبية وتوتر . دلفت إلى مكتب الاتصالات ، فاستقبلتني الموظفة بعينين ناعستين ، ووجه متوتر . قلت :

ـ عن إذنك . ارغب في إرسال تلكس إلى . . .

قاطعتني قائلة :

ـ الأجهزة معطلة .

ثم تثاءبت . لكن عينيها ظلتا مفتوحتين تلتمع فيهما نظرة قلقة .

قلت :

ـ متى تصلحونها ؟

قالت بصوت ينم عن غضب :

ـ لا أحد يعرف أن يصلحها .

قلت :

ـ تشترون الأجهزة تسليم مفتاح . هذي هي المشكلة . المشكلة مشكلةالبناء التحتي و . .

انتفضت من مقعدها . وقفت وراحت تذرع الغرفة بخطى عصبية متلاحقة .

غادرت مكتبها ، حانت مني التفاتة إلى « البار » فرأيته مفتوحاً .

سعيت إليه . كانت المرأة ذات الثوب الأبيض والابتسامة السوداء تقف في مكانها المعتاد .

دنوت منها فلم تبتسم . كانت عيناها حمراوين وجفونها منتفخة .

قالت بعصبية :

ــ لم ينم أحد ليلة أمس . لم ينم أحد .

ونفخت .

جلست إلى خشبة البار وقلت بحياد :

ــ لماذا ؟

قالت بامتعاض وكأنني أنا المسؤول عن هذه الظاهرة الغريبة :

ــ أنا لا أفهم في السياسة . يقولون أن صعاليك مقطوعين من شجرة هم المسؤولون عن ذلك .

قلت بدهشة :

ــ صعاليك ؟

نقرت على خشبة البار بأصابعها النحيلة الطويلة وقالت متبرمة :

ــ نعم . صعاليك . . متشردون . . لا وطن لهم ولا جوازات سفر .

قلت مداعباً :

ــ لماذا لا يقبضون عليهم ، فيريحون الناس ؟

قلبت شفتها السفلى وقالت :

ــ سمعت انهم مطاردون منذ الأزل . ولكن كيف تقبض على أشباح ؟

قلت وقد اتسعت عيناي :

ـ أشباح ؟

قالت وهي تشيح بوجهها كالضجرة :

ـ مالك تردد كلماتي ؟ نعم أشباح . ثم كيف يقبضون على من لا عنوان له ؟ لا . . ولا جواز سفر .

قلت :

ـ لا أفهم .

قالت :

ـ وأنا أيضاً لا أفهم . يقولون ان أحدهم . . واسمه . . عباس . . أو ابن عباس . . أو « أبوه » . . أو أبو نكد . . حاصله . . مطارد من قبل الـ : سي. آي . آ ، والانتربول ، والسكوتلانديارد ، وكل مخافر الشرطة في العالم .

صمتت قليلاً ثم قالت :

ـ ما معنى : سي ، آي ، آ ؟

وقبل أن أفتح فمي لأجيب قالت :

ـ ويحكون عن واحد اسمه بن مبروك أو بن بركات . . قال اختفى زمان وطلع من جديد . وواحد اسمه عبد المحجوب الشفيع أو شفيع محجوب . . حاصله عشرات الأسماء العجيبة . . يقولون انهم أشباح .

لم أعرف ماذا أقول . فتحت فمي بحثت عن كلمة . قلت :

ـ إشاعات !

قالت :

ــ نصف الناس لا ينامون . أهل المدينة المجاورة لم يطفئوا أنوار بيوتهم طوال الليل .

قلت :

ــ هذا إسراف . إهدار للطاقة والثروة الوطنية .

تناولت كأساً بيد مرتعشة وسكبت لنفسها قليلاً من الويسكي .
قالت :

ــ أعصابي تعبانة . لا أقرأ الجرائد ولا أسمع المذياع . . وأعصابي تعبانة . أحس أني أريد أن أصرخ . أن أخرج إلى الشوارع منفوشة الشعر ، شبه عارية وأصرخ . لم أنم منذ دهر . أحس بنوبة هستيرية تتململ في أعماقي ، تتأهب لتعصف بي . أكاد أسمع أزيزها . هل تعرف طبيباً نفسانياً جيداً ؟

هززت رأسي سلباً . فرفعت كأسها وأتت على ما فيه بجرعة واحدة . ثم ضربت بكفها على رأسها وقالت :

ــ صحيح . نسيت . انهم يريدونك . جماعة المؤسسة أقصد .

وقبل أن أنهض مالت نحوي وهمست :

ــ كل الرواد هنا يسرون لي بما يعتمل في دواخلهم بعد الكأس الثالث . كلهم لا ينامون . كلهم يشعرون بالنوبة آتية لا محالة . وكلهم يضع قناع اللامبالاة والسكينة .

سألتها باهتمام :

ــ كلهم كلهم ؟

عضت على شفتها السفلى وقالت كأنما تصحح خطأ :

ـــ معظمهم . اسمع قالوا لي أن أرافقك إلى جناحهم . . لكني . .

قلت :

ـــ لا داعي . بت أعرف طريقي .

غادرت الفندق . نظرت إليه عن بعد . وفكرت :

ـــ لا يعرف الناظر الغريب سوى هذا الجزء الهجين الظاهر فوق السطح .

عدت إلى البهو ، وضغطت على زر المصعد . « المصعد معطل » قال أحدهم . كان علي أن أهبط السلالم . بدأ النور يخفت تدريجياً . كلما هبطت طابقاً ، بات الضوء شحيحاً . وقفت عند أحد الطوابق ، قلت لنفسي :

ـــ لعل هذا الطابق هو الذي رأيت فيه القاعة الأموية .

أشعلت عود كبريت ونظرت ، فإذا ببوابة مغلقة كتب عليها : « الدخول محرم » .

عنَّ لي أن أدخل ، ولكني قدرت أن الباب مزود بأجهزة إنذار إلكترونية دقيقة . ولم أفهم لماذا حرم علي الناس دخول هذه الطوابق . هبطت سلالم أخرى ، وخيل إليَّ أنني بلغت أعماقاً سحيقة ، ولم أدر أية قوة خفية ملتبسة تدفعني إلى الهبوط بدلاً من الصعود إلى الجناح الخاص بالمؤسسة . بغتة عثرت على نفسي في طابق مظلم تماماً . أشعلت عود ثقاب وتلفت ، رأيت بوابة خشبية عريضة ، دفعتها بحذر فأصدرت صريراً بدا وكأنه أنين جماعة هائلة من المنفيين في عالم سفلي غامض . دلفت بخطى مترددة ، فإذا بهواء بارد رطب يلفح وجهي ، وإذا بنداء خافت يستدعيني باسمي . مشيت في دهاليز كابية ، وسراديب موحشة

ذات نور باهت . بغتة انبثق كائن ما أمامي . كأنه طلع من كمائن خفية في أرض هذه السراديب التحتية . لم أميز شكله للوهلة الأولى . ثم أبصرت لهيباً وهاجاً يتقد في عينيه ، وشعرت بأن أواره يكاد يحرق وجهي . ألقى ضياء اللهب ضوءاً نارياً على وجه هذا الكائن . لم أميز وجهه بوضوح ، لكنني أقسمت أنني رأيت هذا الوجه الغامض في مكان ما ، وفي زمن ليس من هذا الزمن .

كانت تلك الجذوة المشتعلة في العينين تظهر وتختفي ، وكان الوجه يغيب ثم يتجلى . اقتربت منه ، فأشاح وركض مبتعداً . أحسست بسطوة رغبة ملحة جبارة تدفعني إلى اللحاق به . ركضت في أثره . كان يظهر ويختفي كالبرق ، وأنا أسمع لهاثه يختلط بلهاثي . وأسمع وقع أقدامه الراكضة تصدر إيقاعاً فاتناً يأخذ بمجامع النفس ، وينتقل إلى القلب . فإذا بوجيب قلبي يتوحد بإيقاع خطواته الهاربة ، وإذا بإيقاع الاثنين يمتزج باهتزازات الأرض تحت أقدامنا .

أحسست أن هذا الإيقاع الواحد المتناسق بين وقع أقدامه ، ونبض قلبي ، ورعشة الأرض ، قد بدأ يتخذ شكل نسيج عنكبوت خرافي يمد خيوطاً خفية بيننا . ينسج علاقات محسوسة غير مرئية بيني وبين الهارب ، وبيننا وبين ما يحيط بنا . والهارب يتخطى نبض الزمن وسراب المسافة ، والنسيج العنكبوتي يتضخم ، ويتوالد ، ويصبح كتلة هائلة من خيوط خفية تمتصنا إلى أغوار سحيقة . وأحسست بأننا ندور في دوامة تدور بدورها في خابية الزمن . وشعرت بأن خطواتنا تنسج مصيدة المفاجأة .

وقفت بغتة وقد هدني الإعياء ، وخذلتني رئتي . تلفت فإذا أنا في أغوار دفينة يردمها ظلام . في متاهة عتمة ، ومجاهل أزمنة . وغمرني إحساس بأن غرائزي تتوهج وتستنفر ، وشعرت بأنني مسكون بآلاف الرغائب البدائية الهمجية ، آهل بملايين الصور المنسية المقنّعة . وبدأت

أسمع عواء رغائب بدائية وئدت منذ مئات السنين . وحدني الظلام بالمكان فما عدت أعرف إن كان هذا العواء الملح ، وهذا الأنين المجنون ، يصدر من أعماقي ، أم من أعماق هذه السراديب .

أشعلت آخر عود ثقاب أحمله . فإذا بي أرى نقوشاً سامية غريبة على الجدران . فجأة أدركت أنني أقف في كهف واسع . حانت مني التفاتة فرأيت ضريحاً مجللاً بحرير أخضر ساطع . انطفأ عود الثقاب ، وظل سطوع الحرير . الحرير الذي يشبه الدمقس ولا يشبهه .

كان إيقاع خطوات ذلك الشخص الغامض قد انقطع . لكن اللهاث عاد ليتحول إلى تنفس منتظم . أدركت أن هذا الشخص موجود في مكان ما في الكهف . لكنه أطفأ تلك الجذوة التي كانت تشتعل في عينيه . أحسست بحضوره كأنما ألمسه . هتفت مدارياً قلقي :

ــ من أنت ؟

سمعت رجع الصدى :

ــ من أنت . . من أنت . . من أنت ؟

رددت وقد تضخم قلقي وبدأ يتحول إلى رعب :

ــ من أنت ؟

وإذا بالصدى يقول :

ــ من أنا ؟ . من أنا ؟ . من أنا ؟

انتفضت مروعاً ، واصطكت ركبتاي . هتفت بعصبية :

ــ دعني أضيء كهف سرك .

فإذا بصوتي يرتد إلي قائلاً :

ــ لا تستبقني إلى بؤرة الغيب .

قلت :

ـ لماذا لا تهوي من دوننا الأستار ؟

ارتد صوتي إلي قائلاً :

ـ أنظر كيف أخفاك فيك ثم أظهرك لك .

قلت :

ـ أفصح .

ارتد صوتي مرة أخرى :

ـ أنظر كيف طواك عنك ثم نشرك عليك .

قلت :

ـ أفصح .

ورددتها ثلاثاً . فارتد صوتي :

ـ من يَبُحْ يَضل .

قلت :

ـ أسألك عنك .

وانطلق صداي :

ـ أسألني عني .

كررت بلهفة حارقة :

ـ أسألك عنك .

رد صداي :

ـ أسألك عني وأنا معي .

بـدا لي وكأن الصـدى ينـطلق من مكـان خـرافي الارتفـاع والعلو . هتفت مستيئساً :

ــ انزل . تعال .

ردد الرجع :

ــ تبكيني عينك وأنا في سوادها .

قلت :

ــ ضريح من هذا ؟

ردد الصدى :

ــ من هذا . . هذا . . ذا .

هتفت والدموع تجلل وجهي :

ــ أضيء لي سراج الغيب ، وحررني من قمقم ظلامي .

ردد صوتي :

ــ لست المـرشـد الكبـير ، ولا مـربـي العـارفـين ، ولا دليـل السالكين . النـور يسقط على قلب صـاف لطيف فـارغ . وقلبي مسكون .

قلت :

ــ تقصدني ؟

قال :

ــ ني . . ني . . ني . .

إنقلبت على عقبي وقد استولى علي الذهول عـلى ما أنـا فيه من أمـر

لا يمكنني معه قول عبارة . واستسلمت للدهاليز فحملتني صعداً من سرداب لآخر . ثم خرجت من البوابة . وصعدت السلم ، وصعدت وصعدت لا أرى طريقي ، ولا أحس بما حولي ، إلى أن ارتطمت بخبير الظواهر الخارقة فهتف :

ــ أين كنت يا أستاذ حسنين . كنا نبحث عنك في كل مكان . لماذا لم ترافقك عاملة البار ؟ ما بال وجهك شاحباً ، ولونك مخطوفاً ؟

غمغمت كأنما أحدث نفسي وأهرب من خاطر يُلح على بالي :

ــ لا بد من المنهج العلمي . لا بد من المنهج العلمي . لا بد من المنهج العلمي .

جحظت عينا الخبير، وهرع إلى مكتبه فأمر أحد الموظفين بإعداد فنجان من القهوة المرة . أشار إلى المقعد الجلدي . فتداعيت عليه . قال وهو يضيق ما بين عينيه :

ــ مالك أستاذ حسنين ؟ كأنك رأيت عفريتاً ؟ هل قرأت الصحف اللعينة ؟ تقول احداها المنطقة على كف عفريت . هل تؤمن بالعفاريت أستاذ حسنين ؟

احتسيت فنجان القهوة المرة ، فلم أشعر بمرارتها . بغتة دلف إلى المكتب عالم الأنثروبولوجيا يرافقه الحكيم . دنا الحكيم مني في تؤدة ووقار وبادرني قائلاً :

ــ ها قد عدنا لنلتقي من جديد .

تقدم من مكتب الخبير فجلس عليه . بينما وقف الخبير الأنثروبولوجي ورائي . قال الحكيم وهو يدس يده في جيب بنطاله :

ــ لقد نجحت إذن في زرع القلق والأرق في نفوس مواطنين كانوا

آمنين مطمئنين !؟

وقال الخبير :

ــ كيف كتبت ما كتبت عن صحراء السراب ؟ كيف عرفت . .

قاطعته قائلاً بصوت ينم عن نفاد صبر :

ــ كنت بحاجة إلى أسطورة . كلنا بحاجة إلى أسطورة . رغبت في أن أصوغ بطلاً أسطورياً ، وعصبة يتحرر أفرادها من العصبية ، كنت أريد لهم أن ينجزوا حلمي . أن يبنوا مؤسسات حقيقية ، أن يشيدوا هياكل دولة علمانية . أن يصوغوا إنساناً جديداً . . أن . .

قاطعني عالم الأنثروبولوجيا قائلاً :

ــ ولكن لماذا تشعر بالذنب يا أستاذ حسنين ؟ أنت لست مسؤولاً . نحن نرغب في أن تساعدنا ، أن تساعد العلم ، كي يكتشف ماهية هذه الصحراء ، وطبيعة إنسانها . لا تعتقد أننا نتكلم عن الأبطال الذين صاغهم خيالك . لا . . لا . . لا .

قال الحكيم :

ــ كنت أظنك علمانياً عقلانياً . . ما حاجة مثلك إلى أسطورة ؟

أبرقت عيناي . قلت :

ــ أحن إلى تلك السكينة الداخلية .

ضحك الخبير ضحكة مقتضبة وقال :

ــ لم ترد على السؤال يا حسنين .

رددت بشبه ابتسامة :

ـ كنت أخاف العتمة ، فيأتي صوت جدي من الصالة وهو يتنحنح ويسعل ، ويصغي لعبد الباسط ، ويقول بين الحين والآخر . . الله . . الله . فكأنما تحلق حولي الملائكة وتمسح على وجهي . يتلاشى الرعب وتحل محله سكينة سرمدية .

شبك الحكيم ذراعيه على صدره ، وقال :

ـ ألا يزال هذا الرعب يغزوك بين الحين والآخر يا حسنين ؟

حدجته بنظرة شك وريبة . قلت :

ـ أخاف انقراض الصعاليك . أخاف طرقة الباب . أخاف رنين الهاتف . أخاف نفسي . أخاف كواتم الصوت . أخاف التمائم والتعاويذ . أخاف الكمبيوتر .

قال العالم وهو يدور ليقف أمامي ويفرد خريطة :

ـ أنظر أستاذ حسنين . أنظر . هذه خريطة لمنطقتنا . أنظر الخرائط كلها لا تشير إلى وجود صحراء السراب . لكنها موجودة . أنا وأنت والإخوان نعرف أنها موجودة . ولكن أين ؟

قلت كالنائم الشارد :

ـ أين !

قال الخبير :

ـ أجهزتنا الإلكترونية الحديثة فشلت في رصد موقعها .

غمغمت :

ـ أجهزتكم وهم .

قال الحكيم بلهجة تنم عن وقار :

ـ هل نصحك فزاع بأن تحاصر الطبقات السحيقة من لا وعيك بعد أن صحوت من الغيبوبة ؟ هل حرضك على الانصراف عن الجانب اللاعقلاني الغيبي الخرافي من نفسك بعد أن عدت إلى وعيك ؟ هل دعاك إلى توظيف غيبوبتك الماضية لصالح سيطرة العقل تماماً على كل ما زرع في نفسك من قيم ومفاهيم منذ الطفولة ؟

هممت بالكلام ، ولكني أطبقت شفتي دون أن أنبس . استخرج الحكيم غليونه من جيبه ثم أشعله وراح ينفخ وينفث نفخات متلاحقة . أحسست برأسي مصدعاً ، وجفني مثقلين . قلت كأنما أكلم نفسي :

ـ إنما كنت بحاجة لأبطال . . و . .

قال الحكيم وهو ينفث دخان غليونه في وجهي :

ـ لكن أبطالك الذين صغتهم تمردوا على مشيئتك .

هززت رأسي . قلت :

ـ لم أسيطر على عالمهم .

قال العالم :

ـ وأين هو هذا العالم ؟

قلت كالذي يتكلم في المنام :

ـ نعم . أين . أين . أين .

قال الخبير :

ـ لا أدري أية مصادفة ربطت بين ما كتبت من خيالك وما جرى في الواقع .

قال الحكيم :

ـ هل تعتقد أنها رؤيا ؟

قال العالم :

ـ لا بـد من دراسة جمجمتـك ومقارنتهـا بجمجمـة من قبض عليه من شـذاذ عرب تلك الصحـراء اللعينة . كي نعـرف أن نـرسم حدوداً تفصل بين الواقع والوهم .

انتفضت كالمجنون على نحو مباغت . ورحت أصرخ :

ـ أنتم الوهم . أجهزتكم ، فنـادقكم ، مؤسساتكم ، هيـاكلكم ، إذاعاتكم ، انتصاراتكم ، جيوشكم ، مجالس شـوراكم . . وَهْم وَهْم وَهْمْ . ديكـور صـواريخكم ، ديكـور بـوارجكم ، ديكـــور وجـودكم . . ديكـور كيـانـاتكم . . وهم وقبض ريـح وبـاطــل الأباطيل .

كـانت عيناي تشعـان بومض سـاطـع مجنـون ، والـزبـد يتنـاثـر من فمي ، وشعـري مشعثـاً وذراعي تهبط وتـرتفـع وتنثني وتشـير . وسمعت صوتي يصرخ في الوجوه الذاهلة الخائفة :

ـ وهم وسـراب وباطـل الأباطيـل وجودكم ، علمكم ، ذاكـرتكم المزيفة تـاريخكم المزور . الـريح تـذهب إلى الجنوب وتـدور إلى الشمال . تذهب دائرة دوراناً وإلى مداراتها ترجـع الريـح . ما كـان فهو مـا يكون ، والـذي صنـع فهـو الـذي يصنـع . . . ألا تسمعـون همهمـة القبـائــل ، خشخشـة الأصوات الغـابـرة ؟ ألا تـرون كثبـان التكنـولـوجيـا ؟ هـوادج الكمبيوتر ؟ خطام الكهربـاء ؟ ألم تروا إلى الـذي إذا ظفر بـالعاصي أقـامه عـلى كرسي من صنع أحدث مصـانـع أوروبـا ، وسمـر كفيـه في الحـائط بمسمـار مستورد ، ونـزع الكرسي من تحتـه فيضطرب معلقـاً حتى يموت ؟

ألا تـرون إلى جعجعة مـا تحت السكينـة ، وجلبـة مـا تحت الصمت ؟ ألا تـرون إلى النـوم يتـلاشى من العيـون ، والقـلق يـدفـع النـاس إلى الاضـطراب ؟ ألا تسمعون أزيـز رياح نـوبات عـلى وشك العصف . إني أكاد أرى الوجوه مضرجة بدمائها ، والرؤوس محتزة .

حـين صمت أحسست بـذلـك السكـون العميق الـذي يشعـر بـه المائج المصروع بعد استفـاقته من صـرعه . تـداعيت على كنبـة ، ومشت رعـدة في جميـع أعضـائي . عشـرات العيـون تحـدق إلي في رعب . ثم توارت العيون والوجوه ولم يبق سوى الخبير ومختص في الكمبيوتر .

قـال خبير الـظواهر الخـارقـة للمختص في الكمبيـوتـر كـأن شيئـاً لم يكن :

ـ هيا . . شغله لنلقمه المعلومات المطلوبة .

اضطرب « الحاسوبي » وقال متلعثماً :

ـ لم أجد المفتاح . أعتقد أنه في أحد دواليبك .

قال الخبير باستياء :

ـ لا تقل لي انك أضعت المفتاح .

فتش الحاسوبي في جيبيه . ثم خلع حذاءه ونبشـه . ثم دس يديـه في جيب سترته الداخلي . نفخ وقال بصوت مضطرب :

ـ لم أجده .

انحنى الخبير على الحاسوب وقال بلهجة تنم عن قلق :

ـ لعـل المشكلة لا تكمن في المفتاح . أفحصـه من الداخـل ، لعل خللاً طارئاً قد حدث .

امتقع وجه الحاسوبي . وتصبب عرقه . قال :

ـ لا أعرف عن الحاسوب سوى طريقة تشغيله . لم يدربونا على إصلاح ما قد يطرأ من خلل داخلي .

أظلم وجه الخبير وصاح :

ـ تسليم مفتاح يعني .

قال الحاسوبي :

ـ لا لم أستلم المفتاح . أعتقد أن المشكلة ليست مشكلة مفتاح . ثمة خلل ما .

شد الخبير شعره غيظاً ثم غمغم :

ـ ما إلى هذا قصدت أيها الأحمق .

ضرب الخبير الجهاز بقدمه . . فإذا بالخلل يتلاشى .

في تلك اللحظة ، تناهت إلى مسعمي أصوات مزمجرة . ثم اهتزت الأرض من تحتنا كأنما ضربها زلزال عنيف . . ويبدأ البناء . . البناء كله . . يتقوض .

* * *

ليلة أخرى :

ـ اعلم يا عزيزي أن القوم عادوا إلى منازلهم يتعثرون بأذيال الخيبة .

ولكن قصة أخرى ، أكثر غموضاً وخطورة ، بدأت تنتقل على ألسنة الناس . إذ تحدثت الأعراب في الخفاء عن شبح تحت الدجى يعبر . ينهب النوم من الرؤوس والعيون ، ويسلب السكينة من النفوس ، ويزرع الأسئلة في العقول والحواس والغرائز .

يلم بـالنائم الحـالم فيهزه بقبضـة حديـدية ، فـإذا استيقظ الأعـرابي مروعاً مأخوذاً . صرخ الشبح في وجهه :

ــ إلى متى نبتلع السمــوم ، ونحن نــظن فيهـا الشفــاء ؟ إلى متى نستظل بشجرة قد تقلص عنها ظلها ؟

فإذا تفرس الأعرابي فيه بعينين فيهما ذعر وفيهما فضـول . عرف فيـه وجهاً محبباً مفجعاً . فهتف والرعدة تمشي في بدنه :

ــ ألم تمت يا مبارك ؟ إنا والله رأينا وجهك مضرجاً بدمائه .

فيقول الشبح :

ــ أنا آدم الأصلي . أنا آدم الأول .

ويرددها ثلاثاً . ثم يقول :

ــ أنا عود أخضر غار في الأرض وفني ، ثم ثار .

فإذا سأله الأعرابي :

ــ والجنرال ذيب الثاني الآدم ؟

أبرقت عينا « الحقيقي » وقال :

ــ قناعي المزور ، وقميصي المزيف .

فإذا ألح الأعرابي وسأل :

ــ وأين الدليل ؟

اتسعت عيناه ولاح فيهما برق خاطف وقال :

ــ ادخلوا الغرفة السابعة الحرام .

فإذا سأله :

ــ وما الغرفة السابعة الحرام ؟

قال :

ــ نحن فيها .

فإذا سأله الأعرابي اللجوج :

ــ ثم من ؟

قال :

ــ ثم أنا .

ــ ثم من ؟

قال :

ــ ثم أنا .

قال :

ــ ثم من ؟

ــ قال ثم أنا .

واختفى تاركاً خلفه أسئلة تنبض في الشرايين وتساؤلات كجراثيم القلق . تسوق النوم من عيني السائل ، وتزرع التوتر في أعصابه .

ولم يدع هذا الشبح كهفاً إلا واختلف عليه فزرع التساؤل والشك . ولم يترك بيتاً إلا وألم بأهله في الليالي المدلهمة . ولم ير ينبوعاً إلا وسكب القلق فيه . فإذا شرب الناس ، اشتعلت جذوة الشك ، في نفوسهم ، بما يحيط بهم من حقائق . وقالوا :

ــ إننا لفي شك مما يحيطنا من مسلمات مريب .

وقالوا :

ـــ نحس أننا لا نطمئن إلى البديهيات التي كنا نسلم بها .

وقالوا :

ـــ ولا نثق بصدق ما ترصده حواسنا .

وقالوا :

ـــ نريد أن ندخل القصر ، ونتفحص الغرفة السابعة الحرام .

وترامت أنباء قلق الأعراب إلى الجنرال ذيب الثاني . فدلق لسانه وأرغى وأزبد . وأرسل في طلب كولومبوس . فأفضى إليه بهواجسه ، وقام في نفسه أن كولومبوس لا يعلم بما يجري في الشارع . ودخل في روعه أن الخبراء الأجانب لم يتلمسوا هذا القلق المتعاظم ، وهذا التوتر المتنامي .

أطرق كولومبوس وصمت وكأن خاطراً طرأ عليه واستحوذ على تفكيره . وكان صدر الجنرال يعلو ويهبط ، ويكاد صبره أن ينفد . ولما رفع كولومبس رأسه، فطن الجنرال ذيب الثاني لما يجول في خاطره. فاقشعر بدنه ، وامتقع لونه ، وطار صوابه ، واشتد عليه البأس فعقد لسانه عن القول برهة .

قال كولومبوس بصوت وقور محايد :

ـــ إنهم ينتظرون في الخارج .

ارتجف الجنرال ذيب الثاني ، وأحس بنفسه ضئيلاً هشاً مجهداً . انهار على كنبة من العاج الخالص ، مجللة بالدمقس والحرير . ودفن وجهه بين يديه ، وهو يشعر بتلك الرهبة التي تغمر وليداً خرج لتوه من رحم أمه إلى عالم لا يفهمه ، ولا يتبينه . ثم إنه رفع رأسه وقال :

ـــ من ؟

قال كولومبوس وقد طأطأ رأسه ، وأشاح :

ــ ذيب الـــرابـع . . والفــرقـة الأولى ، واللواء الثـــاني ، والكتيبـة الثالثة .

ثم انقلب كولومبوس على عقبيه وخرج .

استل الجنرال ذيب الثاني مسدسه . ومـا خرج كـولومبـوس وأوصد الباب خلفه حتى سمع صوت دوي رصاصة .

حـين عاد ومعـه كبار الضبـاط وسبعة ذيـاب ـ بينهم ذيب الـرابـع ـ وجـدوا الجنرال ذيب الثـاني ينزف بغـزارة ، وقد وضـع يده عـلى فخذه ، ومال جسده إلى اليسار قليلاً .

وظهر الجنرال ذيب الرابع على شاشات التلفزيـون في مؤتمر صحفي حضره مندوب وكالة الأنباء المحلية فقط .

فحمـل الجنرال الخـائن الفاسـد (ذيب الثـاني) مسؤوليـة الفـوضى والجـرائم . ووعـد بـإجـراء انتخـابـات عـامـة ، وتشكيـل لجنـة خبـــراء لاستقصاء وفحص ظاهرة الغاز المـزعومـة . وطالب الأشبـاح والصعاليـك وشذاذ العرب بالخروج من مكـامنهم وتشكيل جبهـة وطنية ديمـوقراطيـة . وأعلن العفو العام الشامل .

وحين انتهى من قراءة بيـانه سمـح لمندوب وكـالة الأنبـاء المحلية ، بأربعة أسئلة فقط ـ لضيق الوقت ـ .

أخـرج الشاب النحيـل ورقة رسميـة من جيبه وسـأل أسئلة ثـلاثـة تلعثم في قـراءتهـا ، إذ أنـه لم يتـدرب عـلى إلقـائهـا قبـل حضـــور المؤتمـر ـ لضيق الوقت ـ .

سؤال :

ـ تكمن قوة دولتنا السرابية في سريتها . فالعالم الخارجي المعادي يجهلها . والخرائط لا تشير إليها . . السؤال هو : إذا اكتشف العالم ، دولتنا ـ نتيجة لعدم اقتصار الأقمار الصناعية على الولايات المتحدة الصديقة ـ فكيف نواجه هذا الخطر ؟

جواب السيد الجنرال ذيب الرابع (يقرأه من ورقة مكتوبة) :

ـ احتج على صياغة هذا السؤال . فهو ركيك اللغة ، لا بديع فيه ولا أثر لصناعة . وأنا جنرال مثقف مولع بالغريب ، كلف بالبديع . على الرغم من الاعتقاد الشائع السائد من أن الجنرالات ، وخصوصاً « الذياب » منهم لا حظ لهم من اللغة إلا العي والحصر ، وطي اللسان على معانٍ في قلوبهم لا يتسنى لهم إبرازها بالنطق . ولا يجدون سبيلاً إلى تمثيلها باللفظ . كأن المقاطع التي أعبر بها عن المشخصات لم يخلق لها موضع بين فكي . وهذا اتهام باطل ، إذ اننا ، أي أنني ، ذياب الحقيقي الأصلي . أي أنني آدم الأول الواحد الأحد ، الذي جاء هذه الصحراء ، فلم يجد فيها سوى ظلام متصل ، وصمت مطبق ، وخواء موحش ، وكل الكائنات ساكنة ، وكل الآفاق مقفرة مقبضة . لم يكن قبلي إنسان ، ولا نضال ، ولا حركات ، ولا سكنات . أنا آدم الأول الأصلي الحقيقي . . . في البدء كان الجنرال آدم . قبله لا شيء سوى الثبات والعدم . لم يكن وجه الدولة قد ظهر ، لا . . ولا وجه الأرض ، وكانت بحيرات السراب مجرد سراب غير حقيقي . إلى أن بزغ ضيائي ، وانتشر نوري على مسرح التاريخ . لم يكن قبلي حركات ولا مؤسسات ولا هياكل . ولا زراعة ولا تقسيم عمل ولا كتابة ولا أحذية ولا قبعات ولا ربطات عنق . الصعاليك قبلي مجرد سراب كاذب لم يكن . وعروة المزعوم وهماً كان وقبض ريح ، والعُصب قبل العصبة التي أسستها كانت أضغاث أحلام لا وجود لها على أرض الواقع الصلبة . أنا الرائد ، أنا المؤسس ، أنا الأول أبو البداية والنهاية وجدكم جميعاً .

سأمحو عشتروت من ذاكرتكم ، سأمحو توت عنخ أمون ، سأمحو سبرتاكوس وزرقاء اليمامة وثورة الزنج وحمورابي وتبع وقحطان وعدنان وطسم وجديس وجرهم والعماليق وعوج بن عناق ومأرب وعام الفيل والبسوس وزليخة وزنوبياء وعمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد والمأمون وعبد الملك بن مروان وعبد الخالق محجوب وعبد الناصر وحتى عبد القوي مكاوي وعبد الله السلال وعبد المطلب وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ . لأن كل ما كان قبلي أو بعدي وهم وخرافة مثل بحيرات السراب هذه . ولن يكون قبلي أو بعدي أحد أو رمز أو أسطورة . . لأنني خالد عصي على الزمن . لأنني بداية التاريخ ونهايته . . . . تفضل إسأل السؤال الثاني .

امتقع وجه مندوب وكالة الأنباء المحلية ، وبدت عليه أمارات الحيرة والارتباك . قال بصوت متحشرج :

ــ ولكن . . هذا جواب السؤال الثاني يا مولاي .

اضطرب الجنرال ذيب الرابع الذي بات لقبه « آدم الأصلي » . ففرد أوراقه ، وتنحنح ، ثم تماسك ، وقال وهو يداري حرجه بابتسامة باهتة بعد أن عثر على الجواب الصحيح :

ــ نعم . نعم . جوابي على سؤالك الأول هو أننا نملك من الصواريخ العابرة للقارات ما يكفي لردع كل من تسول له نفسه أن . . . لدينا صاروخ اسمه « الماهر » . . وهو فعال مدمر مثل « الظافر » الذي أثبت فعاليته في معارك أشقائنا العرب مع عدوهم الصهيوني . ولدينا « القاصر » وهو أكثر تطوراً من « القاهر » . ولدينا مفاعلات نووية ، وقنابل ذرية ، وغاز مسيل للدموع ، وهراوات ، وخوذ . لدينا كل الاستعدادات اللازمة لمواجهة أي أزمة . ولدينا أيضاً وأيضاً معاهدة دفاع مشترك مع صديقتنا الولايات المتحدة . ولكن لدينا

فوق هذا وذاك ، وبعد الاتكال على الله ، أسلحة ثلاثة يكمن فيها سر قوتنا الحقيقية :

أولاً : الإنسان الجديد الآمن المطمئن . الذي وجدته عارياً فكسوته ، جائعاً فأطعمته ، ضائعاً بلا هوية ، فأوجدت له عصبة ودولة ينتمي إليهما .

ثانياً : سرية موقع دولتنا . فدولتنا الصحراوية السرابية ، مجهولة سرية غير مكتشفة . مما يبعدنا عن طمع الطامعين .

ثالثاً : الاستقرار . فبعد أن أطحت بذيب الأول ، المجرم الذي زور اسمي ، ووضع وجهي قناعاً ، ولبس جسدي قميصاً . . انتهت الشرور ، وانطوت سلبيات الأمور ، واختفت حتى مشاكل المرور .

السؤال الرابع :

ــ هل تحب أن توجه كلمة إلى الجمهور الكريم ؟

جواب :

ــ نعم . سيكون أسلوب حكمي شديد الاختلاف عن أسلوب سلفي المجرم الذي يشبهني كثيراً . فأنا سأدعم التقدم العلمي ، والفكر العلمي النير . وسأهدم الجدران بيني وبين الناس . سأتبسط معهم وأحكي لهم كأي مواطن عادي بسيط عما أحب وأكره . فأنا مثلاً أحب النساء والفاصوليا الخضراء وزيارة قبور الأولياء . وأكره أن أرى حذاء مقلوباً في الشوارع ، أو رغيفاً ـ والرغيف نعمة من الله ـ على الأرض . وعلى كل من يرى رغيفاً على الأرض أن ينثني ويتناوله ثم يقبله ، ويضعه على جبينه ، ثم يرفعه ويضعه على جدار أو شيء مرتفع إن لم يكن جائعاً فيأكله .

وأحب أيضاً أغاني فريد الأطرش ، وأكره التشكيك في مناعتنا .

فكما قلت سابقاً : لقد انتهت الشرور ، وانطوت سلبيات الأمور ، واختفت مشاكل المرور . فما وقف المندوب كي يقول :

ـ إذن باسمي وباسم الشعب أود أن أعبر لسيادتكم عن بالغ السرور .

حتى وقع المحذور ، وانكشف المحظور .

فقد أغارت طائرات مجهولة الهوية على مدينة المرايا . وقصفت مبنى الأمن العام ، والإذاعة والتلفزيون . فقوضت المبنى وأخفت رسومه ومحت أعلامه .

ولم تعثر فرق الإنقاذ على أثر للجنرال ذيب الرابع أبداً . ولكن الذياب لا تفاجئهم مفاجأة ، ولا يربكهم قضاء الأقدار . إذ سرعان ما بادر المستر كريستوفر كولومبوس أو « كولومبوس كريستوفر » ، وانتزع ذيب الخامس من حجر زوجته . وأمره أن يرقد بين الركام . ثم يقوم ناهضاً منتصباً من بين الأنقاض ككائن أسطوري خرافي ، مدعياً أنه ذيب الرابع نفسه . وهذا ما كان فعلاً . إذ ما اندفعت الأعراب وراء ذهولها لترى ماذا حل بالمبنى ، وماذا جرى للجنرال ذيب الرابع ، بعد أن أغارت عليه الأقدار ، حتى نهض الجنرال ذيب الآخر ، بلباس نومه وهو يبتسم ابتسامة الواثق . فصعق الناس ، وذهلوا ، وأجفلوا كأنهم يبصرون أمامهم جنياً خارقاً . ولم يكد ذيب الجديد يظهر حتى اجتمع الناس حوله وهم يحسبونه ذيب القديم . فلم تكن العيون تشبع من النظر إليه ، ولم تكن الأفواه تكف عن الحديث عن هذه المعجزة .

حينئذٍ صدقوا كلامه ، وتبينوا فضلهِ ، وتيقنوا من بركته ، وأدركوا سر منعته وحصانته وخلوده .

لكن ذلك الشبح العابر تحت الدجى . وتلك الأصوات المنبعثة في ثنايا الليل لم تنقطع . وإنما واصل الشبح غزوه لأحلام النائمين . ونهب

وسلب سكينتهم ، وزرع القلق والتساؤل في نفوسهم .

وعاد ذيب الخامس ليكرر ما قاله ـ المرحوم سراً ـ من دعوته للصعاليك وشذاذ العرب ، إلى الخروج من مكامنهم ، والانبثاق من أوكارهم ، والهبوط من كهوفهم المنيعة في الجبال ، للتفاوض حول إقامة جبهة وطنية ديموقراطية .

وهنا حدث أمر عجيب ، وحال غريب . إذ اجتمع زعيم الصعاليك بعصبته في أحد الكهوف المنيعة . وشرعوا يقلبون الرأي . فعلت الأصوات ، واضطربت المذاهب ، واشتجرت الآراء . فإذا بالزعيم (يقال إن اسمه حسنين) ينفصم إلى اثنين . حسن الأول مع تلبية الدعوة ، وإقامة الجبهة . وحسن الثاني يرى في الدعوة كميناً ، وفي تلبيتها انتحاراً وكشفاً للتنظيم السري . وقال محتداً :

ــ كأنكم تقدمون له رؤوسكم على طبق من الفضة .

ثم انتهى الجميع إلى رأي لعله يحسم الداء ، ويدفع البلاء : أن يلحق من شاء من الصعاليك بحسن الأول ، وأن يبقى المتشيعون لرأي حسن الثاني في المكامن والكهوف .

وهكذا كان .

خرج حسن الثاني ، وخرج وراءه أنصاره في عماية الصبح ، وانحدروا بجموعهم إلى مدينة المرايا ، كماينحدر السيل إلى الحَدُور . فاستقبلهم ذيب الرابع أمام قصره باسم الثغر متطلق الوجه . ودخل معهم إلى قصره . فإذا بهم في قاعة أشبه ما تكون بطبق هائل من الفضة الخالصة . فخفق قلب حسن الثاني ورجاله العزل . وما راعهم إلا جند ذيب الرابع وقد خرجوا من مكامن دهاليز القصر ، وظهروا عليهم فجأة من وراء أروقته ومضايقه ، تومض سيوفهم ، وتبرق عيونهم . فانكفأ شذاذ العرب العزل منهزمين ، وتراجعوا متقهقرين ،

يخور عودهم ، وتنخب قلوبهم .

لكن قوة أخرى من جند ذيب الرابع كانت بانتظارهم ، فسددت بنادقها وأطلقت .

وحسب ذيب الرابع أن جذوة حسنين قد خمدت ، وحركته قد سكنت . وغاب عنه أن حسن الأول قد ظل مستمسكاً بعصيانه ، كامناً في أوكاره التحتية .

وما سمع ذيب الرابع بغارة خاطفة أخرى قام بها الصعاليك وعلى رأسهم حسنين . حتى صاح بكولومبوس :

ـ هل رأيت عرقاً كلما سكن نبض ؟ وهل رأيت ناراً كلما أطفئت اشتعلت ؟

فغمغم كولومبوس بانقباض :

ـ نعم رأيت . آدم الحقيقي . . أي حسنين .

وعندما تفاقم وباء القلق والأرق ، وعاد الناس يتذمرون علناً . أشار كولومبوس على ذيب الرابع بضرورة استدعاء أطباء نفسانيين وعلماء اجتماع من واشنطن . فوافق هذا من فوره .

وذاعت بين الناس إشاعة مفادها أن الغارة الجوية لم تكن غارة من غارات الأقدار كما قالت وكالة الأنباء المحلية . ولا هزة أرضية كما صرح المذيع . وإنما هي غارة طائرات حربية إسرائيلية . وتساءل القوم :

ـ ولكن هذا غير معقول . إسرائيل دولة مزعومة . سرابية . وهمية . مصطنعة . هكذا درسنا في المدارس . فكيف يكون لها طائرات ؟

وقال قائل :

ـ وكيف يمكن لهـا أن تكتشف وجـود دولتنـا . . ونحن نعيش في صحـراء مجهولـة ، هي المعجـزة الثـامنـة التي لم يكتشفهـا سـوى كولومبوس ؟

وقال آخر :

ـ ماذا لو كانت الغارة محاولة انقلاب قام بها ضابط طيار صغير ؟

وقال ثالث :

ـ أو الكولونيل ذيب السادس ؟

وقال الرابع :

ـ أو ذيب السابع ؟

وقال خامس :

ـ ولكن أين كانت راداراتنا الدقيقة المعقدة ؟

ـ وطائرات الأواكس ؟

ـ و « الماهر و « القاصر » ؟

وهتف رجل تزعزعت أركانه فلم يتمالك نفسه :

ـ نحن إذن قابلونُ للضعف والهزيمة .

وهتف آخر بدهشة وذهول :

ـ معرضون لزلزال . لا ملجأ لنا ولا عاصم .

ـ وماذا عن جيوشنا الضاربة ؟

ـ وأسلحتنا الفتاكة ؟

قال مشاغب متعاطف مع الصعاليك :

ـ لعل صواريخنا ليست سوى وهم وسراب مثل كل شيء في هذه المدينة .

قال آخر :

ـ مثل أحذيتنا التي لا تقينا لذع سعير الرمال .

قال ثالث :

ـ مثل ملابسنا التي لا ترد برداً ، ولا تستر عورة .

قال رابع :

ـ مثل قبعاتنا المضحكة التي لا تقينا لهب الشمس .

قال خامس :

ـ مثل هواتفنا .

قال سادس :

ـ مثل سياراتنا .

سابع :

ـ مثل وجودنا .

ثامن :

ـ مثل مجلس شورانا .

تاسع :

ـ مثل مدارسنا وعصبتنا وبيوتنا وطعامنا وأحلامنا وكهربائنا ومياهنا ومسارحنا ونقاباتنا وكتب تاريخنا .

بثت عيون ذيب الرابع ما رصدته حواسها في تقارير . ونقلت إليه

ما يجري من نقاش وتساؤلات بين الناس .

صمت صمتاً طويلاً لا تطرف له فيه عين ، ولا تبعث له جارحة . ثم انتفض وصاح بلهجة صارمة :

ـ اتركوني وشأني . الكآبة تهدني ، والانقباض يخنقني .

ثم إنه طردهم جميعاً . وأوصد الباب ، ليختلي بنفسه .

تسامع بقية « الذياب » بانهيار ذيب الرابع ، فسال لعاب شهوتهم إلى السلطة كما يتحلب ريق الجائع النهم إذا تطايرت إلى أنفه رائحة الشواء . وتنادوا ليديروا الرأي .

* * *

إعلم يا عزيزي أن مجموعة من الصعاليك عزموا على أن يتسللوا إلى معسكر الفرقة الأولى ليستولوا على الصواريخ العابرة للقارات ، والأجهزة الحربية الفتاكة المتطورة . فتهيأوا ، ودخلوا في دروع من حلقات لا تنال منها شفرات السيوف ، ولا طعنات الرماح ، ولا رصاص البنادق الرشاشة . فلما جنهم الليل ، وانقطعت أصوات البشر والآلات ، خرجوا من أوكارهم ومكامنهم ينسابون كالثعابين ، وينسلون كالأطياف . وشرعوا يمضون من نفق إلى نفق ، ومن سرداب إلى سرداب من سراديب مناجم السراب حتى بلغوا المعسكر المقصود ، والهدف المنشود .

وكانت تحيط به قلعة ضخمة ، عالية البنيان ، مشيدة الأركان .

تسوروا القلعة ودخلوا إلى قلب المعسكر . فكم كانت دهشتهم عظيمة حين أبصروا بوارج حربية ذات رادارات ، وحاملات طائرات ضخمة لا طائرات على سطحها . ولم يقع بصرهم على صاروخ أو مفاعل نووي . وجدوا أنفسهم معقولي الألسن ، لا يملكون أن ينبسوا . ثم قال

أحدهم بعد أن انتزع نفسه من طغيان الذهول :

ــ بوارج وسفن وطرادات وخفر سواحل . . في صحراء بلقع ؟

وقال رجل منهم هامساً :

ــ وأين الجند والحرس ؟

وقال ثالث :

ــ أهذي هي الأسلحة الفتاكة ، والأجهزة المتطورة التي يتحدثون عنها ؟

ولمح الصعاليك رجلاً يمضي في الظلام ، ويضرب برجليه في أرض المعسكر . أومأ أحد زعمائهم لرجاله . فأخذوا الرجل على غرة ، ونالوا منه على غفلة . التاث عليه ، واصطكت ركبتاه ، وجرت من عينيه دموع سخينة حارة . طمأنه حسن الثاني وسأله :

ــ أين الأسلحة المتطورة ؟ والصواريخ المدمرة ؟ والقنابل الذرية الفتاكة المخربة ؟

امتقع وجه الرجل وقال بصوت مختنق :

ــ انكم تبعدون في الوهم ، وتسرفون في الظن . فصواريخنا هي تلك المآذن المرتفعة ، وقاعدة راجماتنا ليست سوى عمارة كرتونية فيها من الديكور ما يفترض أن يوهم العدو ـ إن وجد ـ بأنها قاعدة راجمات هيدروجينية .

ظهرت البغتة في وجوه الصعاليك ، وسألوه :

ــ وما تفعل هذه السفن الحربية في صحراء بلقع ؟

امتلأ فمه بالضحك وقال :

ـ هـذه أسلحتنا الفتاكة التي يتكلمون عليها . طلبنا من كولومبوس أسلحة فتاكة ـ تسليم مفتاح ـ فحملت لنا طائرات النقل الحربية الأمريكية الجبارة هذه السفن . وظلت في « كراتينها » العملاقة سنين عدداً لا نعرف ماذا تحتوي ، وماذا تخفي .

علا وجوه الصعاليك وجوم ، وغشيتهم حيرة وسكون . ثم إن زعيمهم (ولعله حسن الأول) سأل الشاويش :

ـ وأين الحرس والجند ؟

أطلق الشاويش ضحكة مجلجلة وقال :

ـ لا حرس ولا جند . الحرس والجند يحرسون القصر الجمهوري . أما هذه القلعة وهذه المستودعات فأنا بوابها . ولكن كيف تسللتم إليها ؟

وسأله سائل :

ـ ولكن ما نفع هذه السفن في صحرائنا التي لا بحار فيها ولا أنهار ؟

قال الشاويش وهو يهز منكبيه ويقلب شفته السفلى :

ـ ألم تسمعوا بسفن الصحراء ؟ الناس تطوروا فاستبدلوا الجمال بسفن حقيقية .

صرخ حسن الأول وقد اتقدت عيناه غضباً :

ـ سفن حقيقية ؟ هذه السفن كذبة ، وهم ، سراب ، لا تصلح لشيء في هذه الصحراء اليباب .

عارضه الشاويش قائلاً وهو يتثاءب ببلادة :

ــ بل تستخدم راداراتها الخاصة في التنصت على البيوت ، وما يجري فيها من أقاويل وأحاديث . فهي تتسقط الأسرار ، وتعرف الأخبار .

التفت الصعاليك إلى حسن الأول ، يلتمسون رأياً يمزق ظلمات الإشكال . فاقتدح حسن الأول زناد عقله . وسأل الشاويش :

ــ وما هي الأسلحة المتوفرة لديكم ؟

قال الشاويش :

ــ هراوات . وقنابل مسيلة للدموع .

فأطرق حسن الأول طويلاً . ثم إنه رفع رأسه وقال :

ــ نقضي الليل هنا ، ونتحرك في عماية الصبح صوب القصر الجمهوري وشركة كولومبوس . فنأخذهم على غرة ، ونفجأهم على غير اهبة منهم لنضال . فاشحذوا عزمكم ، وخذوا أهبتكم للإغارة .

فتهللت وجوه الصعاليك . وصادف قرار حسن الأول رغبة في نفوسهم ، وهوى في أفئدتهم .

ولكن ، في تلك الليلة بالذات جرى ما لم يكن في الحسبان . إذ أعلنت حالة انهيار ذيب الرابع واكتئابه في كل كهف وبيت . وتنوقلت ذكراها في كل جبل وواد . فتنادى من تبقى من الذياب ـ وعددهم تسعه بالتمام والكمال ـ ولبسوا جلود الذئاب وجعلوا يديرون الرأي بينهم . فاشتجرت الآراء ، وتنازعت الأهواء .

وقف ذيب السادس وقال :

ــ قد جاء دوري الآن في الحلول محل هذا العاجز المريض .

ووقف ذيب الثامن وقال :

ـ كفوا عن لجاجكم ، والله لا ينفذ قرار إلا بموافقة كولومبوس .

وقال ذيب الثامن مؤيداً :

ـ نعم . لنذهب إلى كولومبوس نلتمس رأيه . فإنه والله أشرف الأمريكان نسباً ، وأبعدهم محتداً ، وأكرمهم أرومة ونجاراً . وهو من صميمنا ، ويعرف دخائلنا ، ويفطن إلى أمورنا .

وافق هذا الرأي هوى عند « الذياب » ، فخرجوا من فورهم إلى مكاتب الشركة . فوجدوا كولومبوس كريستوفر في هالة من صَحبه ومستشاريه . فأجلسه « الذياب » على عرش قلوبهم ، وأحاطوه بسياج من نفوسهم ، ما أَمَرَ بأمر إلا إبتدروا إليه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم ، وإذا نظر غضوا من أطرافهم ، وقد وقرت مهابته في الصدور ، وارتفعت منزلته في العيون .

كان كولومبوس منقبضاً مكتئباً ، قد بلغه نبأ بعث في نفسه قنوطاً ليس وراءه رجاء . ظل ممسكاً في كلماته وإشارته . حتى سأله سائل :

ـ فيم اضطرابك ؟

فحلت عقدة لسانه وقال بصوت ينم عن غضب كظيم :

ـ وصلتني رسائل من تلك الدول النامية التي نصدر لها بضائعنا . آلاف الرسائل تشكو نوعية السلع . تقول كاكاوكم يشبه الكاكاو ، له رائحته ومذاقه . . لكن ليس كاكاواً . وبنكم يشبه البن ، له رائحته ومذاقه لكنه ليس بناً . حفاراتكم لا تحفر ، قطع غياركم لا تنفع ولا تضر ، أجهزتكم أدواتكم آلياتكم إلخ إلخ إلخ . . التي استوردناها منكم صماء بكماء لا تزول ولا تميل ولا تفعل . طائراتكم تزحف ولا تطير . مصانعكم ترسل دخاناً ولا تنتج .

وهنا انتفض المستر كولومبوس كريستوفر ، وراح يذرع غرفة مكتبه بخطى عصبية متلاحقة . قال :

ـ ونحن ما ذنبنا ؟ هل نحن مسؤولون عن تخلفهم ؟

فعلق قائل غبي :

ـ ولكنك تعلم يا كولومبوس أن بضاعتنا سراب .

التفت كولومبوس إليه ورمقه بنظرة حارقة . قال :

ـ اسمي مستر كريستوفر . ولكن من أين حصلوا على عنواننا وهو العنوان السري المجهول الخفي ؟ لا بد وأن يكون هذا المعتوه ذيب الرابع قد أرسل لهم شيئاً بهذا الخصوص . لعله كشف موقع الصحراء .

قال أحد الذياب :

ـ لكن حركاته وسكناته وأنفاسه مراقبة .

ضرب كولومبوس قدمه في الأرض . وصاح :

ـ إذن لا بد وأن يكون حسنين هو الذي كشف سرنا .

ـ لكنه معتقل عندنا .

أطرق كولومبوس قليلاً ثم قال وقد زوى وجهه كأنه قطع القول وحسم الجدل :

ـ ينبغي أن نتخلص من ذيب الرابع . بقاؤه مع مرضه سوف يتيح للصعاليك فرصة تحريض عمال مناجم السراب . . و . . . .

ثم التفت إلى الكولونيل ذيب السادس وقال :

ـ ستحل أنت محله .

انتفض ذيب الثامن وصاح مغضباً وقد انتفخت أوداجه :

ـ إن في نصحك يا كولومبوس لريق الحيَّة وسم الأساود . إن لي في قبائل الاقليم الشرقي من صحرائنا رياسة ، وفي عشائر الاقليم الغربي نسباً . فأنا أجري على عرق في أنسابها . والله إن هذا الأمر قد شق الصفوف ، وزلزل الشمل ، ولا أدري أشر آخره أم أوله ؟

ثم إنه خرج من غرفة كولومبوس يرعد ويزبد . فهرع كل ذيب إلى عصبة زوجته وقبيلتها . فما زالوا يحرضون حتى تداعت كل عصبية لتنصر ذيباً من الذياب ، تدفعها نخوة النسب ، وحمية المصاهرة .

ما إن أشرق الصباح حتى توافدت القبائل إلى المدينة . وماجت الصحراء بالمقاتلين والغزاة .

ورنا الصعاليك ، من وراء أسوار القلعة الأولى ، فإذا بالقبائل المتحاربة ملء السمع والبصر ، والسهل والجبل . وأعراب مدججون بالسلاح يسيرون إلى المدينة من كل الجهات يتعاقبون في الإبل . فكأنما هبت القبائل النائية من رقدة ، أو ظهرت بعد غيبة .

قال حسن الأول بأسى :

ـ حفرنا نهراً بأيدينا ، فجاء غيرنا فأجرى فيه الماء .

ووقفت النساء بعيداً يتوقعن مذبحة . ثم إنهن نشرن شعورهن ، وقطعن عقودهن ، وضربن صدورهن .

ودنا الرجال من ساحة المدينة أفواجاً . فشدوا العمائم ، وعلقوا على الصدور التمائم . بينما هرع الصعاليك وشذاذ العرب إلى المناجم وتسللوا إلى دهاليزها فرحب بهم العمال . والتحمت القبائل وعلى رأس

كـل عصبية ذيب من « الـذياب » المتصـارعـين . فشخبت الأوداج دمـاً ، واحتزت الرؤوس فتدحرجت بـين القوائم ، واختلطت الخيـل ، وقدحت حوافرهـا الأرض فتطايـر الشرر ، وتعـاظم الضرر . وارتفعت في الفضـاء أعمــدة الغبـار فحجبت المتقـاتلين عن الأبصـار . واختلطت الــركـائب بالرحال ، والشيوخ بـالأقيال ، والفـرسان بـالأغفال ، والعلماء بـالجهال ، حتى بـاتت هذه المعـركة مضـرب الأمثـال . فكـأنها الجنـون في احتفـال . وكـأن أهل الصحـراء يكافحـون في سبيل الانقـراض والـزوال . وكـأنهم يرغبون في الانصراف عن هذه الدنيا والارتحال .

ثم تـدخلت الفـرقـة الأولى ، وكـانت ذات ولاء لـذيب السـادس بـاعتباره أميـرها وقـائدهـا . فراحت تـطلق القذائف عشـوائياً ، وتـرسـل الجحيم لـولبياً . فـما صادفت قـذائفها منـزلاً إلا وقـوضتـه ، ولا دربـاً إلا ومحت رسومه ، ولا قصراً إلا محت أعلامه .

وأشار كولومبوس على ذيب السادس بوقف هذا القصف العشـوائي المجنون . لكن ذيب السادس ركب رأسـه ، وركب (الذيـاب) صهوات جيادهم . وهكذا طحنت طاحونة الحرب الأهلية المجنونة كل الناس .

أنـا كنت ـ في المنـاجم مـع الصعـاليـك وشـذاذ العـرب . المنـاجم قصفت وقيـل آنـذاك ان العمـال والصعـاليـك وئـدوا تحت ركـام المنـاجم المنهارة . وانهم تحولوا إلى أشباح .

ولكن هـذه الحكـايـة ليست سـوى وهم خـرافي . فعنـدمـا بـدأت القـذائف تنهال علينـا ، تسللنا إلى أنفـاق المنـاجم . وهي أنفـاق سحيقـة تحت الأرض .

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

نهـــار

انتفضت في فـراشي حين صفـع رنين سـاعة منبـه أذني بيد خفيـة . انتبهت كـالمخـطوف وتلفت بحثـاً عن المنبه ، فلم أعـثر لـه عـلى أثـر . وخمنت أن الرنين المتصـل ، الذي انقـطع ما إن فتحت عيني ، قـد انطلق من داخلي .

وانـزلقت من السريـر ، وسعيت إلى سترتي ، فـاستخـرجت علبـة سجـائـري . أشعلت سيجـارة . ودارت عينـاي في الغــرفـة بحثــاً عن شهـرزاد ، فلم أعثر لهـا عـلى أثـر . ورحت أشم غـطاء السـريـر ، مثـل الكلاب المدربة ، بحثاً عن أثـر يؤكد حضـورها الليـلي ، فشممت رائحة نـوم عميق . أدركت أن هذه الـرائحة رائحتي . نفثت دخـان سيجارتي ، فتساءلت إن كانت شهرزاد مجرد وهم وسراب وحلم .

تعثر بصري بجهـاز الهاتف ، فعنَّ لي أن أتصـل بفزاع ، عله يفسر لي هذه الأحاجي والألغـاز التي تتأبى عـلى فهمي . وحين رفعت السمـاعة أدركت أن الهـاتف جثـة هـامـدة لا حـرارة فيـه . سعيت إلى الحمــام ، وفتحت صنبـور المياه السـاخن ، الذي تميـزه إشـارة حمـراء . فسـال خيط سـاخن من الماء ، وتصـاعد بخـاره إلى أنفي . وعندمـا فـردت كفي تحت المـاء ورفعتهما إلى وجهي ، مشت في بـدني قشعريـرة بـرد قـارص . كـأن الميـــاه تنحـدر من القــطب الجليـدي . وأدركت أن ثمــة تضـاربــاً بـين ما تلتقطه حـواسي من إشارات . ومضيت أغسـل وجهي غير آبـه ، ولكن هـذه المياه لم تـطرد بقايـا النـوم من رأسي . زججت رأسي كله تحت خيط الماء . . فبللني نعاس ملح .

دخلت في مـلابسي ، وخـرجت من الغـرفـة . رأيت الممـرات مقفــرة ، دهمني إحسـاس غــامض بـالاختنــاق . اكتشفت أن المصعــد معطل ، فدخنت سيجارة .

عرق غزير ينز من جبيني ، ويهرول على وجهي مثل أنهار صغيرة تركض باحثة عن مصبات لا وجود لها . رفعت رأسي ، وحدقت إلى أجهزة التبريد ، وكان رماد سيجارتي قد استطال ولم أنفضه . لاحظت شريطاً حريرياً يتدلى فوق كل جهاز من أجهزة التبريد ، وكانت كلها تخفق كالبيارق . والأجهزة نفسها تزمجر ، وكأنها تعمل بلا عيب ولا خلل . رفعت ذراعي وتطاولت واقفاً على رؤوس أصابعي ، فلم أحس بالهواء .

وخمنت أن وجهي شاحب . فانفتلت وهبطت الدرج ، وكالعادة شعرت أنني تائه في هذه البناية الشبيهة بالمتاهة . ولاحظت أن رماد سيجارتي تساقط على أرض مفروشة بالموكييت . كان عرقي يتساقط على عيني . دسست يدي بحثاً عن منديل ورقي ، وسرعان ما استخرجت يدي خائباً . فلم أجفف عرقي .

ومشيت في دهاليز وممرات مقفرة تكتنفها الغرف من يمين ومن شمال . وانعطفت في أحد الدهاليز فرأيت رجلاً يتمشى في الممر كأنه يتمشى في حديقة غناء . ولاحظت أنه يرتدي منامته . وقلت في نفسي « هذا عيب » . ثم أشعلت سيجارة ودنوت منه . فنظر إلي وابتسم ابتسامة مبهمة . ورأيت في عينيه رعباً . ثم مال نحو أذني بحركة مفاجئة وقال وهو يلهث انهم لا يزالون يطاردونه ، وانه الآن يلبس طاقية الاخفاء . وانه لا يستطيع أن ينام مع زوجته لأن الكاميرات الخفية تصور كل شيء في الظلام أيضاً . وصرح لي أن أجهزة التصوير الخفية المتطورة هذه مزروعة في كل الغرف والكهوف وبيوت الشعر . وقال ان الجنس البشري سوف ينقرض ، لأن الإنسان منذ آدم وحواء يتميز بالحياء . وانه لا يستطيع ممارسة الحب وهو يشعر بأن أجهزة التصوير الخفية تلتقط الصور في غرف النوم . عداك عن أجهزة التنصت الخفية . وأنه كان يظن أن أجهزة التصوير هذه عاجزة عن التصوير في الظلام .

وانـه اكتشف فيها بعـد أنها غـير عـاجـزة . فـأصـابـه عجـز عضــوي . وانفصلت عنـه زوجتـه . وانـه طلقهـا لأنها تـظن بعقله الـظنــون . وانها تزوجت من ممرض في هذا المبنى . وقال ان الممرض أيضاً أكـد لها واقعيـة وجـود هذه الأجهـزة . وأكد أنـه شارك في زرعهـا في أماكن خفيـة ، وانه نسي أين هي تلك الأمــاكن . وسـألني إن كنت متــزوجــاً . ولم ينتــظر إجابتي ، فقال انني لـو كنت متزوجـاً لما أتيت إلى هـذا المصح . وأكـد أن هذا الجناح من البناية مخصص للمرضى والعصابيين . والدليـل على ذلـك أنـه لم يخلع المنامـة منذ ثـلاثـين سنـة . ثم طلب مني سيجـارة ، فنـاولتـه واحدة . فقال انه سعيد بمقابلتي ، وان أجهزة التصـوير هـذه مزروعـة في كل مكان : في الغرف والمراحيض والممرات والشوارع والقبعات وبراميـل القمامة ، والقبور . . . وأكد أن سبب زرعهـا في كل مكـان لا يرجـع إلى رغبـة مريضـة في مراقبـة ممارسـة الحب بين النـاس . ثم صافحني وانقلب على عقبيه وقال :

ـ فرصة سعيدة .

ولاحـظت وأنا أشيعـه بنظراتي أنـه لم يشعل سيجـارته . غـير أني لم أطارده ، ولم أصرخ :

ـ ارجع كي أشعل لك السيجارة .

وهبـطت طابقـاً آخر بحثـاً عن تلك المـرأة التي تـرتـدي رداء أبيض وابتسامة سـوداء . وبينها كنت أمشي في أروقـة المبنى المقفرة ، لمحت امـرأة تـنـظف إحدى الغـرف . فسألتهـا عن عـاملة البـار . فقـالت وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى :

ـ تلك المرأة الطويلة اللسان ، القصيرة الرأي ؟

هـزت رأسي بـالإيجـاب . فـأشـارت إلى أول منعـطف . ومشيت وانعــطفت ، فـإذا بي أمــام البـار . ورأيت المـرأة ذات الــرداء الأبيض

والابتسامة السوداء . ولاحظت أنها طويلة القامة ، قصيرة الرداء .

إبتسمت عيناها حين رأتني ، وازدحمت بمعاني غامضة ، أما صالة البار فكانت مقفرة . وسألتني إن كنت قد حلمت بها ليلة أمس . ثم قالت انها شعرت بأن ثمة شخصاً يحلم بها ، يشدها إلى باله ، يمتصها إلى منامه ، يجرها إلى عالم رؤاه ، بقوة مغناطيسية لا مرئية جبارة .

أكدت لها أنني لم أحلم بها ليلة أمس . فتجهم وجهها . وكان جفناها منتفخين ، فقالت ان نزلاء هذا المبنى فقدوا القدرة على النوم ، وكأن سلطان النوم قد أطيح به . وانهم قدموا عدة شكاوى إلى مدير المؤسسة ، وانهم اتهموا مجهولين بسرقة النوم من عيونهم ، وغزو السكينة من نفوسهم . وكتبوا في شكاواهم أن ذلك الصعلوك الذي يصادر راحتهم يصرخ في آذانهم طوال الليل بكلام غريب مثل :

ــ أزف بكم الفرق ، وأتاكم من الأمر ما قدّر وسبق . .

ثم يقول منبهاً :

ــ والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، ليهلكن الشجر بالماء .

ثم يقول محذراً :

ــ انطلقوا إلى ظهر الوادي ، فسترون الجرذ العادي ، يجر كل صيخاد بأنياب حداد ، وأظافر شداد . . .

ثم يقول منذراً :

ــ إذا ظهر الجرذ الحفار ، فاستبدل لنفسك داراً من دار ، وجاراً من جار ، فعندها تنزل الأقدار . . .(*) .

ثم يختفي الصعلوك الخفي ويبقى الأرق والقلق في عيــون ونفـوس الناس .

ابتسمت ، ثم تثاءبت . أكدت للمرأة أن حديثها حديث خـرافة ، وأننا نعيش في عصر الثورة العلمية التكنولوجية الثانية . فهمست :

ــ انهم لا يلبثـون إلا كما يلبث الـطيف ، ولا يقيمـون إلا كـما تقيم سحابة الصيف . ثم يختفون ليظهروا من جديد .

قلت :

ــ من ؟

قالت :

ــ الصعاليك .

اتكـأت بمـرفقي عـلى خشبـة البـار . والعـرق يتصبب من جبيني ، والمـرأة التي ترتـدي رداء أبيض ، وابتسامـة سوداء تتـطلع إلي بنـظرة ذات مغزى لم أتبينه ، ولم تناولني منديلاً لأجفف عرقي . قالت أخيراً :

ــ تشرب ويسكي ؟

ولاحظت رعشة في يديها ، فأدركت أنها ترغب في كـأس . فأنبـأتها بـأنها تستطيـع أن تشرب كـأسـاً عـلى حسـابي . فشكـرتني ، واستدارت وانحنت لتتنـاول زجـاجـة ويسكي من الـرف ، فـانحنيت فـوق خشبــة البـار . ورأيت جـزءاً كبيـراً من سـاقيهـا . رفعت زجـاجــة الـويسكي ، فـارتفـع فستـانها الأبيض . وكـانت الـزجـاجـة حمـراء ، وكـان فخـذاهـا بـرونزيـين . والتفتت بعد أن استقـامت ، فالتفت شعـرها الأحمـر أيضاً ، وسكبت الويسكي في كأس فـارغة ، فانسكب نهداها إلى أمـام ، وخمنت أنها لا تلبس مــلابس داخليـة . وانسكب عــرقي عــلى وجهي . وحملت قـطعتي ثلج في يـدهـــا . وكـان منــظر الثلج اللزج في يـديهـا مثيـراً ،

وسكبتهـما في الكـأس . فحللت ربــطة عنقي . وقـالت شكــراً . وكنت أختنق من الحر . وقالت انها لا تحب الويسكي ، ولكنها تحب مـذاق قطع الثلج في الـويسكي . وان الـويسكي يـدفـع عنهــا الشعـور بــالخـوف . فـاعترفت لها بأنني أخـاف العتمة . لكن عينيهـا اشتعلتا بعـد أن رشفت من كأسها ، فأحسست بالطمأنينة . وقالت ان عينيها تشتعلان دائـماً حين تحتسي الويسكي . وانني أشبه البناية .

فامتلأ فمي بالضحك ، وعيناي بالأسئلة . فقالت :

ــ من الخارج أنت عصري ، ومن الداخل عتيق .

قـالت ان رائحة الـويسكي بغيضة . وان رائحتي تـذكرهـا برائحـة نسيتهـا . ثم ضربت بكفهـا على جبينهـا بحـركـة تنم عن تـذكـر مباغت وقالت :

ــ آه . . رائحـة الأمـاكن القــديمـة . الأمــاكن الضيقـة الــرطبـة الشحيحة الضوء . . القديمة . وعيناك !!

انقبضت نفسي ، وضاق صدري . قلت بلهفة يائسة :

ــ ماذا عن عيني ؟

أرسلت ضحكة بلهاء . ثم قالت :

ــ تذكراني بـرجل رأيتـه ، ونسيت أين رأيته . رجـل يجهد ذاكـرته لا عقله . فتعكس عيناه أزمنة غابرة ، وأماكن مندثـرة . وقبائـل منقرضة ، ما كان يرى ما يحيط بـه إلا من خلال ضـوء شحيح . تصـور أنه لم يحمـل ساعـة يد أبـداً . ايه . . ليس كـل من رقـد حلم بما يريد .

اقشعر بدني كله واهـتز دفعة واحـدة . بغتة أدركت أن صـوت هذه المـرأة التي ترتـدي رداء أبيض وابتسامـة سوداء . . لا ينسجم مـع مـلامح

وجهها . وأن مفردات كلامها لا تنسجم مع ذكائها المحدود وثقافتها الضحلة . فخمنت لوهلة أنها لا بد مسكونة بشخصية أخرى .

وسألتني إن كنت قد قرأت الصحف . قالت انها قرأت مقالة كتبها واحد اسمه شعلان قال فيها : « ذكراك يا حسنين سوف تحثنا على المضي في الطريق الذي رسمته سلالتك . . . لأنك ستظل حياً في قلوب الجماهير . . . مشعلاً ينير لنا الدرب المعتمة » .

عصفت بي رياح حيرة واضطراب . قلت ليتني أعود إلى ذلك الدهليز التحتي حيث يرقد إمام العارفين غياث النفوس . لعله يرشدني إلى حل أصيل أقيس عليه . لعله يرشدني . لعلني أقيس الحاضر على الغائب .

وفجأة ضربت المرأة بيدها على جبينها وقالت :

ـ نسيت أن أقول لك انهم يريدونك . . فوق . . المؤسسة أعني .

في الغرفة المظلمة

صعدت ، هبطت ، صعدت إلى تلك المتاهة من السراديب ، حيث الأسئلة التي لا أجوبة عليها . حيث العلم والعلماء وأجهزة دقيقة تكنو ـ إلكترونية لا غنى عنها لتقدمنا . ومررت بكل الطوابق المحرمة :

من العثمانية إلى العرب البائدة ، وكانت الأبواب موصدة ، تحرسها أدوات إنذار إلكترونية حساسة . . وضباب مرعب . وحملتني الدهاليز والسلالم صاعدة هابطة إلى أن بلغت الطوابق العليا حيث

المكتب التنفيذي للمؤسسة . فاستقبلني موظف أنيق مهذب ، صافحني ولم ينطق . اكتفى بابتسامة مشرقة أورقت على ثغره وقادني إلى غرفة دخلتها لأول مرة . أومأ إلي أن اجلس . فجلست على كنبة وثيرة ، ثم خرج وأوصد الباب ، وتركني وحيداً في الغرفة . جالت عيناي في أرجائها : غرفة عارية إلا من الكنبة التي أجلس عليها ، وجهاز ضخم معقد غريب أشبه ما يكون بجهاز كمبيوتر ضخم . صدمني عري الغرفة ، لا أثاث ولا ملفات ، ولا مزهرية ، ولا نوافذ ، ولا ستائر . غرفة عارية برونزية . لم أر امرأة عارية برونزية في حياتي . قلت لنفسي .

بغتة تكلم الجهاز ، فانتفضت مروعاً مأخوذاً ، ثم تمالكت نفسي وأصغيت . قال (كان أشبه بوثن) :

ــ هل تعتبر نفسك ؛ أستاذ حسنين ، مسؤولاً عن المشروع الذي بدأت في صياغته ثم أفلت من بين يديك ؟

ترددت لحظة في الاجابة ، تلفت حولي بحذر . ثم قلت بصوت خافت :

ــ نعم .

قال الصوت الإلكتروني وقد جاء هذه المرة من « سماعة » في ركن آخر من أركان الغرفة :

ــ هل تعترف أن أبطالك الذين صغتهم أفلتوا من بين أصابعك ؟

التفت إلى مصدر الصوت وقلت :

ــ نعم .

انطلق صوت آخر من ركن آخر :

ــ هل تستنكر أعمالهم بعد أن تمردوا على نصك ؟

التفت بحركة سريعة إلى الجهة التي خرج منها الصوت متلهفاً في تحديد مصدره . . بلا جدوى . تبلل قميصي بالعرق :

ـ لا .

انطلق صوت من مكان آخر :

ـ هل تعتقد أن مشروعك كان يعكس واقعاً متحققاً أم واقعاً مأمول التحقيق ؟

أجاب شخص آخر في ركن آخر من أركان الغرفة المتعددة الأركان :

ـ بل هو مشروع لم يكتمل بعد حتى على صعيد التصور الذهني .

قلت كالمعترض :

ـ لا تُجب عني يا سيد. لدي لسان . أنا مسؤول ، ولا أستنكر ما . .

وفجأة فكرت في أن أشعل سيجارة . وقلت :

ـ هل لدى أحدكم عود ثقاب ؟

قال أحدهم : نقول ثور تقول احلبوه . نسألك سؤالاً ، فترد بسؤال .

بغتة ، لمحت في الظلام عينين متقدتين ، وشممت رائحة مسكٍ وعنبر ، فأدركت أن شهرزاد في الغرفة .

أحسست بيد تأخذ بيدي . وترامى إلي صوت شهرزاد مباغتاً :

ـ أهرب . . هيا .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى الهاوية .

ـ إلى الهاوية ؟

ـ هذا ما ترغب فيه أنت باطنياً .

هبطنا إلى الدهاليز التحتية ، وكنت أركض ، يدفعني الفضول ، ويسوقني نداء مسيطر لا راد له . ودلفنا إلى الغرفة السابعة ، حيث رأينا ضريحاً مجللاً بالدمقس والحرير . وعلى الغطاء غبار وخيوط عنكبوت تلف الضريح كله . وقفت منكس الرأس حزيناً ، وشهرزاد إلى جانبي تمسك بيدي .

بغتة سمعت صوتاً اصطكت له ركبتاي ، واقشعر منه بدني . التفت فإذا برجل كبر سنه ، ودق عظمه ، ونفد عمره . لكن في عينيه وميضاً يتقد بالحياة . كأنما امتصت هاتان العينان كل ذرة حياة في جسد الرجل ، واختزنتها فيهما . قال بصوت ليس كالصوت :

ـ هل جئتما كي تلبساني الرداء العسكري ، وتزرراني ، وتقمصاني ، وتعمماني ، وتحملاني إلى الشرفة كي يراني الناس ؟ هل أزف عيد الثورة من جديد ؟

بادرت شهرزاد فقالت :

ـ لا يا آدم . . هذا حسنين الذي صاغ . .

قاطعها قائلاً :

ـ لقد نبئت بمجيئه ، قبل مجيئه .

قلت :

ـ هل . . هل . . أنت . . أعني . . آدم . . جدي الأول . . والقبيلة أعني . . التي . . أعني . . انقراضها . . أو . .

قال :

ـ لا أنـا جـدك ، ولا أنـا حفيـدك . ولا أنـا كجـدك ، ولا أنـا كحفيدك .

قلت مصراً وقد أبرق طيف شك بقواه العقلية في خاطري :

ـ بـل أنت جـدي الفـارس الصعلوك ، وبـطلي المفجـع ، سيـد العارفين ، وغياث النفوس . أنت قريبي ، وقريب مني .

قال :

ـ القرب الذي تعرفه مسافة ، والبعـد الذي تعـرفه مسـافة ، وأنـا القريب البعيد بلا مسافة .

قلت كأنما أؤكد وجوده لنفسي :

ـ صوتك يشبه صوتي .

قال :

ـ تسمع خطابي لك مني ، وهو من قلبك .

سألته عن انفصامات ذياب . قال :

ـ بدأت فصغت الجمع . فيـه جمعت متنافـرات وألفت متناقضـات ومـزجت أضـداداً ، فتمـردت وصغت الشتـات . فـلا شيء مني ولا أنـا منـه . كنت جميعـاً فتشتت ، وألافـاً فتفـرقت . فكلنـا وحيد ، وأنا جميع .

ـ ولكن . . ها أنا أراك واحداً . . وتشبهني .

ـ إن لم ترني ، لم أكن بك .

ـ وحسن الأول ؟

ـــ ظاهر العمارة شاهق معلوم ، وقعرها عتم مختوم . وبينهما سطح أرض لا يستأمن يقينها .

ـــ لماذا تمردت على النص يا آدم ؟

قال لي :

ـــ جدت عليَّ بالمبتدأ ، وحجبت الخبر . وسألت عنك لأعرف بقية دوري . فقيل غاب وراء الحجاب . رسمتني صعلوكاً ثم قيدتني بألف نص ونص .

قلت :

ـــ ثم ماذا ؟

قال لي :

ـــ أخذت دوري بين يدي . ومشيت في عراء موحش أصوغ جلدي الجديد . فلا أنيس ، ولا عاصم ولا ملجأ . وطرقت بابك ، فقلت لي : لا باب لي ، ولا طريق .

قلت :

ـــ ثم ماذا ؟

قال :

ـــ ظهرت لي ثم هجرتني . قذفتني في العراء ، مثل طفلة شاء أبوها أن يئدها في الرمال ، فثرت مثل غصن أخضر ، وتفرعت . شئتني بطلاً مفجعاً . . وهذي فجيعتي : طريد في الوهم والفصام .

هتفت شهرزاد مغضبة :

ـــ لا تصدقه ، لا تصدقه . كان يرغب في أن ينتزع من الأقدار

دوره . أن يملك العالم في قبضته ، فان فشل دون ذلك . . دمره . لا بل كان يرغب في أن يكون هو قدر الآخرين . وكان يرغب في تغيير نظام الأشياء في المسرحية .

قلت :

ــ كنت تنشد المستحيل . قلبت سلم الأولويات . انصرفت عن الثورة ، وأقبلت على الدولة . وانفصمت . كنت تعرف منذ البداية أن نهايتك ستكون مفجعة . ووافقت . ثم حاولت أن تتملص من قدرك .

قال لي :

ــ « الحرف لغات وتصريف وتفرقة وتأليف ، وموصول مقطوع ، ومبهم ومعجم أشكال وهيئات . والذي أظهر الحرف في لغة هو الذي صرّفه والذي صرفه هو الذي فرقه والذي فرقه هو الذي ألفه والذي ألفه هو الذي واصل فيه والذي واصل فيه هو الذي قطعه والذي قطعه هو الذي أبهمه والذي أبهمه هو الذي أعجمه والذي أعجمه هو الذي أشكله والذي أشكله هو الذي هيأه . ذلك المعنى هو معناي ومعناك . ومعي ومعك . وهو الذي جعلنا واحداً أحداً » .

قلت :

ــ أنت تستعير مفردات متصوف .

قال :

ــ الوجه قناع ، والجسد قميص ، والكلمة جسر تداعى . وأنا ولي التأويل أقبل على ما أشاء ، وأنصرف عما أشاء .

قلت :

ــ هل أتعبك الدور المرسوم ؟

قال لي :

ــ حملتني ما لو حملته الجبال لهاضها . وحملتك جسيماً من أمري .

قلت :

ــ أريد أن أحملك وأعود بك إلى زماني . . فكن دليلي .

قال لي :

ــ أينما تكون أدركك . وأينما تكون تدركني . فول وجهك شطر الجهات ترني . وول وجهك شطر الأزمنة ترني . وقلب وجهك في ثيابك ترني ، وقلب وجهك في الآخر . . أرك . فأينما توليت فثم رائحتي أشمها فيك . اتركني هنا تحت الحافي الأسود . وانصرف عن قياس الشاهد على الغائب . وقياس الحاضر على الماضي .

غير أني اتبعت أهوائي ، وحملت هيكله السقيم الأهل بنفس عظيمة ، وجعلته على ظهري ، وطوقت ذراعاه عنقي . ورحت أمشي في الدهاليز المظلمة السحيقة ، وأرتقي السلالم . لا ألتفت إلى نقش على جدار ، ولا إلى صدى صوت عريق .

واختفت شهرزاد . فلم أنادها ، ولم ألحق بها ، ولم أبحث عنها .

* * *

حسن الأول :

استيقظت فلم أجد شهرزاد ، وتلفت فلم أعثر لحسن الثاني على أثر . ها هو يهرب مرة أخرى من بين أصابعي ، بعد وحدة طالت . ركضت كالمجنون نحو الطوابق العليا . واندفعت إلى مكتب العلماء بمنامتي وصرخت عازب العقل زائغ النظرات :

ــ هرب حسن الثاني . . قبل قليل اختفى . . مش مبين .

هرعنا إلى السطح . حدق عالم الآثار في التلسكوب ، بعد أن ألصق عيناً به وأغمض عيناً أخرى . سألته :

ــ شايفه ؟

قال ببلاهة :

ــ مين ؟

قلت بنبرة لا تخلو من ضيق :

ــ حسن الثاني طبعاً .

قال دون أن يرفع عينه عن التلسكوب :

ــ لا . شايفك انت . انت تقف مباشرة قدامي . أرى حسن الأول . لكن حجمك مش طبيعي .

وانتبهت إلى أنني أقف فعلاً في مواجهة التلسكوب . اعتذرت ، وابتعدت عن الفوهة . قلت بلهفة :

ــ والآن ؟

قال دون أن يرفع رأسه ، أو يفتح عينه الأخرى :

ـ أرى أشياء عجيبة .

فقد عالم الجيولوجيا صبره . فدفع عالم الآثار جانباً . وهتف :

ـ خليني أشوف . . إبعد هيك .

وحين ألصق عينه بالمنظار ، وأغمض عينه الأخرى . صرخ مستنكراً :

ـ هذا مايكروسكوب . . لا تلسكوب . الله لا يوفقك .

رفع خبير الظواهر الخارقة يديه إلى شعره ، وكاد أن يشده غيظاً وقهراً . وتذكر فجأة أنه أصلع . فالتفت إلى عالم الآثار ذي الشعر الغزير وشد شعره غيظاً بالنيابة . وهتف :

ـ ليش عم بيصير معنا هيك ؟

دس عالم الأنثروبولوجيا يديه في جيبيه ، وهز منكبيه وقال :

ـ حلمت أمس بحذاء مقلوب وعرفت إنو . . هذا اليوم مش رح يمضي على خير . . لأنو الحذاء المقلوب في المنام دليل شؤم .

هتف عالم الآثار وهو يمسد شعره :

ـ خلينا نستعمل الكمبيوتر المتطور .

فثنى العالم النفساني على هذا الاقتراح . وقال :

ـ مش بس هيك . أنا بحب أضيف إنو إحنا لازم نستعمل الكمبيوتر المتطور .

واندفعنا جميعاً إلى غرفة الكمبيوتر المتطور . وسبقنا إليه عالم الظواهر الخارقة ، فنقر على بعض أزراره . وإذا بنا نقرأ على الشاشة الكلمات التالية :

« في الساعة العاشرة من صباح الأحد ، غادر نزيل الغرفة رقم خمسة غرفته تاركاً علبة سجائر فيها سيجارة واحدة على السرير . ثم هبط إلى الطابق الثاني . ومشى ثلاث خطوات . ثم إنفتل إلى الغرفة رقم سبعة . واستقبلته امرأة اسمها لطفية محمد حسن من مواليد قرية الطيبة . وقالت له انها لا تستطيع ، لأنها سمعت أن الغرف مزروعة بأجهزة تصوير سرية . فقال لها هذه إشاعة . ولكنها تمنعت . فقال لها نطفىء الضوء . فقالت له وهي تدخن انها سمعت أن هذه الأجهزة قادرة على التصوير في الظلام من خلال أشعة ليزر . فعض الرجل على شفته السفلى بالتحديد .

وقال :

ــ أكيد بيصوروا ليالي الدخلة . . وبيبعوا أفلام الفيديو في السوق السوداء . لكن هذي الغرفة مش غرفة عرسان .

فأكدت له أن السبب لا علاقة له بالتجارة ، وإنما بالحفاظ على الاستقرار . وخرج الرجل وقد ترك علبة سجائر أخرى في غرفتها . وهي من نوع « مالبورو » . وقد حك رأسه قبل أن يغادر الغرفة . أما المعلومات المتوفرة عنه فهي . . .

صرخ عالم الآثار :

ــ يا عمي شو هالحكي الفاضي . انت ضغطت على الأزرار الغلط . إبعد . . خليني أشوف شغلي .

دفع عالم الآثار الرجل الآخر جانباً ، وضغط على أزرار الكمبيوتر المتطور . فظهرت على الشاشة العبارة التالية :

ــ الجرذان تقرض الأساسات .

ثم بهتت الكلمات واختفت . صاح العالم الأنثروبولوجي :

ـــ البطارية أكيد خلصت .

سألته بدهشة :

ـــ ليش هو الكمبيوتر هذا بيشتغل على بطارية ؟

التفت إلي وحدجني بنظرة ملتهبة . قال :

ـــ معك بطارية ؟ .

فتشت جيبي وقلت :

ـــ لا . بس معي وجع راس . معك إنت حبة أسبرو ؟

كان العالم النفساني يذرع الغرفة بعصبية وقد نفد صبره . قال :

ـــ هذا عيب . . عيب . وين المهندس خبير الكمبيوتر ؟

وهتف العالم الجيولوجي :

ـــ تقصد الحاسوبي ؟

قلت متفلسفاً :

ـــ المسألة مسألة غياب البنى التحتية . « الانفراستركتشر » . نقل التكنولوجيا لبلدان العالم الثـ . . .

بغتة انقطع التيار الكهربائي . فاختفى كل شيء في الظلام . . كأنه لم يكن . كأننا عدنا إلى بداية الخليقة بقفزة واحدة .

صرخ أحد العلماء :

ـــ مين طفا الضو ؟

ـــ مين قطع الكهربا ؟

وصرخ ثالث :

ـ مين دس أصابعه في جيبي ؟

دسست أصابعي في جيبي لأتفقد نقودي ، فلم أجد قرشاً واحداً . صرخ أحد العلماء :

ـ سرقونا .

قال آخر :

ـ طيب . . اشعلوا الضو . صلحوا الكهربا . ما حدا معاه شمعة ؟

قلت :

ـ أسمع خشخشة . الجرذان تنهش أساسات العمارة . ويمكن هي اللي قرضت أسلاك الكهربا .

قال صوت :

ـ جرذان . . جرذان . . شو هالحكي الفستق الفاضي . . مفكر حالك في سد مأرب ؟

قال صوت :

ـ وين الكهربجي ؟

صوت :

ـ الكهربجي في ورشة بناية ثانية .

صوت :

ـ ليش ؟ مش المفروض إنو متفرغ للمؤسسة ؟

صوت :

ـ راتبه ما بيكفيه .

صوت :

ــ طيب ما في حدا بيفهم هون بالكهربا ؟

صوت :

ــ أنا بفهم بالجيولوجيا .

صوت :

ــ وأنا بعلم النفس .

صوت :

ــ وأنا بالظواهر الخارقة .

صوت :

ــ وأنا بالآثار .

صوت :

ــ طيب خلونا ندور على زر الجرس حتى نستنجد بالعمال اللي تحت .

صوت :

ــ الجرس على الكهربا . والكهربا مقطوعة .

صوت :

ــ يعني مفيش أمل ؟ يعني مفيش بصيص ضوء ؟

صوت :

ــ مين ابن اللـ . . اللي دس أصابعه في جيبي وسرق فلوسي .

صوت :

ــ مين ابن اللـ . . اللي دس أصابعه في . . .

صوت :

ــ أنا أصابعي بتفتش عن الباب . .

صوت :

ــ إذن مش انت اللي . . .

صوت :

ــ مين هذا اللي بيدبك على الأرض ؟ .

صوت :

ــ ما حدا بيدبك . الأرض عم تنبض .

صوت :

ــ عم تنبض ؟

صوت :

ــ ولك يا عمي هذي الأرض عم تهتز .

صوت :

ــ عم تهتز ؟

صوت :

ــ شو ؟ في ببغاء هون ؟

وعثرت على الباب أخيراً . وأرض هـذا الطابق العلوي تهـتز وتخفق وتـرتجف كأنما أصابتهـا الحمى . وبدأت أشق طـريقي في الـظلمـة نحـو الدرج . قشعريرة مبهمة سـرت في جسم الدرج ، فـاهتزت درجـاته تحت

قدمي درجة درجة . كنت أهبط على القشعريرة .

وحسن الثاني يرتقي السلالم ذات الضوء الشحيح . يطلع من الأعماق السحيقة ، والدهاليز التحتية ، حاملاً جثة آدم الحسنين . وكانت الأرض تهتز تحت وقع خطاه أيضاً ، كأنها قلب ينبض نبضاً متلاحقاً متداركاً في جوف العتمة . وإيقاع قلبه يتناغم مع إيقاع وجيب الدهاليز .

وقال للجثة الحية كأنما ليدفع الوحشة :

ـــ ما كنت أراك في النهار إلا خطفاً .

قالت الجثة وهي تستمع إلى وجيب قلبها الناعس :

ـــ نم لتراني ، واستيقظ لتراك . نهارك لرؤيتك ، وليلك للنظر إليّ .

حين بلغ حسن الأول خاصرة العمارة سمع لهاثاً . هتف :

ـــ مين ؟

صوت :

ـــ أنا .

هتف حسن الأول وهو يمسح عرقه بباطن يده :

ـــ مين أنا ؟

صوت :

ـــ انت حسن الثاني .

صرخ حسن الأول بعصبية :

ـــ لا . قصدي مين إنت ؟

صوت :

ــ أنا حسن الثاني .

صرخ حسن الأول بلهفة لا تخلو من غضب :

ــ وين كنت . نبشنا الدنيا عليك ؟

صوت حسن الثاني لاهثاً :

ــ تحت .

صوت حسن الأول لا يخلو من دهشة :

ــ تحت ؟ تحت . . يعني في القبو ؟ شو كنت بتعمل هناك . شو كنت بتريد ؟ هلكتنا . شو إنت ولد ما بتفهم ؟

صوت حسن الثاني :

ــ المراد عزيز ، والمراد بعيد ، والفهم قاصر .

بغتة ارتعشت الطوابق العليا ، كأنما سرت في حجارتها قشعريرة رعب . واهتزت الطوابق التحتية ، الواقعة تحت سطح الأرض ، وارتجفت كأنما اصطكت أعمدتها ذعراً .

هتف حسن الأول :

ــ ولك شو كنت عم تعمل تحت في الأساسات . حطيت قنبلة موقوتة ؟

هتف حسن الثاني وقد بدأ الغبار يتساقط عليه وعلى حسن الأول :

ــ الآخرة لم تغلب علي فأكون من العاملين لها .

زعق حسن الثاني وهو يتفادى حجراً انهار من الطوابق العلوية :

ــ المشكلة مشكلة بنى تحتية . المهندس إبن الحرام . . . حساباته طلعت غلط ، أو غش عشان يربح كم قرش وما ضبط الأساسات .

قال حسن الثاني :

ــ والدنيا لم تواتني لأكون من الخائضين فيها .

مد حسن الأول يديه ليتمسك بشيء صلب ثابت فلم تمس أصابعه سوى الظلام والغبار والهواء البارد . قال :

ــ يعني حضرتك ضايع . لا دنيا ولا آخرة ؟

قال حسن الثاني وهو يتمسك بالجثة الحية التي يحملها :

ــ وانت . . ألم تقض على زهرة حياتك في الركض الحائر على هذه السلالم . تارة تصعد ، وتارة تهبط . . ولا تجد باباً ولا نافذة ولا طريقاً .

* * *

من بعيد كان ثمة أعرابي يجتاز بيداء سرابية على راحلته . تتبعه قافلة من الحافلات تحمل سياحاً من العرب والأجانب . بغتة توقفت القافلة والراحلة . ومد القوم أبصارهم ثم صعدوها . فتراءى لهم مشهد ، اختلجت له عروقهم واضطربت منه قلوبهم .

وأقسم الأعرابي حين عاد إلى قبيلته أنهم رأوا عمارة ناهضة في البيداء تتداعى . الجزء العلوي من طوابقها ينهار . والجزء السفلي يرتفع إلى السطح مبعثراً متطايراً كأنما قذفه شيطان يسكن جوف الأرض إلى أعلى . وإذا بطابق في الوسط ، لا هو شرقي ولا غربي ، يظل معلقاً في الهواء كأن الريح قد بسطت كفها وحملته عليها . فما كنا نرى عموداً يرفعه ، ولا سقفاً يسحبه . وأقسم أنه رأى في هذا الطابق رجلين

يصطرعان . . وبينهما جثة تتقلب كأنها راقدة على شوك . ومن يومها عرفت الأرق ، ـ قال البدوي ـ وعرفت القلق ، وقضت مضجعي الأسئلة . فقيل له : ما رأيت سوى سراب ووهم .

* * *

وقيل ان حسن الثاني عاد فلجأ إلى الكهف . وهنا تختلف الروايات . فثمة رواية تقول :

وتعاقب ليل إثر نهار ، ومضت قافلة الزمان تنهب الأرض وتضرب فيها ، والغياب مضروب على أذنيه ، والكرى معقود بأجفانه . لا تزعجه زمجرة الرياح ، ولا يوقظه قصف الرعود . ولا يحركه انفجار البراكين ، ولا تهزه رعشة الزلازل .

ودخلت سنة تسع وثلثمائة منذ نومه ، فانتبه بعدها ، وهو لا يكاد يمسك نفسه من الجوع ، أو يجمع أعضاءه من التعب . ظاناً أن الزمن لم يمض به ، وأن قافلة الوقت واقفة عند بابه .

والتفت إلى الببغاء فقال :

ــ يخيل إلي أن ساعات طويلة رقدناها ، ربما نكون قد لبثنا يوماً ، فإن هذا الجوع الذي أحسه ، والتعب الذي نشعر به ليؤذن بما أظن .

قال الببغاء :

ــ ألا يزالون يطلبون رأسك ؟ وتغيير ملامحك ؟ وتبديل اسمك ؟

تناهض الرجل بتثاقل ، فرك عينيه . قال :

ــ إسمع .

قال الببغاء :

ـ أنصت .

شحب وجه حسنين وقال :

ـ صوت انفجارات . . كأنها انفجارات أنابيب الغاز .

قال الببغاء :

ـ كأنها همهمات وألغاز .

انقبض قلب حسنين وقال :

ـ لعله قصف رعود .

قال الببغاء :

ـ لعله قصف طيران .

قال حسنين :

ـ لعله قصف عشوائي . لعله بحر صاخب .

قال الببغاء :

ـ لعلها حرب صاخبة .

قال الرجل :

ـ حرب أهلية ، حرب خارجية . . أخاف الحروب .

قال الببغاء :

ـ أخاف الخراب .

قال الرجل بلهجة آمرة :

ـ إذهب إلى فوهة الكهف واستطلع الأمر . .

قال الببغاء :

ـ ليش ؟

قال الرجل :

ـ انت مصاب بالفصام . تتحدث الفصحى وتحكي بالعامية .

قال الببغاء :

ـ إذهب إلى فوهة الكهف لتستطلع الأمر .

قال الرجل :

ـ ليش ؟

قال الببغاء محتجاً :

ـ انت تستعير سؤالي . هل أنت ببغاء ؟

قال الرجل :

ـ لا . أنا رجل . مش شايف بعينك . شو . . أهبل انت ؟

قال الببغاء :

ـ لا . أنا مش أهبل . أنا مجرد ببغاء .

قال الرجل :

ـ يصيحون ولا يستريحون .

قال الببغاء :

ـ روح إتفرج يا زلمة .

وسعى الرجل بخطى مترددة إلى فوهة الكهف . أطل برأسه في حذر وحيطة . فما راعه إلا شوارع مزدحمة بالبشر ، وأرصفة تغص بالمارة . جموع هائلة من البشر ، تسعى في الشوارع المحيطة بالكهف .

خرج الرجل واندس بين الناس فشعر بالطمأنينة والسكينة . لكنه ظل حذراً فطناً ، يتلفت في ريبة .

لحق به البيغاء ، ووثب فحط على كتفه . قال الرجل :

ــ إسمع . . كي نعرف في أي عصر نحن .

همس البيغاء :

ــ أنصت . كي نسمع إذا ما كان رأسك مطلوباً .

قال رجل من المارة :

ــ وهم وسراب .

قال مار آخر :

ــ هذه الكيانات .

مر رجل مستوحد من أمامهما . وكان يكلم نفسه . قال :

ــ وهم وسراب .

ثم مضى . . مر رجل آخر يجر عربة قال :

ــ نظن أننا نجلل عرينا بورق التوت . والدنيا عراء .

قالت امرأة تجر بعيراً :

ــ من خطف ابني ؟ من خطف النوم من عيني ؟

قال مواطن يسوق سيارة « مرسيدس بنز » :

ــ أغاروا ليلة أمس علي . .

مار آخر :

ــ دمروا النوم في عيني . .

ـ دمروا الحلم . .

ـ شوهوه .

ـ مَنْ ؟

ـ صبرا وشاتيلا . .

ـ خطفوها . .

ـ أحلامك ؟

ـ لا . . الطائرة . . وهي في الفضاء . . ورافقوها إلى قاعدة أمريكية في إيطاليا . .

ـ فجروه . .

ـ مروا من فوق البحر الأبيض المتوسط . .

ـ كالومض . .

ـ تمثال عبد الناصر . .

ـ أين كانت صواريخ سام ؟

ـ لم أنم . لم أنم . لم أنم . لم أحلم .

ـ لا نوم . لا مخيم . لا مؤسسات . لا أحذية . لا خبز . لا ملح . لا مسرحية . أين المخرج ؟ أين كاتب النص ؟

ـ أين الظافر ؟ أين الممثل ؟

ـ وهم .

ـ أين القاهر ؟ هذا الديكور . . ديكور .

ـ سراب .

ـــ والجنـرال . . الـذي يلعب دور المبـارك المنتـظر . لمـاذا لا يغـادر المسرح . مللناه .

ـــ انه صنم لا يزول .

ـــ والكولونيل ؟

ـــ صنم .

ـــ ألم يحطموا الأصنام منذ ألف و . . . .

ـــ كيف تبحر السفن في يباب لا يحده بصر ؟

ـــ مروا فوق طائرات الأواكس .

ـــ أذابوا فرج الله الحلو .

ـــ حلو . يا عين .

ـــ اعتقلوا زياد أبو عين . . وسلموه .

ـــ لماذا لا يفتحون جبهاتنا ؟

ـــ وعيوننا ؟

ـــ وأنوفنا ؟

ـــ من فجر أنابيب الغاز ؟

ـــ هذا عالم مزدحم بالألغاز .

ـــ من يفهم حرب النفط والغاز ؟

ـــ . . والأوبيك .

ـــ خائن الأمس بطل اليوم .

ـــ بطل اليوم خائن الغد .

ـ بطل الأمس خائن اليوم .

ـ ما يجري حولنا لا معقول .

ـ لكنه واقعي .

ـ المشمشية انتهت .

ـ مدن الملح بدأت تذوب .

ـ كانت وهماً .

صاح سكران قضى نصف عمره في زنزانة ونصفه الآخر في مصح للأمراض النفسية والعصبية :

ـ أنا من ضيع في الأوهام عمره .

ـ لماذا قتلتموه بكاتم صوت في باريس ؟

ـ هذا السيناريو مضجر .

ـ كان أستاذهم .

ـ باعونا تذاكر في السوق السوداء .

ـ وكانوا حوارييه ومريديه .

ـ تعالوا نتدخل . نكتب سيناريو جديداً . نمثل أدواراً جديدة .

ـ هل تسمحون في أن تفسروا لي وتشرحوا ما . . .

قاطعها رجل يبرق في عينه ألف برق :

ـ أسمح . . أسمح . . لا . . أسمح .

ـ لنحتل خشبة المسرح .

ـ مللنا مقاعدنا . زوجي تزوج أخرى بالمراسلة .

ـــ نحن الممثلون .

ـــ ممثلو من ؟

ـــ ممثلو الفجيعة .

ـــ من نحن ؟

ـــ نحن الذين نعاني .

* * *

أما الرواية الأخرى فتقول :

وهربت ، وكنت ألهث ، والببغاء على رأسي . وعرقي غزير ، وهم يطاردونني ، وإيقاع خطواتي التي تنهب الأرض وتطويها يختلط بوجيب قلبي . ولهاثي يركض أمامي . والكهف هناك ينتظرني . ضيقه أفسح صدراً من هذه المتاهة المترامية . والنوم فيه سلام وحصن .

ودلفنا إلى الكهف . فصرخ الببغاء برعب :

ـــ لنلذ بالنوم من فورنا .

قلت :

ـــ لنلذ بالنوم من فورنا .

سألني :

ـــ هل أنت ببغاء ؟ إنك تردد ما أقول .

قلت :

ـــ لا . أنا رجل . انت الببغاء . انت ببغاء أحمق .

قال :

ـ لست ببغاء أحمق . أنا مجرد ببغاء .

قلت :

ـ لنضطجع فتسورنا الأحلام كالقلاع .

قال :

ـ لنضطجع فيحمينا النوم ويجيرنا الوهم .

قلت :

ـ لتبرد أقدامنا .

قال الببغاء محتجاً :

ـ أنا ليس لي أقدام .

قلت :

ـ لنستعيد ما ذهب من عافيتنا .

قال الببغاء :

ـ وما عزب من عقلنا .

قلت :

ـ أغمض عينيك . ألا تحس بسكينة إغفاءة خفيفة تقبل علينا ؟

قال :

ـ وتداعب جفوننا .

قلت :

ـ لنسلم رأسينا إلى الأرض ونذهب في ملجأ نوم عميق .

قال الببغاء :

ــ فننجو من المطاردة .

قلت :

ــ لن تزعجنا زمجرة الرياح . ولا زعيق مختلف لهجات المؤسسة العربية الواحدة .

قال الببغاء :

ــ ولا قصف الرعود ، الطائرات ، القذائف العشوائية ، كواتم الصوت .

قلت مضيفاً :

ـ الحروب الأهلية ، الحروب . . الحروب . .

قال الببغاء :

ــ ولا الحراب . أنا أخاف الحراب .

قلت :

ــ ستطلع الشمس فتنفذ إلى الكهف من كوته ، فتمنحه الضوء والحرارة ، ولكن أشعتها لن تصل إلينا .

قال الببغاء :

ــ وستغرب وتميل وتبتعد . ويكر المقتتلون ويفرون . ورأسي بين كتفي .

قلت :

ــ الكهف تعاويذ .

قال الببغاء :

ــ رحم نخلد إلى سكينته .

قلت :

ــ تميمة السلام .

قال الببغاء :

ــ لا كر ولا فر بعد اليوم .

قلت :

ــ ولا حروب نفط وغاز .

قال :

ــ ولا ألغاز .

قلت :

ــ ألا تحمل منامة ؟ لا أستطيع النوم بلا منامة .

قال الببغاء :

ـ أصمت . دعنا ننام . لعل العيون التي ترصدنا تصيبها غشاوة هذا الظلام .

قلت :

ــ ينبغي أن أنظف أسناني . لا أستطيع أن أنام دون أن أنظف أسناني .

قال الببغاء بضيق :

ــ أصمت .

لفنا صمت متوتر . لا نتبادل كلمة ، ولا ننبس بحرف . مرت ساعة ثقيلة ، زحفت كما سلحفاة . قلت لا أتمالك نفسي :

ـ نمت ؟

قال نافخاً :

ـ لا . انت نمت ؟

قلت :

ـ لا .

قال بقلق :

ـ لعل الصعاليك صادروا نومنا . ربما زرعوا الأرق في عيوننا .

قلت :

ـ أشعر بقوة القلق ، كأنها طاقة مدمرة تفور في داخلي ، تتأجج في عروقي .

قال الببغاء :

ـ قوة عمياء ، عارية من الأقنعة والتفاؤل الكاذب . عري محض .

قلت :

ـ تناديني أن أحولها إلى محسوس . تقول حولني من طاقة خفية باطنية ، إلى قوة ظاهرة علنية .

صرخ الببغاء :

ـ تصرخ في أذني .

بغتة ، أدركت بصفاء عجيب باهر أن القلق قد تسلل إلى خلايانا

وشعيراتنا العصبية واستباحنا . فانتفضت ، وهرعت إلى باب الكهف .

ونظرت فما راعني إلا الصعاليك وقد وقفوا عند باب كهفي ، وأسرجوا لي جواداً أبيض ، مزركشاً بجدائل بلقيس الطويلة مثل الأزل .

وكان الجواد يرسل صهيلاً يشبه النداء . وكان الصعاليك يبدون في عماية الصبح كالأشباح . وعيونهم تشتعل بنار قلق طاغٍ مدمر . والصهيل يعلو ، ويعلو . فتهتز الأرض وترتعش . والتفت فإذا بالببغاء يهرب في اللحظة الأخيرة ، قبل انهيار الكهف الأخير .

علوت صهوة جوادي .

قال الببغاء :

ــ سقطت ورقة التوت الأخيرة . . ولم يبق غير عراء لا ملجأ فيه ولا عاصم .

فرددت كالببغاء :

ــ عراء . . عراء . . عراء .

* * *

الخاتمة ؟!؟!

كنت مـزوراً ، وقنـاعـاً يلعب دوراً . . ولا يلتـزم بـالنص . أنـا حسنـين الحكيم ، آدم ، حسن الأول ، حسن الثـاني ، ذيـاب . . ممثـل واحد . . والأدوار ألف .

سعيت إلى منـزل فزاع . طـرقت بابـه ، فأطـل رأس فزاع وحـدق إلى الـظلام في حـذر . ثم تفـرس في وجهي بعينـين مستـريبتـين . ثم عرفني . أشرق وجهه وأخذني بين ذراعيه . وقال :

ــ أدخل .

فدخلت . وقال فـزاع انه سيكتب كتـاباً عن « تجـربتي » الغريبـة . وأعـد الشاي . وابتسمت وأنـا أشرب الشـاي ، وأدخن سيجارة . وقـال فـزاع ان أهم الجـوانب في « تجـربتي » هـو ذلـك الجـانب الـذي يتعلق بـالسيطرة الكـاملة على الـلاشعور . وكـان يدخن بشـراهة ، وأنبـأني أنـه اقتيد إلى بيت خالته أثناء غيابي . سألتـه عن « تجربتـه » ، فابتسم . قـال التجربة تبلغ قمتها بعد مرور ثلاث سنـوات . فإذا زادت عن ذلـك تحول القمقم إلى مكـان لا زمن فيـه . لا بـل تحـول الـزمـان الـدافق إلى مكـان ثـابت . وقال أنـه كتب قصة قصيـرة عن تجربتـه . فـأخبـرتـه أنني أود أن أسمعها . فقام إلى غرفة أخرى . وعاد ومعه عدة أوراق . وقلت له :

ــ شو . . مربي لحيتك . . خير ؟

ابتسم . لكن ابتسامته سرعان ما ضاعت بـين شاربـه الكث ولحيته المرسلة .

قال انه لم يستطع أن « يربي بعض النـاس » فربى لحيتـه . وقال انـه لا يحب بيت خالته . . مع أنه يحب خالته .

ومـال نحوي قليـلاً وراح يقرأ بهـدوء . وكانت القصـة تدور حـول رجـل انحنى ليعقد ربـاط حذائـه ، قبـل أن يـدخـل القمقم ، ثم مـرت سنـوات وسنـوات وهـو في القمقم ، ثم خـرج من القمقم فـانثنى ليعقـد رباط حذائه . قلت أن هذه القصـة تبدو لي أقـرب إلى مشهد سينمـائي . وسكب فـزاع مزيـداً من الشاي في كـأسينا . وكـانت الـريـح في الخـارج تولول . ووضع الإبريق على « الصوبـة » . وقال ان النـاس بألف خـير . وانـه حـين خـرج فـوجىء بـاستقبـال النـاس لـه . وان والـده رقص مـع الراقصين رافعاً رأسه عالياً . ولاحظت قلقاً خفياً في عينيه . وسألته فقـال ان التنـافس في النقابـات بين اللوائـح والقوائم الجـذريـة تنـافس مـرضي مقلق .

وقام وقال لنخرج . ودخل إلى غـرفته ، فخلع منـامته ، ودخـل في ملابسه . وقال انه يأخذ ملابسه كل خميس إلى القرية ، فتغسلها أمه .

وخـرجنا فصفعتنـا ريـح بـاردة . . لكننـا مشينـا وسمعنـا طـرقـات أقدامنا في الشوارع المقفرة . . ودخنا عدة سجائر ، وكـانت عيناه تلمعـان في الـظلام . واعترفت لـه بأني أشعـر بالبـرد . فرفـع يـده وأوقف سيـارة أجرة . وانطلقنا إلى حانـة صغيرة . ودخلنـا ، والضوء شحيـح ، والمكان لا يزدحم بالناس ، لكنه يزدحم بالدخان . وكان فزاع ينقر بأصـابعه عـلى الـطاولة بـإيقاع أشبـه بحـداء رتيب . وكنت أدير كـأس الكـونيـاك بـين كفي . رفـع فـزاع رأســه ، وتلفت . ثم حـدق إليَّ وأشــار إلى رأسي ، وقـال انني أملك فرصـة عظمى للتحـول إلى عقـل محض . عقـل يسيـطر عـلى المشـاعـر والانفعـالات والغيبيــات والخـرافــة ، لأن تجـربتي تؤهلني للسيـطرة على الـلاوعي . وقال ان هـذه المهمة ليست يسيـرة لأن أصحابي القـدامى صـاغـوا لي شخصيـة جـديـدة بعـد غيـابي . اختلقــوا حسنـين جديداً ، مستغلين انقراض السلالة ووقفها عند ولد متخلف عقلياً .

وكنت أتكىء على الطاولـة بمرفقي ، وأسند وجهي بكفي فافترت

شفتاه عن ابتسامة ساخرة . وقال انهم جمعوا أموالاً طائلة باسمي . وقال ان اسمي صار صناعة رابحة ، لا تجارة رابحة وحسب . امتقع وجهي ، وشعرت بقشعريرة ، فرفعت كأسي وأتيت عليه بجرعة واحدة . وكان معطفي ثقيلاً ورأسي مثله . وشعرت بجفاف في حلقي . فطلبت كأساً ثانية . أراح فزاع رأسه على ذراعه وقال ان ظهوري مجدداً على هذا الشكل المباغت سيحرج كثيرين .

سرى خدر الكونياك في جسدي . فرفعت يدي ومسحت على جبيني بأطراف أصابعي . واجتاحني خوف عارم . ملأ فزاع كأسه وقال وهو يأخذ رشفة ان قدرتي على السيطرة على مكنونات اللاوعي الجمعي المسكون بالخرافات والأساطير واللامعقول والعناصر المظلمة ، سوف تساعدني على مواجهة الآخر . وتنبأ بمعركة ضارية بيني وبين الشخصية التي رسمها لي أصدقائي أثناء غيابي .

انقبض قلبي . وقلت انني أريد أن أخرج لأشم هواء نقياً .

ومشينا في الشوارع المقفرة صامتين ، وكنا نتلفت .

وفي اليوم التالي ، مشيت في شوارع مزدحمة ، وكنت أشعر بوحدة موحشة . وانعطفت نحو مكتب شعلان . ودخلت المكتب وكنت أدخن . ومررت بالسكرتيرة دون أن أحييها ، وكان باب مكتب شعلان مغلقاً ، فدفعته بيدي . ونهض شعلان ممتقع الوجه ، وحدق إلي كمن يحدق إلى شبح . وهتف :

ـ مش معقول !

واقتعدت كنبة دون أن أصافحه . وكنت أشعر بثقل في جفني . سألت شعلان لماذا قولوني أثناء غيابي ما لم أقل . لماذا اختلقوا لي شخصية وهمية .

أبـدى شعلان من الـدهشة مـا لم يعلنه وجهـه الـرصـين الهـادىء . وراح يذرع غرفة مكتبه كـاللهاث . ثم تـوقف بغتة والتفت إليَّ وتفحصني بعينين فيهما خبث وفيهما ريبة . وصاح :

ــ أنت تنتحل شخصية حسنين . أنت لست حسنين الأصلي .

ابتسمت إبتسـامـة بـاهتة . وشبكت أصابعي . وأطرقت . ثم رفعت رأسي وقلت :

ــ لما بتحكي بالفصحى بعرف إنك بديت تكذب وتمثل . . إلعب غيرها يا شعلان .

ثـم تحسـست بيـدي محفـظتي . قـلت انني أمـلك كـل أوراقـي الثبوتية . فدس شعلان يداً مضطربة في جيبه واستخرج علبة سجائره . هـز منكبيـه في أسف وقـال انـه وشـركـاء غيـره ، جعلوا مني ، بـل من سلالتي كلها رمـزاً عظيـماً . قال ان وجـوهنا المتشـابهة ، أي وجـه حسنين عبـر الأجيال ، صـار يزين مئـات آلاف القمصان . قمصـان يقبل عليهـا شبـاب متحمسـون لحسـنين الـذي صنعـه هـو . وأكـد أن صـوري تمـلأ جـدران البيـوت . آلاف الملصقـات التي تحمـل صـورتـك معلقـة عـلى الجـدران الداخليـة للبيوت . قـال . الضائعـون واليـائسـون والحـائـرون والمكتئبون ، يجدون السكينة حين يحدقون طويلاً إلى صورتك .

وهتف :

ــ أنظر . . أنظر . .

وهـرع إلى مكتبه . وبحـركة مضـطربـة من يـده ، فتح الأدراج ، تنـاول مجموعـة هائلة من الأوراق والمـراسلات التجـارية . وقـذف بهـا في وجهي بعصبيـة . كانت كلهـا من شـركـات في الخـارج تـطلب ملصقـاتي وكتبي وأقوالي المأثورة والقمصان التي تزينها صورتي .

نحيت الأوراق جانباً . وقد ذهل رأسي بدوار مفاجىء . دارت عيناي في الجدران رأيت الملصقات التي تحمل صورتي ، وتحتها أقوال من أقوالي المأثورة :

« من صبر عن سواي . . أبصرني » .

« أنظر إليَّ ترى فقر كل شيء » .

« إن رأيتموني اختفت همومكم ، وإن رأيتم همومكم لن تروني » .

أشرت إلى الملصقات . وهتفت مغضباً :

ـ أنا ما قلت هذا الكلام .

ابتسم شعلان وقد تمالك نفسه . وقال بصوت ينم عن ثقة :

ـ بالضبط . لأنك مش حسنين . انت مزوَّر . انت تنتحل شخصيته .

انتفضت واقفاً وصحت في وجهه :

ـ كذاب . انت المزور . أنا حسنين رغم أنفك . ومعي أوراقي الثبوتية .

ابتسم ابتسامة الواثق . ومال نحو أذني وهمس بخبث :

ـ يعني انت متأكد إنك حسنين ؟ حسنين اللي قتل بلقيس . . احرقها . . واختفى ؟

جزعت ، انحرفت عنه قليلاً واجتاحتني نوبة ضحك هستيري :

ـ انت تهددني . مش معقول . مش معقول .

وراح شعلان يذرع غرفة مكتبه وقد شبك يديه خلف ظهره . وقال انه على أية حال لم يشر إلي في صناعة حسنين . فحسنين اسم

سلالة ، اسم عشرات الأشخاص ، والوجه وجه عشرات الأشخاص . وكلهم حسنين . ثم أي حسنين انت ؟ تساءل . الجد الأكبر ، الابن ؟ أي الأب ، الأب ؟ أي الابن .

ولاحظت أن عرقي يتصبب من أنحاء جسدي ، على الرغم من البرد . ولاحظت أن ربطة عنق شعلان تميل نحو اليمين كلما تلفت ، سواء التفت إلى اليسار أم التفت إلى اليمين . وتساءلت كيف كنت أنا وهذا الشخص أعضاء عصبة واحدة في يوم من الأيام ؟

خرجت إلى الشارع ، وكانت السيارات تمر بسرعة وعصبية . الناس متوترون . فكرت . وكان أي خلل في السير يؤدي إلى شجار . والشرطي يتفرج كالعاجز أو اللامبالي . وأصخت السمع للمارة وهم يعبرونني .

ـ . . انفجار أنابيب ألغاز . .

ـ عالم ألغاز . .

ـ كانت طفرة النفط وهماً ، خدع الكثيرين وورطهم . .

ـ خطفوا الطائرة و . . .

ـ اليوم الخميس وأنا . .

ـ وافقت على الزواج منه ما إن رأت صورته الفوتوغرافية و . .

ـ إرهاب ، إرهاب ، إرهاب ، صوت أخاف السـ . .

* * *

اسكندر قال انه دخل في مشاريع كبيرة أيام الطفرة « المشمشية » ، وانه تورط . البنك وضع يده على كل أملاكه . واعترف لي أنه شريك شعلان . وقال ان ظهوري بعد اختفائي سيربك « البيزنس » . وان

حديثي عن العلمانية سينسف صورتي التي تعكسها شخصية حسنين : السلعة . وقال انه ينبغي علي أن أحمد الله على اهتمام أصحابي باسم السلالة وصورة حسنين . وقال معظم الرموز غيبت ذكراهم عن سابق تصور وتصميم ، أما حسنين فقد « أحيينا » ذكراه من جديد .

وعندما قلت انه يتكلم عني . هز رأسه نافياً وأكد أنه يتكلم على حسنين عموماً . ضبطت أعصابي وسألته من يكون « حسنين عموماً » ، فقال قد يكون أبوك أو جدك أو ابنك ، وأكد أن هذا الاسم ليس ملكاً لي . انه مشاع . ملك الناس والجماهير .

الله الله يا اسكندر . صرت تحكي باسم الجماهير . ضيقت ما بين عيني وسألته متهكماً :

ــ شو صرت مناضل متفرغ انت كمان ؟

ولم يرد . ومد يده إلى المذياع . وانطلق صوت خشخشة مزعج . عاد وأقفله . والتفت إلي . وقال انه أغلق الكافتيرية وحولها إلى مكتب تجاري . وقال انه أصبح وكيل العمارة الرسمي الآن . وان الإيجارات هابطة . وان أبناء الخليج انقطعوا عن زيارة البلد بأعداد كبيرة . وان أم سليمان ستخنقني إذا وقع بصرها علي . لأنها تعتقد أنني سبب مقتل ابنتها . ونصحني بالهجرة . وكنت أشعر بالغثيان والوحشة . فقال وهو يتفحصني :

ــ وجهك أصفر . أوصيلك على صينية لحمة ؟

هزرت رأسي سلباً.

قال :

ــ تاكل فواكه ؟

قلت :

ـ لا .

قال :

ـ قطعة حلو ؟

وقمت . وغادرت بيته الفخم المرهون . واستقبلني الشارع بنور مشرق ، وكان وجهي مظلماً . وكنت أخشى أن أتقيأ . وعلى الرغم من ذلك دخنت سيجارة . مررت بصيدلية ، فدلفت إلى الداخل . وطلبت من الصيدلاني علبة من الفاليوم أو « الموجادون » فقال انه لا يستطيع بيع المهدئات بدون وصفة طبية .

وقبل أن أغادر صيدليته يائساً قال :

ـ الناس بتتعاطى الفاليوم هالأيام مثل الملبس . . وبدون فايدة . جرثومة الأرق الجديدة تتمتع بمناعة عجيبة .

وقر قراري على السعي إلى بيت علاء الدين . فهو محام بالاضافة إلى كونه ابن خالتي . واجتزت الشارع ، وكان الناس متوترين . وأوقفت سيارة أجرة .

فتح لي علاء الدين الباب ، واستقبلني بابتسامة مصطنعة ونظرة قلق طبيعية .

لم أضغط على الجرس ، ولم أقرع الباب . فكيف عرف بقدومي ؟ حدثتني نفسي بأن اسكندر وشعلان اتصلا به وحذراه . والدليل : غياب البغتة والدهشة عن وجهه .

دلفت إلى صالة فخمة . وكان علاء الدين يردد كأسطوانة مشروخة :

ـ أهلاً . . أهلاً . . أهلاً . . أهلاً . . .

اقتعدت كنبة ، ورفعت رأسي فرأيت صورة رئيس دولة عربية . سألته :

ـــ شو . . إنت كمان صرت من الجماعة ؟ سبحان المغير الذي لا يتغير .

تجاهل قولي . وجلس مقابلي مضطرباً شاحباً . فرك يديه وفتح فمه ليقول ، لكنه لم يجد ما يقوله . قلت وأنا أشبك ساقاً على ساق انني جئت لأستشيره في قضية قانونية . فانتفض من مجلسه . وانحنى فوق منضدة من الرخام . تناول علبة سيجار ، وقدم لي واحداً طويلاً . أخذته ، ولم أشكره ، ولم أجفف عرقي ، ولم يشعل لي السيجار . ولم يكن في جيبي علبة كريت . قلت مرة أخرى :

ـــ جيت علشان أستشيرك في . . .

قاطعني قائلاً بحماسة أقرب إلى نوبة عصبية خاطفة :

ـــ تشرب كاس ؟

لوحت بيدي أن لا . وعدت أقول :

ـــ نعم . في قضية غريبة . . الواقع إنو . .

امتقع وجهه وعاد ليقاطعني قائلاً :

ـــ اسمع مني . . خليني أصب لك كاس .

لم أنبس . حدقت إليه بعينين ثابتتين ، نبشت وجهه بحثاً عن علاء الدين القديم بلا جدوى . سألته بصوت صارم :

ـــ هل أنت منهم ؟

مرر أصابعه في شعره . وابتسم ابتسامة مرتبكة سرعان ما بهتت . هز رأسه بالإيجاب ، ثم طرد ذبابة حطت على أنفه . مرت لحظات

صمت ثقيلة مضنية . قطعها بأن قال دون أن ينظر إلي :

ـ قانونياً انت خسران . . حبيبي . لأنو المصنع في بيروت . والشركة في بيروت . ونحن لا نصدر بضاعتنا إلا إلى أسواق محددة . ثم . . ثم . . بالنسبة . . يعني لقضية بلقيس . . وصحبتك مع فزاع . . و . . ثم نحن نبيع سلع تحمل ماركةحسنين . ماقلنا حسنين آدم ، أو حسنين الحكيم ، أو حسنين حسنين .

وقفت . دسست يدي في جيبي بنطالي . قلت :

ـ الظاهر إني ما كنت بعرف حقيقتكم .

فتح علاء الدين أزرار قميصه وقال :

ـ مين فينا بيعرف حقيقة أي واحد ثاني . كلنا « باطنيين » . كلنا أشباح . هذي سمة عصور الظلام .

ـ لما كنت غايب كنتو تكتبو : « ما أحوجنا إليك في هذا الزمن الرديء أيها المعلم » ولما رجعت قلتو : شبح ميت . ولما مت قلتو : في الليلة الظلماء يفتقد البدر . ولما رجعت مرة ثانية صرتو بدكم تصفوني .

ـ انصفيك . أعوذ بالله .

تداعيت على كنبة محدودب الظهر مرهقاً ، وأحسست بأنني أوغلت في الكبر ، وبأنني عاجز تماماً أمام هذا النهب الفاضح لهوية حسنين .

بغتة انفتح باب جانبي وأطلت امرأة تلبس قناعاً من المساحيق والملامح المصطنعة على وجهها . نظرت إلى عيني بجرأة وقالت بتأفف وامتعاض :

ـ أف . . شو هاي الريحة ؟

أغمض علاء الدين عينيه وبان الحرج والارتباك على محياه .

قال بصوت حازم :

ــ ادخلي جوه .

لكنها لم تأبه . تقدمت منا كأنها لم تسمع ما قاله . كانت تلبس قميص نوم لا يكاد يستر مفاتنها . وتحت نهديها مباشرة رأيت صورة حسنين مرسومة على قميص النوم .

لم أتمالك نفسي فأطلقت صرخة احتجاج مزقت السكون السرابي الكاذب وشقته . اندفع علاء الدين نحوي ، وكمم فمي بقبضة يده القوية . ثم التفت إلى المرأة وصاح بحدة :

ــ الظاهر إنو شعرك صاير أطول من اللازم .

أرسلت ضحكة ماجنة وقالت :

ــ يعني بدك تحلقلي ؟ تستغني عن خدماتي ؟

شعرت برعدة في جسدي ودوار في رأسي ، أي حوار مبتذل هذا . « شعرك أطول من اللازم » « يعني بدك تحلقلي » ، ما هذا المستوى ؟

امتلأت سحنة المرأة بالمعاني الثعلبية وقالت بمكر :

ــ بس ما بتقدر تحلقلي . . انت عارف .

سحبت أنفاسي بصعوبة . وسمعتني أقول :

ــ لماذا ؟ ألأنه ليس حلاقاً ؟

امتلأ فمها بالضحك الفاسق . قالت :

ــ انت ليش بتحكي بالفصحى ؟

ثم دنت مني . والتفتت إلى علاء الدين بوجه متقزز . قالت :

ـ أف . . شو هالريحة ؟ ريحة جثة .

أطرق علاء الدين إطراقة مذنب آثم ، ثم رفع رأسه وقال لي :

ـ هذي مديرة شركتنا يا سيدي .

تيار من الغضب العارم اجتاحني فهز كياني كله . صحت :

ـ سوف أرفع قضية على شركتكم . سأتهمكم بتزوير شخصية حسنين .

أرسلت المرأة ضحكتها الفاجرة مرة أخرى ، ورفعت يدها إلى شعرها الفاحم فأرسلته هو أيضاً . قالت :

ـ ترفع قضية على شركة وهمية ؟

صرخت ذاهلاً :

ـ وكمان وهمية !

اندفع علاء الدين نحوها ، حملها بذراعيه القويتين إلى الغرفة الأخرى وهو يغمغم في غضب :

ـ ثرثارة .

لم تقاوم . كانت تضحك وتضحك وتقول :

ـ أف . . ريحة جثة عم تتفسخ .

عاد علاء الدين من الغرفة الأخرى . كان وجهه محتقناً وعيناه ترسلان الشرر . قال :

ـ إسمع . من ناحية قانونية ، ما عندك فرصة . أنا بقدر أثبت إنك إنتحلت شخصية حسنين الحسنين ، وإنك كنت السبب الرئيسي وراء انتحار بلقيس . باختصار بقدر أخرب بيتك . .

وبقدر . . بقدر . . اتهمك بالإساءة بتصرفاتك الهوجاء لحسنين الأصلي .

أصبت في توازني مباشرة ، فتزلزل كياني وتزعزع . هتفت كالمجنون :

ـ كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟

قال بهدوء وهو يستل سيجاراً فاخراً من جيب سترته :

ـ انت بنظر الدولة . . ميت . ثانياً حسنين الرمز اللي خلقناه بيختلف عنك . حسنين اللي صغناه : سيد العارفين ، إمام العالمين ، شيخ الزاهدين ، نور الضائعين والمستضعفين . . فما علاقتك أنت الرجل ، الإنسان ، العادي ، اليومي . . به ؟

ارتعدت وشعرت أنني بحاجة إلى نفسٍ من الأكسجين . اندفعت إلى الخارج ، وقد غفلت عن كل أمري ، وفنيت عن نفسي وما حولها . وركضت كالمجنون في الشوارع الفرعية المقفرة . أتلاطم مع الجدران ، أتعثر وأقع وأقوم وأترنح وأقع من جديد . إلى أن بلغت شوارع مزدحمة بالناس ، فشعرت بوحشتي تخبو ، وتكاد تتلاشى . تسللت إلى جموعهم . بشر ، يتدافعون بالمناكب ، يقفون أمام الأفران في صفوف فوضوية . أحسست بأني استيقظت لتوي من حالة لم تكن نوماً ولا يقظة . وأصخت السمع لما يقوله الناس :

ـ شامم هذي الريحة ؟

ـ شامم .

لزقة جانبية تحمل عشرات الأشخاص وتصب بهم في الشوارع الرئيسة :

ـ فكرك وين رح يضربوا . . ومتى ؟

ــ تلك هي المسألة .

ــ مين هم ؟

ــ الطائرات ؟

ــ السيارات الملغومة ؟

ــ الأشباح ؟

ــ بلا أشباح بلا بطيخ . . هدول ما بيطلعوا إلا في الليل ، علشان هيك سموهم أشباح .

ــ المرة الماضية ضربوا . . .

ــ تونس . .

ــ مقر القيادة الاسرائيلية في صور . .

ــ ما سموهم أشباح علشان بيطلعوا في الليل يا أهبل .

ــ بدي أخزن في غرفة الخزين طحين وسكر ورز . . خايفة من . .

ــ سموهم أشباح لأنهم « سريين » .

ــ كيف « سريين » ؟

ــ بيشتغلوا تحت الأرض . . في الخفاء .

ــ تعبت . . وقفلي تاكسي .

ــ ما في تكـ . . .

ــ شو هالريحة ؟

ــ متى وأين سيضربون هذه المرة ؟

ــ مين هدا اللي بيحيكي بالفصحى ؟

ــ ابني معاه تشيزوفرينيا . . وأنا . .

ــ شو هالريحة يا عالم . رح نفطس .

ــ يختارون الزمان والمكان .

ــ بيقولو عبد الخالق محجوب منهم . . من الأشباح .

ــ ولك عبد الخالق محجوب أعطاك عمرو . . الله يرحمه .

ــ بس هم أشباح . . يعني فيهم « ميتين » .

ــ أحياء أكتر مني ومنك .

ــ شو هالريحة ؟ .

ــ بيقولو عبد الناصر منهم .

ــ بيقولو عبد الرحمن الداخل منهم .

ــ ضربوا مصانع الغاز في صحراء الـ . .

ــ أنابيب الغاز . .

ــ مش فاهم . كأنهم ألغاز وحزازير .

ــ بيقولو واحد من قادتهم اسمه أحمد . .

ــ أحمد إيش ؟

ــ شو هالريحة . . قتلتنا . .

ــ استعجل يمكن يقصفونا . .

ــ الزعتر . .

ــ ليش . .

ـ ما سمعت الأخبار . . في أشباح تسللوا من البحر . . وضربوا باص في تل أبيب .

ـ في القدس وانت الصادق . .

ـ يا عمي شو هالريحة ؟ .

ـ بيقولو هدول أشباح الشهداء اللي استشهدوا في الجزائر .

ـ يا عمي ليش ما في تكسيات ؟؟

ـ بيقولو أشباح الناس اللي بيسكنو في قبور وهم أحياء .

ـ ما في حدا بيسكن القبور ، إلا اللي بشوفوا منامات وحشة .

ـ قبور مصر مليانة سكان . . وناس . . وفقراء . .

ـ وين الولد . .

ـ ضاع في الزحمة . .

ـ وين الـ . . .

ـ بيقولوا أشباح صبرا وشا . . .

ـ أنا بقولْ هالمرة رح يضربوا اليمن الشمالي . . مش تونس .

ـ يمكن يضربوا بيتنا . .

ـ يمكن يضربوا غرفة نومنا . .

ـ الجديدة . .

ـ اشترينا بالتقيسط الـ . . .

ـ الولد وين ؟

ـ أنا ابني في البيت . .

ـ يمكن يضربوا بيت الـ . . .

ـ ابمارح أنا حلمت فيهم . . شفت . .

ـ أنا من أسبوع ما نمت . .

ـ كن واضحاً ، هل تعني بالأشباح منظمة ، جبهة ، حزباً ، عصبة . . محددة معينة ؟

ـ بيقولو إنو الناس بيسكنو القبور في مصر . .

ـ الملاجىء والأقبية في بيروت . .

ـ الكهوف في . . .

ـ الأرصفة في . . .

ـ بيقولوا إنهم بيدوبوهم بالأسيد في الزنازن .

ـ مثل فرج الله . .

ـ بيقولوا انهم بعد ما يذوبوا وينزلوا زي المي في البلاليع . . بيطلعوا في أحلام الناس .

ـ عشان هيك ما حدا عم بينام هالأيام .

ـ ليش الصيدلية مسكرة . . بدي فاليوم . . ما عم بنام .

ـ ليش ما في تكسي ؟؟؟

ـ شو هالريحة ؟

ـ متى سيضربون ؟ . وأين هذه المرة ؟ تلك هي المسألة !

ـ الفاليوم مش منوم . . الفاليوم مهدىء .

ـ ليش الصيدلية مش فاتحة ؟

ـ هذا غضب . . غضب . . من فوق . . إستفر . .

ـ حركة أشباح . .

ـ جايتني . .

ـ سرية . . غاراتهم صارت عادة . . شهرية . .

ـ تحت الأرض . . سـريـة . غضب من فـوق ومـن تحت ومـن جوا . .

ـ دم . .

ـ ليش خايفة ؟

ـ يمكن يقصفوا بيتنا .

ـ في مكتب للمنظمة جنبكم ؟

ـ لا . . في دكـان غاز . ألغـاز ، أحاجي ، أشبـاح . مش عارفـة أفـرق بـين الحلم والمنـام والحقيقـة . مش عـارفـة إحنـا في أي عصر ؟ مش عارفة إحنا فين ؟

ـ أنـا ما بنـام . . . رأيت خيالـو . . ما بنـام إلا في المنام . . بقـول رأيت خيالو . .

ـ ترم . . ترم . . في المنام . . ما أحلاه يا وعدي .

ـ الشبـح . . اللي وعـدوا أنهم يمسكوه . . سـرق منـامي الحلو من عيوني .

ـ واحـد ثاني سـرق منامـة زوجي . سـرقهـا عن حبـل الغسيـل . اختفت . . هيـك . . ليش مـا بـدهم إيـانـا ننـام ؟ . . يعني الأشباح مفكرين إنو إحنا زي أهل الكهف ؟

وكان صوت فيروز يسأل من محل ضيق شعبي لبيع الكاسيتات :

ــ أنا مين اللي صحاني من عز النوم ؟

ترلم . .

* * *

كان وجهي يطلع من آلاف الوجوه مضرجاً بدمه . وصوت فيروز يكرر السؤال بإلحاح :

ــ أنا مين . . صحاني . . من . . عز النوم ؟

ترلم . . ترلم . . لم . . دم . . دم . . تردم . . دم . . دم يدمدم دم يدندن . . دم . . دم . . ترلم . .

وكان وجهي يطلع من آلاف الوجوه مضرجاً بدمه . . بدمائهم . . بالدماء .

والأفق أحمر يزدحم بوهج دموي أحمر . وأسئلة قانية تسيل من حروفها خيوط الدم .

دم يدمم . دم يدمدم . دم يدمدم . آلاف الوجوه ، عشرات الآلاف . آلاف الأصوات . عشرات الآلاف . آلاف العيون ، آلاف الأذرع ، آلاف الأقدام . . كائن واحد يسأل ويتساءل .

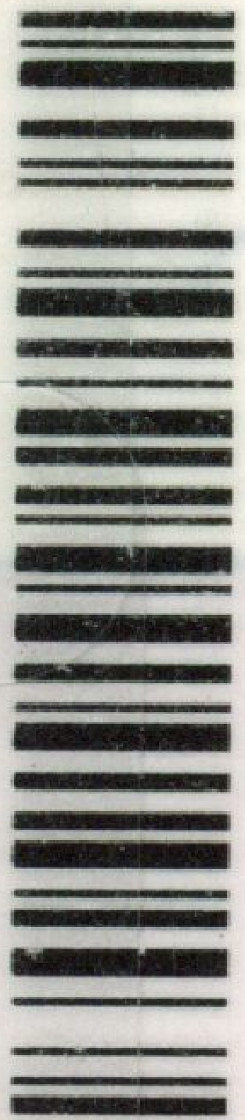
* * *

عمان ١٩٨٣ ـ ١٩٨٦

مَتاهة الأعراب في ناطحات السَّراب

حين بدأت مراجعة هذه الرواية خيل إلي أنني أقرأ فيها سيرة حياة الكاتب بل خلت أنني أقرأ فيها سيرة حياة كل من اكتوى بنار الظلم وتفاهة المتسلطين . إنها تكاد تروي مأساة أمة في رجل ، رجل شق طريقه بعلمه واخلاصه وإيمانه نحو الهدف الأسمى في هذه الحياة ـ هدف خدمة أمته ووطنه . ولكنه يصطدم بأناس لا همَّ لهم غير الوصول ، حتى اذا وصلوا راحوا يتخلصون من امثال ذلك الرجل الذي نذر نفسه لوطنه دون أن يلتفت إلى المخاطر التي تحيط به وبأهله ، إن هو لم يتنحّ عن الطريق الذي رسمه .

لا شك أن التعريف برواية من هذا الحجم وهذا الموضوع في سطور قد يكون ضرباً من الشعبذة ان لم يكن رجماً بالغيب ، ومع هذا فليس لنا إلا ان نقول واثقين بأن مؤنس الرزاز قد حلّق في هذه الرواية أيما تحليق .



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً ـ موكيالي ـ بيروت ـ ص. ب : ٥٤٦٠/١١ بيروت